التّفسير الجَامع

فضيلة الشّيخ الدّكتور محمّد عبد السّتار السّيد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

القرآن الكريم معجزةٌ خالدةٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ، وعطاؤه متجدّدٌ لا ينفد، وكلّما تطوّر العقل البشريّ استطاع أن يستمدّ من القرآن الكريم وعلومه ما يوافق التّطوّر العلميّ الّذي وصل إليه.

وآيات القرآن الكريم مكتنزةٌ بعطائها العلميّ والفكريّ والرّوحيّ، وهو كتاب هدايةٍ، فيه إشاراتٌ علميّةٌ لا يمكن أن تُصادم العقل البشريّ في أيّ زمنٍ من الأزمان.

وهذا التّفسير هو محاولة تدبّرٍ لآيات كتاب الله؛ امتثالاً لأمره سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمّد]، متمسّكين بهدي نبيّنا محمّد فهو الّذي عليه نزل وبه أخذ وعمِل، فقد كان ﷺ قرآناً يمشي بين النّاس في نهجه وسيرته وسلوكه وهديه وأقواله وأفعاله، وبالعلم الّذي به أمر ﷺ.

فكان هذا التّفسير الجامع محاولةً عصريّةً للأخذ من عطاء القرآن الكريم الّذي لم يفرغ في زمن النّزول، وإنّما تعدّى كلّ العصور، ومواكبةً لتطوّر العقل البشريّ ومعطيات العلم الحديث في فهم النّصّ من خلال التّفكّر والتّعقّل والتّدبّر الّذي أمر به القرآن الكريم: (أفلا يعقلون، أفلا يتفكّرون، أفلا يتدبّرون، أفلا ينظرون).

والله وليّ التّوفيق

الشّيخ الدكتور محمّد عبد السّتّار السيّد

الجُزءُ السّابع عشر

ســورة الأنبياء (١-١١٢)

ســورة الحــجّ (١-٧٨)

سُورَةُ (الأنبياء)

الآيات: (١-١١٢)

سورة الأنبياء

هي السّورة الواحدة والعشرون في ترتيب المصحف، وهي سورة مكّيّة بقول الجميع، عدد آياتها (١١٢) آية، وأُنزلت بعد سورة (إبراهيم)، وقبل سورة (المؤمنون)، وهي السّورة (٧٢) بترتيب نزول القرآن الكريم.

(الآية ١) - ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾:

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾: الاقتراب: إمّا أن يكون زمناً أو مكاناً، فإذا كانت المسألة في مسافات، قلنا: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ يعني مكانه، وإذا كانت للزّمن، قلنا: اقترب زمنه، فالاقتراب: دُنُوّ الحدث من ظرفيّة الزّمان أو المكان، والحقّ سبحانه وتعالى حينما يُعبِّر بالماضي: ﴿ٱقۡتَرَبَ﴾ يدلّ على أنّ ذلك أمرٌ لازم وسيحدث، ولا بُدَّ من أن يحدث، بينما البشر حينما يتحدّثون عن أمرٍ مُقبِل يقولون: يقترب، ولا يقولون: اقتربَ؛ لأنّ (اقتربَ) هكذا بالجزم والحكم بأنّه حدثَ فعلاً لا يقولها إلّا الله سبحانه وتعالى الّذي يملك الأحداث ويقدر عليها، أمّا الإنسان فلا يملك الأحداث، ولا يستطيع الحكم على شيءٍ لا يملكه بعد أن يتلفّظ بهذا اللّفظ، ومثال ذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: من الآية ١]، فلا يُقال لك: لا تستعجل شيئاً إلّا إذا كان لم يحدث بَعْد، فكيف جمع بين الماضي ﴿أَتَىٰٓ﴾ [النّحل: من الآية ١]، والمستقبل ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: من الآية ١]؟ فأيّ أمر يتعلّق بالمستقبل لا يملكه الإنسان، ولا يستطيع أن يتحدّث عنه إلّا إذا قال: إن شاء الله، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: ٢٣ - من الآية ٢٤]، فلا بُدَّ أن نُردِف القول عن

المستقبل بالمشيئة؛ لأنّي إن قلت: "سأفعل ذلك غداً"، فهناك فعلٌ وهناك قدرةٌ تُعين على الفعل، ونحن لا نملك منها شيئاً، وربّما جاء غَدٌ فتغيَّر عنصر من هذه العناصر، وحال بيننا وبين ما نريد، فينبغي أن نُبرِّئ أنفسنا من احتمال الكذب، فنقول: إن شاء الله، ونردُّ الأمر إلى القادر عليه الّذي يملك هذه العناصر كلّها، فالله سبحانه وتعالى يعلّمنا ألّا نكون كاذبين، ونجد أنّ اللّغة قد راعتْ قدرة المتكلّم، ووضعتْ له الزّمن المناسب، فإنْ علمتَ حدوث الفعل قُلْ بالماضي: "حضر فلان"، وإنْ علمتَ أنّه توجّه للحضور واستعدَّ له، قُلْ: "سيحضر فلان"؛ أي: قريباً، أو سوف يحضر؛ أي: بعد ذلك، هذا الّذي يناسب قدرة البشر، أمّا الحقّ سبحانه وتعالى فيملك زمام الأشياء وتوجيهها، وكلّ شيء مرهون بأمره التّكوينيّ، فإنْ قال للأمر المستقبل: (أتى) أو (اقترب)، فصدِّق؛ لأنّه لا شيء يُخرج الأمر عن مراده سبحانه وتعالى، وهو وحده الّذي يملك الانفعال لكلمة ﴿كُن﴾، فإنْ قالها فَقد انتهتْ المسألة؛ لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ بصيغة الماضي، ولم يقل: (يقترب) أو (سيقترب)، وقد ورد الفعل الماضي ﴿ٱقۡتَرَبَ﴾ أيضاً في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١﴾ [القمر]، فاقترب غير قَرُب، قرُب: يعني دنا، أمّا اقترب؛ أي: دنا جدّاً حتّى صار قريباً منك.

﴿حِسَابُهُمۡ﴾: الحساب: كلمة لها معانٍ عِدّة: فالحساب أنْ تحسب الشّيء بالأعداد جمعاً، أو طرحاً، أو ضَرْباً، وتدير حصيلة لك أو عليك، فإنْ كانت لك فأنت دائن، وإنْ كانت عليك فأنت مدين، أو تربط المسبَّبات بأسبابها، أمّا الحساب في: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ فيقتضي مُحَاسِباً هو الله عزّ وجلّ،

ومُحَاسَباً هم النّاس، ومُحَاسَباً عليه وهي الأعمال والأحداث الّتي أحدثوها في دنياهم، وهذه قسمان: قسم قبل أنْ يُكلَّفوا، وقسم بعد أن كُلِّفوا، فما كان قبل التّكليف وسِنِّ البلوغ لا يحاسبنا الله ﷻ عليه، إنّما تركنا نمرح ونرتع في نِعَمه ﷻ دون أن نُسأل عن شيء، أمّا بعد البلوغ فقد كلَّفنا بأشياء تعود علينا بالخير، وألزمنا المنهج الّذي يضمن سعادتنا بـ (افعل) و(لا تفعل)، وهذا يقتضي أن نحاسَب، فَعَلنا أم لم نفعل، فالمسألة حساب، وليست جُزَافاً، جماعة في الجنّة وجماعة في النّار، والمحاسِب هو الله ﷻ، وهو ﷻ خبير، فإنْ كان الحساب في الخير عامَلَنا بالفضل والزّيادة كما يشاء ﷻ؛ لذلك يضاعف الحسنات، وإنْ كان الحساب في الشّرّ كان على قَدْره دون زيادة، كما قال ﷻ: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ٢٦﴾ [النّبأ]، وما دام المحاسِب هو الله ﷻ، فهو لا ينتفع بما يقضيه على الخَلْق، فمن رحمته بِنَا ونعمته علينا أنْ حذَّرنا من أسباب الهلاك، ولم يأخذنا على غَفْلة، ولم يفاجئنا بالحساب على غرّة، إنّما أبان لنا التّكاليف، وأوضح الحلال والحرام، وأخبرنا عن يوم الحساب لنستعدَّ له، فلا نسير في الحياة على هوانا، فقال ﷻ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزّلزلة]، ومن رحمته ﷻ بعباده أنْ وعدهم هذا الوعد، وعرّفهم هذا الميزان وهم في سَعَة الدّنيا، فيمكن لهم تدارك الأخطاء، واستئناف التّوبة والعمل الصّالح، ومن رحمته بنا أنّه يعِظنا هذه الموعظة ويكرّرها على أسماعنا ليلَ نهارَ، فالله ﷻ لم يُفاجئْنا بالقيامة وأهوالها، فمن الآن اعلم أنّه: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾، وما دام الأمر كذلك فعلى الإنسان أن يُقَدِّر قَدْر الاقتراب، ومتى سينتقل إلى يوم الحساب، ولا تظنّ أنّ عُمرك هو عمر الدّنيا منذ خلقها

الله ﷻ، إنّما عمرك ودنياك على قَدْر مُكْثك فيها، فبمجرّد موتك انتهى عملك، فالفترة قصيرة، ولا يمهلك الأجل حتّى تتوب، والسّاعة قد تكون بعيدة، وبيننا وبين القيامة وقت طويل لا يعلمه إلّا الله ﷻ، لكن من مات انقطع عمله، واقترب وقت حسابه؛ لأنّ المدّة الّتي يقضيها في القبر لا يشعر بها، فكأنّها ساعة من نهار، لذلك قال ﷻ: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾.

﴿لِلنَّاسِ﴾: مع أنّ الحساب لهم وعليهم، ومن مصلحة النّاس الحساب، وإلّا لتحوّلت الدّنيا إلى غابة.

﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾: الغفلة معناها: زحزحة الشّيء عن بال الإنسان، والواجب ألَّا يزحزح عنه، وإنّما أنْ يتذكّره ولا يغفل عنه، والغفلة غير النّسيان، فالغفلة أن تهمل مسألة كان يجب ألَّا تهملها، وألَّا تغيب عن بالك، أمّا النّسيان فخارج عن إرادة الإنسان، وغفلتهم هنا عن أصل وقمّة الدّين، وهو الإيمان بالألوهيّة، والغفلة عن الأحكام الّتي جاء بها الدّين، وهذه هي المعاصي، والكلام هنا عن الكافرين بدليل قوله ﷻ بعدها: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾.

﴿مُّعۡرِضُونَ﴾: تدلّ على الافتعال؛ أي: أنّهم مفتعلون هذا الإعراض.

(الآية ٢) - ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٢﴾:

﴿مُّحۡدَثٍ﴾: يعني: يسمعونه جديداً لأوّل مرّة.

﴿إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾: لا يعطونه اهتماماً، ولا يُلْقون له بالاً،

وهم يتعمّدون هذا، ويُوصِي بعضهم بعضاً به، ويُحرّضون عليه، كما جاء في قول الحقّ ﷻ حكاية عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصّلت].

واللّعب: أن تشغل نفسك بعملٍ لا قَصْدَ فيه لغاية، كما يأخذ الطّفل الصّغير كرّاسة أخيه، ويعبث فيها بالقلم دون هدف.

وهناك أيضاً اللّهو، يقول ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾ [محمّد: من الآية ٣٦]، واللّهو: هو عمل مقصود لغاية، لكنّ هذه الغاية تضعها أنت لنفسك، أو يضعها غيرك ممَّنْ يريد أنْ يُفسِدك بها.

(الآية ٣) - ﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٣﴾:

﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ﴾: ويا ليت كلّاً منهم يفعل هذا الفعل في نفسه، إنّما يتآمرون جميعاً على الحقّ ليفسدوه باللّعب واللّهو.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى﴾: أي: يتناجَوْن بالإثم ويُسِرُّونه، والنَّجْوى أو التّناجي: خَفْض الصّوت، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾ [المجادلة: من الآية ٧]، فلا تظنّوا أنّكم مستورون عن الله ﷻ، أو تُخْفون عنه شيئاً.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: كأنّ سائلاً سأل: ومَن الّذي أسَرَّ؟ فأجاب: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، وكلمة: ﴿ظَلَمُواْ﴾ عامّة في الظّلم، فقد ظلموا أنفسهم أوّلاً؛ لأنّ ظلمهم عائدٌ عليهم بالعذاب، والشّرك أعظم ظلم، قال ﷻ:

﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾، ثمّ ظلموا النّاس ثانياً فأكلوا حقوقهم.

فما النّجوى الّتي أسرَّهَا القوم؟ ومَنْ أخبر رسول الله ﷺ بها؟ النّجوى هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ [المجادلة: من الآية ٨]، فكيف عرف محمّدٌ ﷺ هذه المقولة، وقد قالوها في أنفسهم وأسرُّوها؟ ألم يكُن على هؤلاء أن يتنبَّهوا: كيف عرف ﷺ مقولتهم؟ وأنّ الّذي أخبره بما يدور هو ربُّه الإله الأعلى، الّذي لا تَخْفى عليه خافية، كان عليهم أن يلتفتوا إلى ربّ محمّد ﷺ، الله الإله الحقّ الّذي يعلم خَبْءَ كلّ شيء فيرتدعوا عَمَّا هم فيه، وممّا جاء في تناجيهم:

﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾: فأنكروا أن يكون رسولاً؛ لأنّه بشر، والرّسول لا بُدَّ أن يكون ملكاً حسب زعمهم.

﴿أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ﴾: فسمُّوا القرآن الكريم سِحْراً؛ لأنّهم يروْنَ السِّحر يُفرِّق بين الابن وأبيه، والأخ وأخيه.

﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾: أنّ القرآن الكريم يفعل مثل هذا.

(الآية ٤) - ﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٤﴾:

كأنّ سائلاً قال: من أين لك يا محمّد بكلّ هذا وقد أسرّه القوم؟

﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾: فلا تَخْفى عليه خافية.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾: السّميع لما يُقال ويُسرّ، العليم بما يُفعل، فالأحداث أقوال وأفعال.

(الآية ٥) - ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٥﴾:

﴿بَلۡ﴾: تعني أنّهم تمادَوْا، ولم يكتفوا بما قالوا، بل قالوا أيضاً:

﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ﴾: أضغاث: جمع ضِغْث، وأصل الحزمة من الحشيش مختلفة الأشكال، كما جاء في قصّة أيّوب عليه السلام: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ﴾ [ص: من الآية ٤٤]؛ أي: حزمة من أعواد الحشيش، وقد وردْت أيضاً في رُؤْيا عزيز مصر: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾ [يوسف].

﴿بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾: أي: تمادَوْا، فقالوا: تعمّد كذبه واختلاقه.

﴿بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ﴾: فأقوالهم واتّهاماتهم لرسول الله ﷺ متضاربة في ماهيّة ما هو؟ وهذا دليل تخبّطهم، فمرّة ينكرون أنّه من البشر، ومرّة يقولون: ساحر، ومرّة يقولون: مفتر، والآن يقولون: شاعر!! ثمّ يقولون:

﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾: كأنّ آية القرآن الكريم ما أقنعتْهم، فلم يكتفُوا بها، ويطلبون آية أخرى مثل الّتي جاء بها السّابقون، والقرآن الكريم يردّ عليهم في هذه المسألة: لو أنّهم سيؤمنون إذا جاءتهم الآية المعجزة من السّماء الّتي اقترحوها لأنزلناها عليهم، إنّما السّوابق تؤكّد أنّهم لنْ يؤمنوا مهما جاءهم من الآيات، وهذا من أسباب العذاب.

(الآية ٦) - ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾:

فهذه التّجربة مَرَّت مع غيرهم من الأمم السّابقة، وهم كأمثالهم من

السّابقين لو أنزلنا عليهم الآية ما آمنوا، كما لم يؤمن سابقوهم، كما قال سُبحانه وتعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨﴾ [الأنعام: من الآية ٢٨].

(الآية ٧) - ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧﴾:

يردُّ الحقّ سُبحانه وتعالى على اعتراضهم على بشريّة الرّسول ﷺ وطلبهم أن يكون الرّسول ملكاً، كما قالوا في موضعٍ آخر: ﴿أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التّغابن: من الآية ٦]، يعني: هم مثلنا، وليسوا أفضل منَّا، فكيف يهدوننا؟ وهل الرّسول يهديكم ببشريّته؟ أم بشيء جاءه من أعلى؟ هل منهجه من عنده؟ الرّسول ليس مُصلِحاً اجتماعيّاً، إنّما هو مُبلّغ عن الله عزّ وجلّ ربّي وربّكم، وقد سبقت السّوابق فيمَنْ قبلكم أن يكون الرّسول بشراً: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾، ولو أرسلنا إليهم ملَكاً لجاءكم الرّسول مَلَكاً.

﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾: وهم أصحاب الرّسالات السّابقة، ماذا أرسلنا إليهم أرِجالاً أم ملائكة؟ ذلك لأنّ المفروض في النّبيّ أن يكون قدوة لقومه وأُسْوة، مُبلّغَ منهج، وأُسْوةَ سلوك، منهج يُطبّقه على نفسه، فهو لا يحمل النّاس على أمرٍ هو عنه بنَجْوة، إنّما هو أُسْوتهم وقُدْوتهم، وشرطٌ أساسيٌّ في القدوة أنْ يكون من الجنس ذاته: المتأسِّي مع المتأسّى به.

﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾: أي: إنْ كنتم في شكٍّ من هذه المقولة فاسألوا أهل الذّكر من السّابقين من أهل الكتاب.

﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾: لأنّها مسألة عِلْمُها مشكوك فيه.

(الآية ٨) - ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝٨﴾:

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ﴾: أي: الرّسل.

﴿جَسَدًا﴾: يعني: شيئاً مصبوباً جامداً لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرّك، إنّما هم بشر يأكلون ويشربون كأيّ بشر، ويمشون في الأسواق، ويعيشون حياة البشر العاديّة.

﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾: فليس الخلود من صفة البشر، قال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ۝٣٤﴾ [الأنبياء]، وقال ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: من الآية ١٨٥]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزّمر].

(الآية ٩) - ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾:

هذه سُنّة من سُنَن الله ﷻ في الرّسل أنْ يَصْدقهم وعده، وهل رأيتم رسولاً عانده قومه وحاربوه واضطهدوه، وكانت النّهاية أن انتصروا عليه؟ ألم يقل الحقّ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصّافّات]، وكان صِدْق الوعد أن أنجيناهم ومَنْ نشاء وأهلكنا المسرفين.

﴿الْمُسْرِفِينَ﴾: الّذين تجاوزوا الحدَّ المعروف.

فنهاية الرّسل جميعاً النُّصْرة من الله ﷻ، والوفاء لهم بما وعدهم.

(الآية ١٠) - ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾:

يخاطب الحقّ ﷻ المكذِّبين للنّبيّ ﷺ: ما أنزلتُ إليكم آية بعيدة عن معرفتكم، إنّما أرسلتُ إليكم رسولاً بآية من جنس ما نبغتُم فيه، ولـمّا نزل القرآن الكريم فهمتموه وعرفتم مراميه، بدليل أنّ في القرآن الكريم ألفاظاً تُستقبل بالغرابة، ولم تعترضوا أنتم عليها، ولم تُكذِّبوا محمّداً فيها مع أنّكم تتلمّسون له خطأ، وتبحثون له عن زلّة، فمثلاً لـمّا نزلتْ: ﴿الٓمٓ﴾ ما سمعنا أحداً منهم قال: أيّها المؤمنون بمحمّد، إنّ محمّداً يدَّعي أنّه أتى بكتاب مُعْجز فاسألوه: ما معنى ﴿الٓمٓ﴾؟ ما فعلوا ذلك، ممّا يدلّ على أنّهم فهموها وقبلوها، ولم يجدوا فيها مَغْمزاً في رسول الله ﷺ؛ لأنّ العرب في لغتهم وأسلوبهم في الكلام يستخدمون هذه الحروف للتّنبيه.

﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْۚ﴾: سبق أنْ أوضحنا أنّ الذّكر يُطلق بمعنى: القرآن الكريم، أو بمعنى: الكتب المنزّلة، أو بمعنى: الصِّيت والشّرف، أو بمعنى: التّذكير أو التّسبيح والتّحميد، والذّكر هنا قد يُرَاد به تذكيرهم بالله ﷻ خالقاً، وأنّه أنزل القرآن الكريم شرفاً لهم، ويكفي أنّ القرآن الكريم عربيّ، وهو شرفكم وصيْتكم ومكانتكم ونباهة شأنكم بين الأمم؛ لأنّ القرآن الكريم الّذي نزل للدّنيا كلّها نزل بلغتكم، فكأنّ الله ﷻ يبيّن لهم أنّ القرآن الكريم نزل عربيّاً فكان أولى لهم أن يؤمنوا.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أفلا تُعمِلون عقولكم وتتأمّلون أنّ خيركم في هذا

القرآن الكريم في الدّنيا والآخرة، فإنْ كنتم تريدون خُلقاً وديناً ففي القرآن الكريم، وإنْ كنتم تريدون شرفاً وسُمعة وصيتاً ففي القرآن الكريم، وأيُّ شرفٍ بعد أن يقول النّاس: النّبيّ عربيّ، والقرآن الكريم عربيّ؟ فالقرآن الكريم نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين، فحفظ الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بأن جعل اللّغة العربيّة وعاءً لكلامه، فهي محفوظة بالقرآن الكريم، وأخذت عزّها وصيتها من القرآن الكريم، ومن كلام الله عز وجل، «وَفَضْلُ كَلَامِ اللهِ عَلَى سَائِرِ الكَلَامِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ»[1].

(الآية ١١) - ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ١١﴾:

﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا﴾: القَصْم: هو الكَسْر الّذي لا جَبْرَ فيه، وكأنّ الحقّ سبحانه وتعالى يضع أمام أعينهم القُرى المكذِّبة الظّالمة، ليأخذوا منها عِبْرة وعِظَة، فليس بِدَعاً أنْ نقصم ظهور المكذِّبين، بل لها سوابق كثيرة في التّاريخ، لذلك قال: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا﴾، وكم هنا خبريّة تُفيد الكثرة الّتي لا تُعَدُّ، فاحذروا إنْ لَوَيتُم أعناقكم أَنْ يُنزِل الله عز وجل بكم ما نزل بهم.

﴿وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾: أي: خَلفَ بعدهم خَلْف آخرون.

(الآية ١٢) - ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ١٢﴾:

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ﴾: أي: حين أحسُّوا العذاب.

﴿إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ﴾: حتّى لا يلحقهم العذاب.

---

(١) سنن التّرمذيّ: أبواب فضائل القرآن، باب ٢٥، الحديث رقم (٢٩٢٦).

والرَّكْضُ: الجَرْي السّريع بهَرْولة، والأصل فيه: رَكْضُ الدّابّة، يعني: ضَرْبها برِجْله كي تُسرع، ومنها: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ [ص: من الآية ٤٢]، يعني: اضرب الأرض برِجلك لِتُخرج الماء: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾ [ص: من الآية ٤٢].

(الآية ١٣) - ﴿لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ١٣﴾:

الحقّ سبحانه وتعالى في قصّة هؤلاء المكذِّبين قدَّم الغاية من العذاب، فقال: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ﴾، ثمّ فصَّل القَصمْ بأنّهم لمّا أحسّوا العذاب تركوا قريتهم، وأسرعوا هاربين حتّى لا يلحقهم العذاب، وهنا يقول لهم: لا تركضوا وعودوا إلى مساكنكم، وإلى ما أُترِفْتم فيه.

والتّرفُ: هو التّنعُّم، نقول: ترف الرّجل يترف، مثل: فرح يفرَح؛ أي: تنعَّم، فإذا زِيدتْ عليها همزة، فقيل: أترف الرّجل، فمعناها: أخذ نعيماً وأبطره، ومنها أيضاً: أترفَهُ الله سبحانه وتعالى، يعني: غرَّه بالنّعيم؛ ليكون عقاباً له.

فقوله هنا: ﴿إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ﴾، من أترفه الله سبحانه وتعالى، يعني: أعطاهم نعيماً لا يؤدّون حقَّه، فيجرّ عليهم العذاب، لكن ما دام الله سبحانه وتعالى يريد بهم العذاب، فلماذا يُنعِّمهم؟ قالوا: فَرْق بين عذاب واحد وعذابين: العذاب أن تُوقع على إنسان شيئاً يؤلمه، أمّا أن تُنعِّمه وترفعه ثمّ تعذبه، فقد أوقعتَ به عذاباً فوق عذاب، ومن ذلك قَوْلُ القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ [الأنعام: من الآية ٤٤]، أعطيناهم الصّحّة والمال والجاه والأرض والدُّور والقصور، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ [الأنعام: من

الآية ٤٤]، وهكذا يكون أَخذْه أليماً شديداً، فعلى قَدْر ما رفعهم الله ﷻ على قَدْر ما يكون عذابهم.

ومَلْمَح آخر في قوله ﷻ: ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأنعام: من الآية ٤٤]، لا لهم كما في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١﴾ [الفتح]، فليس هذا كلّه في مصلحتهم، بل هو وَبَال عليهم، فلا تغترُّوا بها، فقد أعطاها الله ﷻ لهم، وهم سيَبطرون بها، فتكون سببَ عذابهم.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾: أي: عودوا إلى مساكنكم وقصوركم وما كنتم فيه من النّعيم، لعلّ أحداً يمرُّ بكم فيسألكم: أين ما كنتم فيه من النّعيم؟ أين ذهب؟ لكن ما هم فيه الآن من الخزي سيُخرس ألسنتهم، ولن يقولوا شيئاً ممّا حدث، إنّما سيكون قولهم وسلوكهم:

(الآية ١٤) - ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤﴾:

لمّا أحسَّ المكذِّبون بأْسَ الله ﷻ وعذابه حاولوا الهرب ليتخلّصوا من العذاب، فقال لهم: ارجعوا إلى ما كنتم فيه، فلن يُنجيكم من عذاب الله ﷻ شيء، ولا يفوت عذاب الله ﷻ فائت، فلمّا وجدوا أنفسهم في هذا الموقف لم يجدوا شيئاً إلّا الحسرة فتوجَّهوا إلى أنفسهم ليقرّعوها، ويحكموا عليها بأنّها تستحقّ ما نزل بها.

﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ﴾: ينادون على العذاب، كما تقول: يا بؤسي، أو: يا شقائي.

﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾: ظالمين لأنفسهم؛ لأنّهم لا يستطيعون أن يظلموا

ربّهم بأنّهم كفروا به، ولكنّهم ظلموا أنفسهم، قال ﷻ: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦﴾ [الزّخرف].

(الآية ١٥) - ﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ١٥﴾:

﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾: أي: قولهم: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، فلم يقولوها مرّة واحدة سرقة عواطف مثلاً، إنّما كانت ديدنهم، وأخذوها تسبيحاً: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، فلا شيءَ يشفي صدورهم إلّا هذه الكلمة يُرِدِّدونها، كما يجلس المذنب يُعزِّي نفسه نادماً يقول: أنا مُخطئ، أنا مخطئ...

﴿حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا﴾: الحصيد: أي: المحصود وهو الزّرْع بعد جمعه.

﴿خَٰمِدِينَ﴾: الخمود من أوصاف النّار بعد أنْ كانت مُتأجِّجة مشتعلة ملتهبة صارت خامدة، ثمّ تصير تراباً وتذهب حرارتها، كأنّ الحقّ ﷻ يشير إلى حرارتهم في عداء الرّسول ﷺ، وجَدَلهم وعنادهم معه ﷺ، وقد خمدتْ هذه النّار وصارتْ تراباً.

(الآية ١٦) - ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦﴾:

ربّنا ﷻ يعطينا المثل الأعلى في الخلْق؛ لأنّ خَلْق السّموات والأرض مسألة كبيرة، يقول ﷻ: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: من الآية ٥٧]، فالنّاس يولَدون ويموتون، وتتجدّد الحياة بأقوام آخرين، أمّا السّماء والأرض وما بينهما من نجوم وكواكب فهو خلْق هائل عظيم منضبط

ومنظوم طوال هذا العمر الطّويل، لم يطرأ عليه خَلَل أو عطل، والحقّ ﷻ لا يمتنُّ بخَلْق السّماء والأرض وما بينهما؛ لأنّها أعجب شيء، ولكن لأنّها مخلوقة للنّاس ومُسخَّرة لخدمتهم، فالسّماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم وهواء ومطر وسحاب، والأرض وما عليها من خَيْرات، بل وما تحتها أيضاً: ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ [طه: من الآية ٦]، الكلّ مخلوق للإنسان، خادم له، ويصبُّ عنده وبين يديه، فالجماد يخدم النّبات، والنّبات يخدم الحيوان، وكلّهم يخدمون الإنسان، فإنْ كان الإنسان هو المخدوم الأعلى في هذا الكون فما عمله هو؟ وما وظيفته في كون الله ﷻ؟ فكلّ ما دون الإنسان له مهمّة يؤدّيها، فما هي مهمّة الإنسان؟ فإنْ لم يكن لنا مهمّة في الحياة فنحن أتفه من الحيوان، ومن النّبات، حتّى ومن الجماد، فلا بُدَّ أنْ نبحثَ عن عملٍ يناسب سيادتنا على هذه المخلوقات، ثمّ هل سُخِّرَت هذه المخلوقات من قِبَلِنا نحن، من أنفسنا لأنفسنا؟ أو أنّ الله ﷻ سخّرها وذلّلها لخدمتنا؟ فكان علينا أن نلتفت لمن سخّر لنا هذه المخلوقات وهي أقوى منّا، فالكون مملوك لك، ونحن مملوكون جميعاً مع الكون لله ﷻ، فلا تنشغل بالمملوك لك عن المالك لك.

فما الحكمة من خَلْق السّماء والأرض وما بينهما؟ الحكمة أنّه لولا هذه المخلوقات ما كُنَّا سنستدلّ على القوّة القادرة وراء خَلْق هذا الكون، ولو نظرنا إلى هذا الكون لأمكننا أنْ نُقسِّمه إلى قسمين: قسم لا دَخْلَ لنا فيه أبداً، وهذا نراه منسجماً في نظامه واستقامته وانضباطه، وقسم يتدخّل فيه الإنسان، وهذا الّذي يحدث فيه الخَلَل والفساد، قال ﷻ: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ

يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ٤٠﴾ [يس]، فالكَوْن من حولنا يسير بأمر خالقه، منضبط لا يتخلّف منه شيء، فلو أخذنا مثلاً سنة كاملة (٣٦٥) يوماً، ثمّ حاولنا أنْ نعيدها في عام آخر لوجدنا أنّ الشّمس طلعتْ في اليوم الأوّل من المكان نفسه، وفي اليوم الثّاني من مكان اليوم الثّاني نفسه، وهكذا بدقّة متناهية، سبحان خالقها؛ لذلك فالّذين يضعون التّقويم لمعرفة الأوقات يضعون تقويم ثلاث وثلاثين سنة يُسجِّلون دورة الفلك، ثمّ يتكرّر ما سجَّلوه بانضباط شديد، ومن ذلك مثلاً إذا حدَّد العلماء موعد الكسوف أو الخسوف أو نوعه جزئيّ أو حَلْقيّ، فإذا ما تابعناه نجده منضبطاً تماماً في موعده نفسه، وهذا دليل على انضباط هذا الكون وإحكامه؛ لأنّه لا تدخُّل للإنسان فيه، وفي المقابل لننظر إلى أيِّ شيء للإنسان فيه تدخّل: فمثلاً نحن يكيل بعضنا لبعض، ويزن بعضنا لبعض، ويقيس بعضنا لبعض، ويخبز بعضنا لبعض، ويبيع بعضنا لبعض.. إلخ، لننظر إلى هذه العلاقات نجدها -إلاّ ما رحم الله جل جلاله- فاسدة مضطربة، ما لم تَسِرْ على منهج الله عز وجل، فإن سارت على منهج الله سبحانه وتعالى استقامت كاستقامة السّماء والأرض، فكلّما رأيتَ شيئاً فاسداً، شيئاً قبيحاً، فاعلم أنّ الإنسان وضع أنفه فيه، وكأنّ الخلق الّذي خلقه الله سبحانه وتعالى يقول للإنسان: أنت لستَ أميناً حتّى على نفسك، فالله جل جلاله خلق لك هذا الكون كلّه، ولم يشذّ منه شيء، ولا اختلَّتْ فيه ظاهرة، أمّا أنت أيّها الإنسان؛ لأنّك مختار فقد أخللْتَ بنفسك وأتعبتها.

(الآية ١٧) - ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧﴾:

﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾: فلو أردنا اللّهو لفعلناه، فنحن نقدر على كلّ شيء، وقوله: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، تدلّ على أنّ ذلك لن يحدث أبداً، فمعنى اللّهو هو أن تنصرف إلى عملٍ لا هدف له ولا فائدة منه، فالإنسان اللّاهي يترك الأمر المهمّ ويذهب إلى الأمر غير المهمّ، فاللّهو واللّعب حركتان من حركات الجوارح، ولكنّها حركات لا مقصد لها إلّا الحركة في ذاتها، فليس لها هدف كماليّ نسعى له من خلال هذه الحركة، وهذا يمتنع في حقّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

(الآية ١٨) - ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨﴾:

﴿بَلۡ﴾: للإضراب، ما دام أنّهم فعلوا اللّهو واللّعب، وخانوا نِعَم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في السّماء والأرض فليعلموا أنّ هذا الحال لن يستمرّ، فالحقّ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يُملي للباطل ويُوسّع له حتّى يزحف ويمتدّ، حتّى يأخذه أخْذ عزيز مقتدر، ويقذف عليه بالحقّ.

﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ﴾: القذف: الرَّمْي بشدّة مثل القذائف المدمّرة.

﴿فَيَدۡمَغُهُۥ﴾: يقال: دمغه؛ أي: أصاب دماغه، والدّماغ أشرف أعضاء الإنسان ففيه المخّ، وهو ميزان المرء، فإنْ كان المخّ سليماً أمكن إصلاح أيّ عطل آخر، أمّا إنْ تعطّل المخّ فلا أملَ في النّجاة بعد ذلك؛ لذلك جعل الحقّ

تبارك وتعالى عَظْمة الدّماغ أقوى عظام الجسم لتحفظ هذا العضو المهمّ، والأطباء لا يحكمون على شخصٍ بالموت مثلاً إذا توقّف قلبه؛ لأنّ القلب يُجرى له تدليك معيّن فيعود إلى عمله، كذلك التّنفّس، أمّا إنْ توقّف المخّ فقد مات صاحبه، فهو الخليّة الأولى الّتي تحتفظ بآخر مظاهر الحياة في الجسم؛ لذلك يقولون: موت إكلينيكيّ، وللمخّ تصل خلاصة الغذاء، وهو المخدوم الأعلى بين الأعضاء، فالجسم يأخذ من الغذاء ما يكفي طاقته الاحتراقيّة في العمل، وما زاد على طاقته يُختزَن على شكل دهون يتغذّى عليها، حين لا يوجد الطّعام، فإذا ما انتهى الدُّهْن تغذَّى على اللّحم، ثمّ على العَظْمِ؛ لِيُوفِّر للمخّ ما يحتاجه، فهو السّيّد في الجسم، ومن بعده تتغذّى باقي الأعضاء، فكلّ شيء في الجسم يخدم المخّ؛ لأنّه أَعْلَى الأعضاء، أمّا النّبات مثلاً فيخدم أسفله؛ أي: الجذر، فإذا جَفَّ الماء في التّربة، ولم يجد النّبات الغذاءَ الكافي يتغذّى على أعلاه فيذبل أوّلاً، ثمّ تتساقط الأوراق، ثمّ تجفّ الفروع الصّغيرة، ثمّ الجذع، ثمّ الجذر، ومن ذلك قول سيّدنا زكريّا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: من الآية ٤]، فالعَظْم آخر مخزَن للغذاء في الجسم، فَوهَنُ العظم دليل على أنّ المسألة أوشكتْ على النّهاية، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾: أي: يصيبه في أهمّ الأعضاء.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ﴾: زاهق: يعني خارج بعنف، ففي النّهاية انتصر الحقّ على الباطل، وأزهق الحقّ الباطل.

﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾: يعني: أيّها الإنسان المغترّ بعناده في الباطل، وقد

وقف بعقله وقلبه ليصادم الحقّ، سنقذف بالحقّ على باطلك، فنصيب دماغه فيزهق، عندها ستقول: يا ويلتي، كما سبق أنْ قالوا: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، حينما يباشرون العذاب.

وقد يقول قائل: لماذا يُملِي الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى للباطل حتّى يتمرَّد ويعلو، ثمّ بعد ذلك يعلو عليه الحقّ فيدمغه؟ نقول: الحكمة من هذا أنْ تتمّ الابتلاءات، والنّاس لا تعشق الحقّ إلّا إذا رأتْ بشاعة الباطل، ولا تعرف منزلة العدل إلّا حينما ترى بشاعة الظّلم، وبضدّها تتميّز الأشياء، كما قال الشّاعر:

فالوجهُ مثل الصُّبحِ مُبْيَضٌّ   والشَّـعرُ مثل اللّيـلِ مُسْـوَدُّ
ضِدّانِ لمّا استجمِعَا حَسُنَا   والضِدُّ يُظهِرُ حُسْـنَهُ الضِدُّ

فلا نعرف جمال الحقّ إلّا بقُبْح الباطل، ولا حلاوة الإيمان إلّا بمرارة الكفر.

(الآية ١٩) - ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩﴾:

سبق أن أخبر الحقّ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أنّه خلق السّماء والأرض وما بينهما، وهذا ظَرْف، فما المظروف فيه؟ المظروف فيه هم الخَلْق، وهم أيضاً لله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وإنْ كان من الخَلْق مَنْ ميّزه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بالاختيار - كالإنسان- يؤمن أو يكفر، يطيع أو يعصي، فإنْ كان مختاراً في أمور التّكليف فهو مقهور في أمورٍ أخرى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾ [الأحزاب: من الآية ٧٢]، فاختارت التّسخير على الاختيار

الّذي لا طاقة لها به، أمّا الإنسان فقد دعاه عقله إلى حملها وفضّل الاختيار، ورأى أنّه سيُوجّه هذه الأمانة التّوجيه السّليم: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢﴾ [الأحزاب: من الآية ٧٢]، فوصفه الله ﷻ بأنّه كان في هذا العمل ظلوماً جهولاً؛ لأنّه لا يدري عاقبة هذا التّحمّل، فإنْ قلنا: فما ميزة طاعة السّموات والأرض وهي مضطرّة؟ نقول: هي مضطرّة باختيارها، فقد خيَّرها الله ﷻ فاختارت الاضطرار.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾: أي: ليسوا أمثال البشر، فهم لا يكذبون ولا يكفرون، بل هم في عبادة دائمة لا تنقطع، والمراد هنا الملائكة؛ لأنّهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التّحريم: من الآية ٦].

﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾: من حسر: يعني ضَعُفَ وكَلّ وتعب وأصابه الملل والإعياء، ومنه قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك]؛ أي: كليل ضعيف، لا يَقْوى على مواجهة الضّوء الشّديد كما لو واجهت بعينيك ضوءَ الشّمس أو ضوء سيّارة بشكل مباشر، فإنّه يمنعك من الرّؤية؛ لأنّ الضّوء الأصل فيه أن نرى به ما لا نراه.

(الآية ٢٠) - ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾:

فهؤلاء الملائكة يعبدون الله ﷻ ويسبّحونه، لا يصيبهم ضَعْف ولا فُتُور، ولا يشعرون بالملل من العبادة والتّنزيه له ﷻ، فالملائكة لا تتكبّر عن عبادته والخضوع له ﷻ، والحقّ ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢٠٦﴾ [الأعراف].

(الآية ٢١) - ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١﴾:

أي: فما لهم أعرضوا عن هذه الحقائق كلّها؟ ألهم آلهة غيري وأنا خالق السّماء والأرض، وهي لي بمَنْ فيها من الإنس والجنّ والملائكة؟ فالجميع عَبْد لي يُسبّح بحمدي، فما الّذي أعجبهم في غيري فأعرضوا عنّي، وانصرفوا إليه؟ كأنّ الحقّ سبحانه وتعالى يستنكر انصرافهم عن الإله الحقّ الّذي له هذا الملك كلّه، وله هذه الأيادي والنِّعَم كلّها.

﴿هُمۡ يُنشِرُونَ﴾: أي: لهم قدرة على إحياء الموتى وبَعْثهم، وشيء من هذا كلّه لم يحدث؛ لأنّه:

(الآية ٢٢) - ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾:

فمَع انصرافكم عن الإله الحقّ الّذي له مُلْك السّماء والأرض، وله تُسبّح المخلوقات جميعها، لا يوجد إله آخر.

﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: أي: ما زال الكلام مرتبطاً بالسّماء والأرض.

﴿لَفَسَدَتَاۚ﴾: السّماء والأرض، وهما ظرفان لكلِّ شيء من خَلْق الله عزّ وجلّ.

﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾: إلّا: أداة استثناء تُخرِج ما بعدها عن حكم ما قبلها، كما لو قلتَ: جاء القوم إلّا محمّد، فقد أخرجتَ محمّداً عن حكم القوم وهو المجيء، فلو أخذنا الآية على هذا المعنى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾: يعني: لو كان هناك آلهة، الله سبحانه وتعالى خارج عنها لفسدت السّموات والأرض، فما الحال لو قلنا: لو كان هناك آلهة والله سبحانه وتعالى معهم؟ هل معنى ذلك أنّها لا

تفسد؟ فإلّا إنْ حقّقت وجود الله ﷻ، فلم تمنع الشّركة مع الله ﷻ، فليس هذا مقصود الآية، فالآية تقرّر أنّه لا إله غيره، إذن: ﴿إِلَّا﴾ هنا ليست أداة استثناء، إنّما هي اسم بمعنى: (غير)، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: من الآية ٣٦]، فالمعنى: لو كان فيهما آلهة موصوفة بأنّها غير الله ﷻ لفسدتا، فامتنع أن يكون هناك شريك، وهناك آية أخرى، يقول ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء]، الحقّ ﷻ يعطينا القسمة العقليّة في القرآن الكريم: فلنفرض جدلاً أن هناك آلهة أخرى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا﴾ [الإسراء: من الآية ٤٢]؛ أي: لو حدث هذا ﴿لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: من الآية ٤٢]، السّبيل: الطّريق؛ أي: طلبوا طريقاً إلى ذي العرش؛ أي: إلى الله ﷻ، لماذا؟ إمّا ليجادلوه ويصاولوه، كيف أنّه أخذ الألوهيّة من خلف ظهورهم، وإمّا ليتقرّبوا إليه ويأخذوا ألوهيّة من باطنه، وقوّة في ظلّ قوّته، وهذا يستحيل، وقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ [المؤمنون: من الآية ٩١]، وهذه الآية الكريمة وأمثالها تثبت أنّه ﷻ موجود وواحد، أمّا على اعتبار أنّ ﴿إِلَّا﴾ استثناء فهي تثبت أنّه موجود، إنّما معه شريك، وليس واحداً، فهي هنا بمعنى غير، ولمّا كانت مبنيّة بناء الحروف ظهر إعرابها على ما بعدها: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فيكون إعراب (غيرُ) إعرابَ ﴿إِلَّا﴾ الّذي ظهر على اسم الجلالة (ٱللَّهُ)، لكن لماذا تفسد السّماء والأرض إنْ كان فيهما آلهة غير الله ﷻ؟ قال العلماء: لأنّك في هذه المسألة أمام أمرين: إمّا أن تكون هذه الآلهة مستوية في صفات الكمال، أو هناك إله واحد

له صفات الكمال والآخر له صفة نقص، فإنْ كان لهم صفات الكمال، اتّفقوا على خَلْق الأشياء أم اختلفوا؟ إنْ كانوا متّفقين على خَلْق شيء، فهذا تكرار لا مُبرِّر له، فواحد سيخلق، والآخر لا عملَ له، ولا يجتمع مؤثّران على أثر واحد، فإن اختلفوا على الخَلْق: يقول أحدهم: هذه لي، ويقول الآخر: هذه لي، فقد علا بعضهم على بعض، أمّا إنْ كان لأحدهم صفة الكمال، وللآخر صفة النّقص، فصاحب النّقص لا يصحّ أن يكونَ إلهاً، وهكذا الحقّ ﷻ يُصرِّف لنا الأمثال ويُوضِّحها ليجلّي هذه الحقيقة بالعقل وبالنّقل: لا إله إلّا الله، واتّخاذ آلهة معه ﷻ أمر باطل، كذلك يردُّ على الّذين يدعون مع الله ﷻ آلهة أخرى، مثل مَنْ قالوا: العزيرُ ابن الله، وغير ذلك، ومَن اتّخذوا الملائكة آلهة من دون الله ﷻ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: من الآية ٥٧]، إنّ هؤلاء الّذين تدعُونهم مع الله ﷻ يطلبون إليه وسيلة، ويتقرّبون إليه ﷻ، وينظرون أيّهم أقرب إلى الله ﷻ من الآخر، فكيف يكونون آلهة؟

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾: أي: تنزيهاً لله ﷻ عَمَّا قال هؤلاء.

﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: يُلحِدون ويكذبون ويفترون.

والعرش: هو السّرير الّذي يجلس عليه المَلِك، وهو علامة المُلْك والسّيطرة، كما في قوله ﷻ عن ملكة سبأ على لسان الهدهد: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النّمل]، فحين يقول ﷻ ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾: ينصرف إلى عرشه ﷻ، الّذي لا يعلو عليه، ولا ينازعه عَرْش آخر، والعرش هو أعظم المخلوقات.

(الآية ٢٣) - ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾:

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾: فالله سبحانه وتعالى لا يُسأل عمّا يفعل؛ لأنّ السّائلَ له مراتب مع المسؤول، والعادة أن يكون المسؤول في مرتبة أَدْنى من السّائل؛ لذلك لا أحدَ يسأل الله جل جلاله عَمَّا يفعل، أمّا هو سبحانه وتعالى فيسأل النّاس، لذلك قال بعضهم: الدّليل على أنّ الله سبحانه وتعالى لا شريك له، خَلْقه لفلان؛ لأنّه لو كان له شريك لكان عارضه في هذه المسألة، فلا أحد أعلى من الله عز وجل، حتّى يسأله: لِمَ فعلتَ كذا وكذا؟.

(الآية ٢٤) - ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٤﴾:

طالما اتّخذتم من دون الله سبحانه وتعالى آلهة فهاتوا البرهان على صِدْقها، كما أنّ الله سبحانه وتعالى -وهو الإله الحقّ- أتى بالبراهين الدّامغة على وجوده، وعلى قدرته، وعلى وحدانيّته، فهاتوا أنتم أيضاً ما لديكم، أم أنّها آلهة لا أدلّةَ لها ولا برهانَ عليها، فلم تنزل كتاباً، ولم ترسل رسولاً، ولم تأتِ بمنهج، فأين هم؟ إذا لم يكونوا على دراية بما يحدث، فهي آلهة غافلة لا يصحّ أنْ يكون لها هذه المنزلة، وإنْ كانوا على دراية فلمَ لَمْ يُجابهوا الحقائق ويدافعوا عن أنفسهم؟ فهم ضعفاء عن هذه المواجهة.

﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْۖ﴾: أي: هاتوا الدّليل على وجود آلهة غير الله عز وجل، والبرهان: التّدليل بإيجاد الكون على هذا النّظام البديع، فهل سمعتم أنّ إلهاً

آخر قال: أنا الّذي أوجدتُ؟ هل أرسل رسولاً بآية؟ فهذا كلام كذب وافتراء واختلاق من عند أنفسكم؛ فأنتم لستم أهل علم في شيء.

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾: كأنّ للحقّ سمات يُعلم بها، فَمنْ أقبل على معرفة الحقّ وجده، أمّا مَنْ أعرض عن المعرفة، فمن أين له أنْ يعرف؟ فالحقّ موجود ولو التمسوه لوجدوه وعرفوه، وأمسكوا بالدّليل عليه، وبعضهم يقول: إنّ الإسلام يعتمد على الغيبيّات دون تفكير، فهو يُلغي العقل، وهذه الآيات تُثبت بشكل دقيق بأنّ الله ﷻ أعطانا العقل وطلب منّا أن نؤمّن من خلاله، هاتوا برهانكم، في كلّ آياته، وفي كلّ حكمته، وفي كلّ خلقه، وفي كلّ دليل آية على أنّه لا إله إلّا الله ﷻ، ولكنّنا لم نعرف كيف نصدّر هذه الحقائق، ولم نعرف كيف نتعامل مع هذا الواقع، فعندما نريد أن نتحدّث عن الإسلام يجب أن نخاطب عقول النّاس مع قلوبهم، وليس أن ندغدغ العواطف ونلغي العقول، ودليل على ذلك نجد في آيات القرآن الكريم: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾، والقرآن الكريم كلّه عبارة عن حوارات ونقاش بين الرّسل ومَن آمنوا معهم وبين المكذّبين والمشركين والّذين كفروا بهم، وكلّها أدلّة وبراهين، وموادّ للعقل البشريّ، فمن أين جاءت هذه التّهمة الباطلة بأنّ الإسلام يُلغي العقل ويُعلي النّصّ، النّصّ جاء ليأخذه العقل وليتدبّره، بدليل قوله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمّد]، والقرآن الكريم هو النّصّ، والمطلوب أن تتدبّره، ووسيلة التّدبّر هي العقل الّذي وضعه الله ﷻ وكرّم به الإنسان، ليفكّر وليخترع وليعمل وليعلم وليصل إلى حقيقة أنّه لا إله إلّا الله.

(الآية ٢٥) - ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾:

فقضيّة التّوحيد واضحة منذ بداية الرّسالات إلى خاتمة الرّسالات، جاءت كلّها بقول: لا إله إلّا الله، قضيّة مشتركة بينها جميعاً.

﴿مِن رَّسُولٍ﴾: (منْ) هنا للشّمول والتّعميم، يعني: كلّ أفراد الرّسل، كلّ مَنْ يُقَال له: رسول، فلو قال لك شخص: ما عندي مال، لا يمنع هذا القول أن يكون عنده قليل من المال، قروش مثلاً لا يُقال لها: مال، فإنْ قال لك: ما عندي من مال، فقد نفى وجود جنس المال من بداية ما يقال له: مال؛ أي: ما عندي حتّى قرش واحد.

فما جئتم به من مسألة الشّرك بالله سبحانه وتعالى أو إنكاره عز وجل مسألة جديدة.

(الآية ٢٦) - ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾:

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾: أي: تنزيهاً له أنْ يكون له ولد، بل له عباد مكرمون وهم الملائكة، ومن صفات هؤلاء العباد المكرمين الّذين هم الملائكة أنّهم:

(الآية ٢٧) - ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾:

ومع أنّهم عباد مكرمون إنّما لا يسبقونه بالقول، فلا يقولون ما لم يقُلْه ولا يتقدّمون عليه بقول حتّى إنْ وافق مراد الله عز وجل، ولا يفعلون ما لم يأمر به، وكأنّ الله سبحانه وتعالى يعطينا إشارة لبعض آفات المجتمع، فمن آفات المجتمع أن ترى الأغنياء والكبراء يصنعون لأنفسهم هالة من باطنهم، ويفعلون ما لم يأمر به،

ويُقدِّمون أوامرهم على أوامره.

﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾: أي: يأتمرون بأمره، فإنْ أمر فعلوا، وإنْ نَهَى تركوا، ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التّحريم: من الآية ٦].

(الآية ٢٨) - ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨﴾:

الكلام هنا عن العباد المكرمين من الملائكة، فَمَع أنّ الله سبحانه وتعالى أكرمهم وفضَّلهم، إلّا أنّه لم يتركهم دون متابعة ومراقبة، إنّما يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولم تُترك لهم مسألة الشّفاعة يُدخلون فيها مَنْ أحبّوا، إنّما:

﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾: أي: لمن ارتضاه الله سبحانه وتعالى وأحبّه، فلا تظنّ أنّهم ﴿عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾ [الأنبياء: من الآية ٢٦]؛ أي: يفعلون ما يحلو لهم، لا، بل هم ملتزمون بحدودهم لا يتعدّونها مطيعون.

﴿مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾: فليسوا مع هذا الإكرام مطمئنّين آمنين، إنّما مشفقون خائفون وجلون من خشية الله عزّ وجلّ، ثمّ يقول الحقّ سبحانه وتعالى:

(الآية ٢٩) - ﴿۞وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾:

أي: على فَرْض أنْ قال أحدهم هذا القول، فهذا كلام لم يحدث، ولا يمكن أنْ يُقال منهم: ﴿فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لماذا؟ لأنّهم أخذوا الظُّلم في أعلى مراتبه وعنُفوانه وطغيانه، ظلم في مسألة القمّة: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: من الآية ١٣]، لذلك يُهدّدهم، مع أنّهم ملائكة

ومكرمون، لكن إنْ بدر من أحدهم هذا القول فجزاؤه جهنّم، وفي هذا اطمئنان للخَلْق أجمعين.

بعد ذلك أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ يُدلِّل على هذه الوحدانيّة الّتي أكّدها في كلامه السّابق، والوحدانيّة في طَيّها الأحديّة؛ لأنّ هناك فَرْقاً بينهما، وليستا مترادفتين كما يظنّ بعض النّاس، فواحد وأحد وَصفْان لله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ۝١٦﴾ [الرّعد: من الآية ١٦]، فالواحد؛ أي: الفرد الّذي لا يُوجد له نظير، وهذا الواحد في ذاته أحد؛ أي: ليس له أجزاء، فالواحديّة تمنع أنْ يُوجد فَرْد مثله، والأحديّة تمنع أن يكون في ذاته مُكوّناً من أجزاء؛ لأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لو كوّن من أجزاء لصار كلّ جزء محتاجاً في وجوده إلى الجزء الآخر، فلا احتياج له في وجوده ليكوّن كلّه، فلا هو كلّيّ، ولا هو جزئيّ، فاختار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للتّدليل آيات الكون الموجودة والمشهودة الّتي لا يمكن أنْ ينكرها أحد؛ لأنّها آيات مُرتّبة واضحة ونافعة في الوقت نفسه، فقد يكون المرئيّ واضحاً لكن لا حاجة لك فيه، فالإنسان يشعر بمنفعة الشّمس لو غابت عنه، ويشعر بمنفعة المطر إن امتنعت السّماء عن المطر.. فمشهوديّة هذه الآيات تقتضي الالتفات إليها، والنّفعيّة فيها تقتضي أيضاً الالتفات إليها، حتّى وهي غائبة عنّا، فننظر ونتطلّع إلى عودتها من جديد، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالنّسبة إلينا غيبٌ، وأمر الغيب غير مُتصوَّر عقليّاً، فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يقرّب إلى أذهاننا من صنعه أن نتعرّف على الصّانع الخالق، وأعطانا الأدلّة على وجوده من خلال خلقه، ومن خلال آياته في كونه، وبقياس بسيط يستطيع الإنسان أن يصل إلى الإيمان، أمّا أن تقول: أريد أن أعرف كيف وُجِد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ ومتى

وُجِد الله ﷻ؟ وكيف هو خارج الزّمان والمكان؟ فهذه أمور غيبيّة، وهو غير مُحَسّ للإنسان، والأمر غير المُحَسّ لا يمكن تقريبه للعقل البشريّ، فتأخذ بالمادّيّات الّتي يعرفها ويستطيع أن يتعامل معها العقل البشريّ حتّى تُثبِت ما غاب عن الإنسان، لذلك نجد أنّ الله ﷻ عندما يريد أن يتحدّث عن البعث يتحدّث عن النّبات، وكيف تصبح الأرض مخضرّة، وكيف ينزل المطر، وهنا جاءت هذه الآية العظيمة:

(الآية ٣٠) - ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾: يعني: أعميتْ أبصارهم، فلم ينظروا إلى هذا الكون البديع الصّنع المحكم الهندسة والنّظام، فيكفروا؛ لأنّهم لم يروا آيات الله ﷻ؟ ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾، والحديث هنا عن السّماء والأرض، وقد قال ﷻ: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف]، فهذه مسألة لم يشهدها أحد، ولم يخبرهم أحد بها، فكيف يروْنَها؟ سبق أن تكلّمنا عن الرّؤية في القرآن الكريم، وأنّ لها استعمالات مختلفة: فتارة تأتي بمعنى: نظر؛ أي: بصريّة، وتأتي بمعنى: علم، ففي قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل]، والنّبيّ ﷺ لم يَرَ هذه الحادثة ولم يشهدها؛ لأنّه وُلِد في عامها نفسه، فالمعنى: ألم تعلم، فلماذا عَدلَ السّياق عن الرّؤية البصريّة إلى الرّؤية العلميّة، مع أنّهم يقولون: ليس مع العَيْن أيْن؟ قال العلماء: لأنّ الله ﷻ يريد أن ينبّه رسوله ﷺ إلى أنّه صحيح لم يرهَا

بعينيه، لكنّ ربّه أخبره بها، وإخبار الله جَلَّ جَلَالُهُ أصدق من رؤية العينين، فإذا أخبرك الله عَزَّ وَجَلَّ بشيء فإخبار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أصدقُ من رؤية العين، فالعين يمكن أنْ تخدعك، أو ترى بها دون أن تتأمّل، أمّا إخبار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لك فصادقٌ لا خداعَ فيه، ومن ذلك أيضاً قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ٨٣﴾ [مريم]، لكن كيف تمَّتْ الرّؤية العلميّة لهم في مسألة خَلْق السّموات والأرض؟ قالوا: لأنّ الإنسان حين يرى هذا الكون البديع كان يجب عليه ولو بغريزة الفضول أنْ يتساءلَ: من أين جاء هذا الكون العجيب؟ والإنسان بطبعه يلتفت إلى الشّيء العجيب، ويسأل عنه، حتّى لو كان لا يعنيه ولا ينتفع به، فما بالُكَ إنْ كان شيئاً نافعاً له؟ فكان عليهم أن ينظروا: مَنِ الّذي نبّأَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه المسألة؟ خاصّة وقد كانوا يسألون عنها اليهود، وقد جاءهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمعجزة تُثبِت صدقه في البلاغ عن الله عَزَّ وَجَلَّ، وتُخبرهم بما كانوا يبحثون عنه، وما دام الكلام من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهو صدق: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ١٢٢﴾ [النّساء: من الآية ١٢٢]، وفي التّوراة كلام عن خَلْق السّماء والأرض يقول: إنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أوّل ما خلق الخَلْق، خلق جوهرة، ثمّ نظر إليها نظرَ الهيبة فحصل فيها تفاعل وبخار ودخان، فالدّخان صعد إلى أعلى فكوَّنَ السّماء، والبقيّة ظلّتْ فكوَّنت الأرض، وهكذا كان لديهم طرف من العلم عن مسألة الخَلْقِ؛ لذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾، وقد كان للمستشرقين كلام حول قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾، قالوا: السّموات جمع، والأرض كذلك جنس لها جمع، فالقاعدة تقتضي أنْ نقول: (كُنَّ رتقاً) بضمير الجمع، وصاحب هذا الاعتراض

لم يَدْر أنّ الله ﷻ نظر إلى السّماء كنوع والأرض كنوع، فالمراد هنا السّماويّة والأرضيّة وهما مُثنًّى، وفي القرآن الكريم نظائر كثيرة لهذه المسألة؛ لأنّ القرآن الكريم جاء بالأسلوب العربيّ المبنيّ على الفِطنة والذّكاء ومُرونة الفهم، فخُذْ مثلاً قوله ﷻ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: من الآية ٩]، فلم يقُلْ حسْب الظّاهر: (اقتتلتَا)؛ لأنّ الطّائفة وإنْ كانت مفرداً إلّا أنّها تحوي جماعة، والقتال لا يكون بين المجموع، إنّما بين أفراد هذه وأفراد هذه، فالقتال ملحوظ فيه الجمع: ﴿ٱقْتَتَلُواْ﴾، فإذا ما جِئْنا للصُّلْح لا يتمّ بين هؤلاء الأفراد، وإنّما بين ممثّل عن كلّ فئة، فالصُّلْح قائم بين طرفين؛ لذلك يعود السّياق للتّثنية: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ [الحجرات: من الآية ٩].

والرَّتْق: الشّيء الملتحم الملتصق.

﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾: أي: فَصلْنَاهما وأزَحْنَا هذا الالتحام، وهذا الكلام أُثبت الآن عندما تحدّثوا عن الانفجار الكونيّ العظيم: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصّلت: من الآية ١١]، والعلماء ساعةَ يستقبلون الآية الكونيّة لهم فيها مذاهب اجتهاديّة مختلفة؛ لأنّها تتعرَّض لحقيقة الكون، وهذا أمر قابل للخلاف، فالعربيّ القديم لم يكُنْ يعرف كثيراً عن الظّواهر الكونيّة، لا يعرف الجاذبيّة، ولا يعرف كُرويّة الأرض ولا حركتها، والقرآن الكريم أشار إلى ذلك كلّه، وترك الأمور لارتقاءات البشر الحضاريّة والثّقافيّة، فلمّا جاء العلم تبيّن صحّة ما جاء في كتاب الله ﷻ، والحقّ أنّ هناك فرقاً بين نظريّة علميّة، وحقيقة علميّة، فالنّظريّة مسألة محلّ بحث ومحلّ

دراسة لم تثبت بَعْد؛ لذلك يقولون: هذا كلام نظريّ؛ أي: يحتاج إلى ما يؤيّده من الواقع، أمّا الحقيقة العلميّة فمسألة وقعتْ تحت التّجربة، وثبت صدقها عمليّاً ووثقنا أنّها لا تتغيّر، فعلينا ألّا نربط القرآن الكريم بالنّظريّة الّتي تحتمل الصّدق أو الكذب، حتّى لا يتذبذب النّاس في فَهْم القرآن الكريم، ويتّهمونا أنّنا نُفسِّر القرآن الكريم حَسْب أهوائنا، أمّا الحقيقة العلميّة الثّابتة فإذا جاءت بحيث لا تُدفَع فلا مانعَ من ربطها بالقرآن الكريم، من ذلك: مسألة كرويّة الأرض، فعندما قال بها العلماء اعترض كثيرون، وأثاروها ضجّة وألَّفوا فيها كتباً، ومنهم مَنْ حكم بكفر مَنْ يقول بذلك؛ لأنّ هذه المسألة بنظرهم لم ينصّ عليها القرآن الكريم، ومع تقدّم العلم، وتوفّر الأدلّة الكافية لإثبات هذه النّظرية، وجدوا الكواكب الأخرى مُدوَّرة كالشّمس والقمر، فلماذا لا تكون الأرض كذلك؟! كذلك إذا وقفتَ مثلاً على شاطئ البحر، ونظرتَ إلى مركبٍ قادم من بعيد لا ترى منها إلّا طرفَ شراعها، ولا ترى باقي المركب إلّا إذا اقتربتْ منك، عَلامَ يدلُّ ذلك؟ هذا يدلّ على أنّ سطح الأرض ليس مستوياً، إنّما فيه تقوُّس وانحناء يدلّ على كُرويّتها، فلمّا جاء عصر الفضاء، وصعد العلماء للفضاء الخارجيّ، وجاؤوا للأرض بصور، فإذا بها كُرويّة فعلاً، وهكذا تحوّلتْ النّظريّة إلى حقيقة علميّة لا تُدفع، ولا جدال حولها، ومَنْ خالفها حينما كانت نظريّة لا يسعه الآن إلّا قبولها والقول بها، وما قلناه عن كُرويّة الأرض نقوله عن دورانها، ومَنْ كان يُصدّق قديماً أنّ الأرض هي الّتي تدور حول الشّمس بما عليها من مياه ومَبانٍ وجبال وغيره؟ ولك أن تأخذَ كوزاً ممتلئاً بالماء، وتربطه بخيط من أعلى، ثمّ تديره بسرعة من أسفل إلى أعلى،

وتلاحظ أنّ فوهة الكوز إلى أسفل دون أنْ ينسكب الماء، لماذا؟ لأنّ سرعة الدّوران تفوق جاذبيّة الأرض الّتي تجذب الماء إليها، بدليل أنّنا إذا تهاونّا في دوران الكوز سيقع الماء من فُوهته، ولا بُدّ من وجود تأثير للجاذبيّة، فجاذبيّة الأرض هي الّتي تحتفظ بالماء عليها أثناء دورانها، هذا كلّه قد أشار إليه القرآن الكريم، لكن لا نستطيع ربطه بالقرآن الكريم ما لم يكن هناك حقيقة علميّة واضحة، أمّا أن نلتقط نظريّة وليدة في طَوْر البحث والدّراسة، ثمّ نفرح بربطها بالقرآن الكريم كما حدث أوائل العصر الحديث والنّهضة العلميّة، حين اكتشف العلماءُ المجموعةَ الشّمسيّة، وكانت في بدايتها سبعة كواكب فقط مُرتّبة حسب قُرْبها من الشّمس في المركز: عطارد، فالزّهرة، فالأرض، فالمرّيخ، فالمشتري، فزُحَل، فأورانوس، حيث أسرع بعض العلماء بالقول: بأنّها السّموات السّبع، وكتبوا في ذلك بحوثاً، ومرَّتْ الأيّام، فاكتشف العلماء الكوكب الثّامن (نبتون)، ثمّ التّاسع، فرَبْط النّظريّة الّتي لم تتأكّد بَعْد علميّاً في القرآن الكريم خطأ فادح، ومن الممكن إذا توفَّرت لهم أجهزة أحدث ومجاهر أكبر -كما يقول بعض علماء الفضاء- أن يكتشفوا كواكب أخرى كثيرة؛ لأنّ مجموعتنا الشّمسيّة هذه واحدة من مئة مليون مجموعة في المجرّة الّتي نسمّيها: (درب التّبّانة)، ولدينا كثير من الآيات الّتي تتحدّث عن دوران الأرض: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النّحل: من الآية ٨٨]، ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس]، فكيف اللّيل لا يسبق النّهار إذا لم تكن الأرض كرويّة؟

لكن لا ندخل فيها إلّا إذا أصبحت النّظريّة حقيقة علميّة، فلا يمكن أن تناقض الحقيقة العلميّة الآيات على الإطلاق؛ لذلك نجدها موافقة لما في القرآن الكريم. وقد تباينتْ آراء العلماء حول هذه الآية ومعنى الرَّتْق والفتْق، فمنهم مَنْ قال بالرّأي الّذي قالتْه التّوراة، وأنّها كانت جوهرة نظرَ الله ﷻ إليها نظرة المهابة، وحدث لها كذا وكذا، وتكوَّنت السّماء والأرض، ومنهم مَنْ رأى أنّ المعنى خاصٌّ بكلّ من الأرض والسّماء، كلّ على حِدَة، وأنّهما لم يكونا أبداً ملتحمتين، واعتمدوا على بعض الآيات مثل، قوله ﷻ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨﴾ [عبس]، وفي موضعٍ آخر قال: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢﴾ [القمر]، واجتهد كلّ على حسبه، وهذا ليس صحيحاً، فالعلم الآن أثبت بشكلٍ قاطع أنّ الانفجار الكونيّ العظيم هو الّذي أدّى إلى تشكّل السّموات والأرض، فقول القرآن العظيم: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ أدقّ تعبير يمكن أن يعبّر عن هذه الحقيقة وعن الانفجار الكونيّ العظيم، وهنا نقول: بأنّ القرآن الكريم سبق العلم وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾، فحدث الانفجار الكونيّ الكبير فانفصلوا عن بعضهم.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾: قال العلماء: ما دام ذكر هنا الماء، فلا بُدَّ أنّ له صلة بالرَّتْق والفَتق في كلٍ من الأرض والسّماء، ونلحظ أنّ الآية لم تَقُلْ: (كلّ شيء حيّاً)، إنّما: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾، وقد استدلّوا بها على أنّ (الحيَّ) المراد به الحياة الإنسانيّة الّتي نحياها، ولم يفطنوا إلى أنّ الماء

داخلٌ في تكوين كلّ شيء، فالحيوان والنّبات يحيا على الماء، فإنْ فَقَد الماء مات وانتهى، وكذلك الأدنى من الحيوان، فكُلُّ ما فيه لمعة أو طراوة أو ليونة فيه ماء، فالمعنى: ﴿كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾؛ أي: كلّ شيء مذكور موجود، والتّحقيق العلميّ أنّ لكلّ شيء حياةً تناسبه، وكلّ شيء فيه ماء، حتّى الجماد، فكلّ شيء في المخلوقات حتّى الجماد له حياة، وفي تكوينه مائيّة، كما قال ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾، ويختتم ﷻ هذه الآية بقوله:

﴿أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾: كان يجب عليهم أنْ يلتفتوا وينتبهوا إلى هذه الآيات العجيبة والنّافعة لهم.

(الآية ٣١) - ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣١﴾:

﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾: الرّواسي: الجبال جمع رَاس، يعني: ثابت، وقد عبّر عنها أيضاً بالأوتاد، فقال: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧﴾ [النّبأ]، شبّه الجبال بالنّسبة إلى الأرض بالأوتاد بالنّسبة إلى الخيمة، ثمّ يذكر عِلَّة ذلك:

﴿أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾: أي: مخافة أن تميل وتضطرب وتتحرّك بهم، ولو أنّها مخلوقة على هيئة الثّبوت ما كانت لتميد أو تتحرّك، وما احتاجت إلى التّثبيت بالجبال؛ لذلك قال ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النّمل: من الآية ٨٨]، فليس غريباً الآن أن نعرف أنّ للجبال حركة، وإنْ كنّا لا نراها؛ لأنّها ثابتة بالنّسبة إلى موقعنا منها؛ لأنّنا نسير بحركة سيرها نفسه، كما لو أنّك وصاحبك في مركب، والمركب تسير بكما، فأنت لا تدرك حركة صاحبك؛

لأنّك تتحرّك بحركته نفسها، وقد شبَّه الله ﷻ حركة الجبال بمرِّ السّحاب، فالسّحاب لا يمرّ بحركة ذاتيّة فيه، إنّما يمرُّ بدفْع الرّياح، كذلك الجبال لا تمرّ بحركة ذاتيّة إنّما بحركة الأرض كلّها، وهذا دليل واضح على حركة الأرض.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾: أي: من حكمة الله ﷻ أنْ جعل لنا في الأرض سُبُلاً نسير فيها، فلو أنّ الجبال كانت كتلة تملأ وجه الأرض ما صَلُحَتْ لحياة البشر وحركتهم فيها، فقال: ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾؛ أي: طرقاً واسعة في الوديان، والأماكن السّهلة، وفي موضع آخر قال: ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ [نوح]، ومعنى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾: يصحّ في الجبال أو في الأرض، ففي كلّ منهما طرق يسلكها النّاس، وهي في الجبال على شكل شِعَاب ووديان.

ثمّ يذكر ﷻ عِلَّة ذلك، فيقول:

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾: والهداية هنا تحتَمل معنيين: يهتدون لخالقها ومكوّنها، ويستدلّون بها على الصّانع المبدع ﷻ، أو يهتدون إلى البلاد والأماكن والاتّجاهات، وقديماً كانوا يتّخذون من الجبال دلائل وإشارات ويجعلونها علامات، فيصفون الأشياء بمواقعها من الجبال، فالهداية هنا تشمل هذا وذاك، كما في قوله ﷻ: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النّحل]؛ أي: يهتدون إلى الطّرق والاتّجاهات.

(الآية ٣٢) - ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢﴾:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا﴾: سمّى السّماء سقفاً؛ لأنّ السّماء كلّ ما علَاك

فأظلّك، وفرْقٌ بين سقف من صنع البشر يعتمد على أعمدة ودعائم.. إلخ، وسقف من صُنْع خالق البشر، سقف يغطّي الأرض كلّها ومحفوظ بلا أعمدة، سقف مستوٍ لا نتوءَ فيه ولا فتور، والسّماء أخذتْ دوراً تكوينيّاً خصَّها الله سُبحانه وتعالى به كما خَصَّ آدم عليه السلام، فالخَلْق جميعاً خُلِقوا بـ ﴿كُن﴾ من أب وأمّ، أمّا آدم عليه السلام فقد خُلق خلقاً مباشراً بيد الله سُبحانه وتعالى، قال سُبحانه وتعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: من الآية ٧٥]، وهذا شرف كبير لآدم، وكذلك قال في خَلْق السّماء: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ [الذّاريات: من الآية ٤٧]، وفي آية أخرى قال عزّ وجلّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ٧﴾ [الذّاريات]، يعني: محبوكة ومحكمة، والحبكة معناها أنّ ذرّاتها الّتي لا تُدرَك ملتحمة مع بعضها، ليس التحاماً كلّيّاً إنّما التحام ذرّات؛ لذلك نرى السّماء ملساء؛ ولذلك قال عنها الخالق عزّ وجلّ: ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨﴾ [النّازعات]، وإذا كانت صنعة البشر تختلف باختلاف مهارة كلّ منهم في عمله، فما بالنا إنْ كان الصّانع هو الله جلّ جلاله الّذي يبني ويُسوِّي ويُزيِّن؟ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤﴾ [الملك].

﴿مَّحۡفُوظٗاۖ﴾: أي: في بنية تكوينه؛ لأنّه مُحْكَم لا اختلاف فيه، ولا يُحفَظ إلّا الشّيء النّفيس، نُحافظ عليه لنفاسته وأصالته، لكن من أيّ شيء يحفظها الله سُبحانه وتعالى؟ يحفظها أن تمور، يحفظها أن تقع على الأرض إلّا بإذنه: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ [الحجّ: من الآية ٦٥]، وقال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾ [الرّوم: من الآية ٢٥]، ففي خَلْق السّماء عظمة خَلْق، وعظمة تكوين، وعظمة صيانة تناسب قدرته سُبحانه وتعالى، وإنْ كانت لا تحتاج إلى صيانة؛

لأنّها من صنع الله ﷻ، ثمّ يقول ﷻ:

﴿وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾: كأنّ للسّماء آيات خاصّة، وفي الكون آيات كثيرة، فالشّمس والقمر والنّجوم والأفلاك من آياتها، وبعد ذلك نسمع من رجال الأرصاد أنّ من كواكب السّماء ما لم يَصِلْنا ضوؤه منذ خلق الله ﷻ الأرض حتّى الآن، مع أنّ سرعة الضّوء ثلاثمئة ألف كيلومتر في الثّانية، ويمكن أن نفهم هذا في ضوء قوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾ [الذّاريات]، لذلك يعطينا رسول الله ﷺ صورة تقريبيّة لهذه المسألة، حتّى لا نُرهق أنفسنا بالتّفكير فيها: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ»[1].

﴿مُعۡرِضُونَ﴾: سبق أن تحدّثنا عن الإعراض، وهو الانصراف عن الشّيء، مِنْ أعرض يعني: أعطاه ظهره.

(الآية ٣٣) - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٣٣﴾:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾: الحقّ ﷻ يمتنّ ببعض خَلْقه، ولا يمتنّ الله ﷻ إلّا بشيءٍ عظيم ونعمة من نِعَمه الكبرى على عباده، ومن ذلك اللّيل والنّهار، وقد أقسم ﷻ بهما في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾ [اللّيل]، وقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾ [الضّحى]، فاللّيل والنّهار آيتان متكاملتان،

---

(١) صحيح ابن حبّان: كتابُ البرِّ والإحسَانِ، بَابُ الصّدق والأمر بالمعروف والنّهي عَنِ المنكر، الحديث رقم (٣٦١).

ليستا متضادّتين، فالأرض خلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليعمرها خليفته فيها: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: من الآية ٦١]؛ أي: طلب منكم عمارتها بما أعطاكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من مُقوِّمات الحياة، فالعقل المدبّر، والجوارح الفاعلة، والقوّة، والمادّة كلّها مخلوقة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وما على الإنسان إلّا أنْ يستخدم نِعَم الله عَزَّوَجَلَّ في عمارة الأرض، فإذا ما تَمَّتْ الحركة في النّهار احتاج الجسم بعدها إلى الرّاحة في اللّيل، لذلك كان النّوم آية عُظْمى من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للإنسان تدلّ على أنّ الخالق عَزَّوَجَلَّ أمين على النّفس أكثر من صاحب النّفس، وبالإضافة إلى ما يتعلّق بتعاقب اللّيل والنّهار وكرويّة الأرض، وإلى ما يتعلّق بأهمّيّة اللّيل وعدم وجود ضوء الشّمس وما يتعلّق بالنّهار المبصر، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء].

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ﴾: هناك آيات أخرى كثيرة في كَوْن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكن أوضحها وأشهرها: الشّمس والقمر، فهما تحت المشاهدة.

﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾: فاللّيل والنّهار والشّمس والقمر يدور كُلٌّ منهم خَلْف الآخر ويخلفه، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: من الآية ٦٢].

﴿يَسْبَحُونَ﴾: تعبير قرآنيّ دقيق للأداء الحركيّ، ومأخوذ من سبحة السّمك الّذي يسبح في ليونة الماء بحركة انسيابيّة سهلة؛ لأنّ الحركة لقطع المسافات إمّا حركة انسيابيّة، وإمّا حركة قفزيّة، فعندما يقول المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾، الحقيقة أنّ السّباحة في الفلك لم

تُكتَشف فاعليّتها إلّا الآن، فالإنسان خارج الجاذبيّة الأرضيّة كأنّه يسبح دون ثِقَل، والقوانين الفيزيائيّة أثبتت هذا المعنى، ومدارات الشّمس والقمر والنّجوم والكواكب اكتشف العلم حقيقتها الآن، لكنّها إشارات قرآنيّة، يأتي العلم ليُصدّق ما جاء في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ.

(الآية ٣٤) - ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾: ذلك لأنّ الكفّار حاولوا قتل النّبيّ ﷺ بإلقاء حجر عليه من مكان عالٍ ليتخلَّصوا منه ﷺ، وكانوا يتمنّون ذلك، فيخاطبه ربّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر]، وهذه سُنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في خَلْقه، كما قيل:

ومن لم يمت بالسّيف مات بغيره   تعدّدت الأسباب والموت واحد

لذلك لمّا خُيِّر رسول الله ﷺ في الموت قال: «**فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**»(١)، فقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ فأنت كغيرك من البشر قبلك.

﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾: مَنْ بعدك لن يُخَلَّدوا بعد موتك، فلا يفرحوا بموتك.

(الآية ٣٥) - ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾: فالموت قضيّة كونيّة عامّة، وهي في حقيقتها

---

(١) صحيح البخاريّ: كتابُ أصحاب النّبيّ ﷺ، باب ٥، الحديث رقم (٣٦٦٩).

خَيْر، فإنْ كانوا أخياراً نُعجّل لهم جزاءهم عند الله وَعَجَلَّ، وإنْ كانوا أشراراً فقد أراحَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منهم البلاد والعباد، لكن كيف يُذَاق الموت؟ الذَّوْق هنا يعني إحساس الإنسان بالألم من الموت، فإنْ مات فعلاً يستحيل أن يذوق، أمّا قبل أن يموت فيذوق مقدّمات الموت، كما وصفه القرآن الكريم، فلماذا الحزن قبل أن يموت الإنسان؟ الحزن عندما يكون قدّم أعمالاً شرّيرة وسيّئة، فالمراد ذائقةٌ مقدّمات الموت، الّتي يُعرف بها أنّ هذا الإنسان سيموت، فإذا بلغت الرّوح الحلقوم، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨﴾ [القيامة]، فالموت في هذه الحالة أمرٌ مقطوعٌ به، وقد ساوى الله وَعَجَلَّ بالموت بين خلقه جميعاً، الكبير والصّغير، الصّحيح والسّقيم، والقويّ والضّعيف، والأمير والمأمور، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٨﴾ [الرّحمن]، ماذا بعد؟ هل للقصّة بقيّة؟ هل للحياة بقيّة؟ هل انتهى أمر الإنسان عند الوفاة؟ أو أنّها رحلة انتهى فصل من فصولها، وبدأت الفصول النّهائيّة والأساسيّة؟ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيّن لنا طبيعة هذه الحياة، ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾ [الحديد: من الآية ٢٠]، ويبيّن لنا في آية أخرى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾ [الكهف]، فهذه الحياة الدّنيا لا تبقى، وقد مرّ هارون الرّشيد بالكوفة عند انصرافه من الحجّ، فإذا بهلول في الطّريق، فقال: قل يا بهلول، فقال:

هَبْ أنّك قد ملكت الأرضَ طُرّاً ... ودانَ لك العباد فكان ماذا؟!

أليس غداً مصيرك جوف قبرٍ ... ويحثو عليك التّرب هذا ثمّ هذا؟

هذه حقيقة، كما قال أحدهم:

نسير إلى الآجال في كلّ لحظةٍ وأعمارنا تُطوى وهنّ مراحلُ
ولم أر مثل الموت حقّاً كأنّما إذا ما تخطّته الأمانيُّ باطلُ
وما أصعب التّفريط في زمن الصّبا فكيف به والشّيب للرّأس شاملُ
ترحّل من الدّنيا بزادٍ من التّقى فعمرُك أيّامٌ وهنّ قلائلُ

فالموت هو قانون عامّ سيسري على البشر جميعهم، لذلك:

اجْعَل لِرَبِّكَ كُلَّ عِزِّكَ يَسْتَقِرُّ وَيَثْبُتُ فَإِذَا اعْتَزَزْتَ بِمَنْ يَمُوتُ فَإِنَّ عِزَّكَ مَيِّتُ

ولا يوجد مَن لا يموت إلّا الحيّ الباقي الّذي لا يموت وهو الله ﷻ، وكان يقول سيّدنا عليّ كرّم الله وجهه: "عجبت كيف يفرح بالدّنيا مَن يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره، كيف يفرح بالدّنيا مَن تقوده حياتُه إلى موته ويقوده عمره إلى أجله"؛ لذلك: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾.

﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾: أي: نختبركم، والابتلاء لا يُذَمُّ في ذاته، إنّما الّذي يُذَمّ هو نتيجة الابتلاء: أننجح فيه أم نفشل؟ ولكن هل الحقّ ﷻ في حاجة أنْ يختبر عباده ليعلم حالهم؟ الحقّ يختبر الخَلْق لا ليعلم، ولكن ليقيم عليهم الحجّة، والمخاطَب في: ﴿وَنَبۡلُوكُم﴾، الجميع: الغنيّ والفقير، والصّحيح والسّقيم، والحاكم والمحكوم.. إلخ، فكلّنا فتنة بعضنا لبعض: فالغنيّ فتنة للفقير، والفقير فتنة للغنيّ، وهنا يتبيّن لنا ما هي الحياة الدّنيا، قال ﷻ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك]، فالشّرّ والخير كلاهما فتنة واختبار، ينتهي إمّا بالنّجاح

وإمّا بالفشل؛ لذلك يقول المولى سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها:

﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾: لنجازي كُلّاً على عمله، فإنْ حالفنا التّوفيق فَلَنا الأجر والمكافأة، وإنْ أخفقنا فَلَنا العقوبة، فلا بُدَّ أن تنتهي المسألة بالرّجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

(الآية ٣٦) - ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٦﴾:

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾: هذا خطاب لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن واقعٍ حدثَ له مع الكفّار.

﴿إِن﴾: هنا ليست شرطيّة، إنّما للنّفي، كما في قوله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾ [المجادلة: من الآية ٢]؛ أي: ما أمّهاتهم إلّا اللّائي ولَدْنهم، فالمعنى: إذا رآك الّذين كفروا لا يتّخذونك إلّا هُزُواً؛ أي: يهزؤون بك، لكن ما وَجْه الهُزْء هنا؟ هو قولهم:

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾: أي: يعيب الآلهة ويسبُّها، ويقول عنها: إنّها باطلة.

﴿يَذۡكُرُ﴾: والذّكر قد يكون بالخير، وقد يكون بالشّرّ، فإنْ ذكرك صديق تتوقّع أنْ يذكرك بخير، وإنْ ذكرك عدوّ تتوقّع أنْ يذكرك بشرٍّ، وطالما أنّ محمّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكر آلهتهم، فلا بُدَّ أنّه يذكرها بشرٍّ، والشّرّ الّذي ذكره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن آلهتكم أنّها أصنام وحجارة لا تضرُّ ولا تنفع، ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ [فاطر: من الآية ١٤].

﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾: فكيف تتعجّبون وتغضبون أنْ يَسُبّ محمّدٌ ﷺ آلهتكم الباطلة، وأنتم تسبُّون الإله الحقّ ﷻ، وتكفرون به، ونلحظ أنّ السّياق ذكر الضّمير العائد عليهم مرّتين: ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾؛ ليؤكّد أنّ ذلك حدث منهم.

(الآية ٣٧) - ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧﴾:

﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾: أي: مُتعجِّلاً، كأنّ في طينته عجلة، والعجلة أن تريد الشّيء قبل نُضْجه، وقبل أوانه، وقد يتعجَّل الإنسان الخير، وهذا أمر جائز، أمّا أنْ يتعجّل الشّرّ فهذا هو الحمق بعينه والغباء، ألم يقولوا لرسول الله ﷺ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾ [الأنبياء]، ألم يقولوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: من الآية ٣٢]، فتعجَّل هؤلاء العذاب؛ لأنّهم غير مؤمنين به، لا يُصدِّقون أنّ شيئاً من هذا سيحدث؛ لذلك يردُّ عليهم:

﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾: وخاطب نبيّه ﷺ بقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧﴾ [غافر: من الآية ٧٧]؛ أي: سنريك فيهم آياتنا، وسترى ما وعدناهم من العذاب، فإذا قبضناك إلينا فسترى ما ينزل بهم في الآخرة.

(الآية ٣٨) - ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾:

وهذا استبطاء منهم لِوَعْد الله ﷻ في الآخرة والعَرْض عليه ﷻ، وأنّه سيُعذِّبهم بالنّار؛ لأنّهم لا يُصدِّقون هذا ولا يؤمنون به، ولا يرغبون أن يكون

هناك حساب، وسبق أنْ قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢﴾ [الإسراء].

(الآية ٣٩) - ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٣٩﴾:

﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: أي: لو يعلمون ما يحدث لهم في هذا الوقت حين لا يستطيعون دَفْع النّار عن وجوههم، وذَكر الوجه بالذّات؛ لأنّه أشرف أعضاء الإنسان وأكرمها.

﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾: دلالة على إهانتهم.

﴿وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ﴾: لأنّها تأتيهم من كلّ مكان.

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾: أي: لا يجدون مَنْ ينقذهم، أو يأخذ بأيديهم ويدفع عنهم، حتّى الشّيطان الّذي أغواهم في الدّنيا سيتبرّأ منهم يوم القيامة، ويقول: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: من الآية ٢٢]، وأصرخه؛ أي: أزال سبب صراخه، والهمزة في أصرخه تسمّى همزة إزالة، فحتّى الشّيطان سيتخلّى عنهم في ذلك الوقت، وفي موضع آخر يقول: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الحشر]، فحظُّ الشّيطان أنْ يُوقِع الإنسان في المعصية، ثمّ يتبرّأ منه.

فما جواب ﴿لَوۡ﴾ هنا؟ المعنى: لو يعلم الّذين كفروا الوقت الّذي لا يكفُّون فيه النّار عن وجوههم، ولا عن ظهورهم ولا يُنصرون لكفّوا عمّا يُؤدِّي بهم إلى ذلك، وانتهَوْا عن أسبابه.

(الآية ٤٠) - ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٤٠﴾:

﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ﴾: أي: القيامة، والبغتة: نزول الحدث قبل توقّعه؛ لذلك:

﴿فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾: من البهت: أي: الدّهشة والحيرة، فإذا ما باغتتهم القيامة يندهشون ويتحيّرون ماذا يفعلون؟ وأين يفرّون؟ والبغتة تمنع الاستعداد والتّأهُّب، وتمنع المحافظة على النّفس، ومن ذلك ما كانوا يفعلونه أوقات الحروب من صافرات الإنذار الّتي تُنبّه النّاس إلى حدوث غارة مثلاً، فيأخذ النّاس استعدادهم، ويلجؤون إلى المخابئ، أمّا إن داهمهم العدوّ فجأة فلن يتمكّنوا من ذلك، ولن يجدوا فرصة للنّجاة من الخطر، ومن البهْت قوله سبحانه وتعالى في قصّة الّذي حاجَّ إبراهيم عليه السلام في ربّه: ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٨].

﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾: أي: لا يُمهَلون ولا يُؤخَّرون، فليست المسألة تهديداً وننصرف عنهم إلى وقت آخر، إنّما هي الأَخْذة الكُبْرى الّتي لا تُردُّ عنهم ولا تُؤخَّر.

(الآية ٤١) - ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٤١﴾:

سبق أنْ خاطب الحقّ سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الأنبياء: من الآية ٣٦]، لذلك يُسلِّيه هنا: لست بدعاً من الرّسل، فَخُذْ هذه المسألة بصدرٍ رَحْب، فلقد استهزئ بالرّسل من قبلك فلا

تحزن، فسوف يحيق بهم ما صنعوا، ويجدون عاقبة هذا الاستهزاء، كما جاء في قصّة نوح ﷺ: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: من الآية ٣٨]، فيردُّ نوح ﷺ: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨﴾ [هود: من الآية ٣٨]؛ أي: انتظروا النّهاية، وسوف ترون.

﴿فَحَاقَ﴾: أي: حَلَّ ونزل بقسوة.

﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: وهذا المعنى واضح في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝٣١﴾ [المطفّفين]؛ أي: مسرورين فرحين، وهذا دليل على لُؤْمهم ورذالة طباعهم، فلم يكتفوا بالاستهزاء، وإنّما يحكونه ويتبجّحون به، ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ [المطفّفين]، ولا ننسى أنّ استهزاء الكفّار بأهل الحقّ استهزاء موقوت بوقته في الدّنيا، أمّا استهزاء الله ﷻ بهم فاستهزاء أبديّ لا نهايةَ له، وهنا يجب أن نتنبّه إلى هذه المسألة، فكثيراً ما يتعرّض أهل الإيمان للاستهزاء والسّخرية من أهل الباطل، وهؤلاء الّذين يسخرون منهم لأجلهم يصون الله ﷻ لهم الحياة ويدفع عنهم العذاب، كما جاء في الحديث الشّريف: «**لَوْلَا شَبَابٌ خُشَّعٌ، وشُيُوخٌ رُكَّعٌ، وَأَطْفَالٌ رُضَّعٌ، وبَهَائِمُ رُتَّعٌ لَصُبَّ عَلَيْكُمُ الْعَذَابُ صَبّاً**»(١)، فحين نرى تقيّاً، فإذا لم نشكره على تقواه ونقتدي به فلا أقلَّ من

(١) المعجم الأوسط للطّبرانيّ: باب الميم، من اسمه: محمّد، الحديث رقم (٧٠٨٥).

أنْ ندعَه على تقواه، لا نهزأ به، ولا نسخر منه؛ لأنّ في وجوده استبقاءً لهذه النّعم من الله ﷻ، وأقلّ ما يمكن أنْ نُقيِّم به التّقيّ: يكفينا منه أنّه لن يعتدي علينا، ولن نرى منه شيئاً يضرّنا.

(الآية ٤٢) - ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ٤٢﴾:

﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم﴾: أي: يرعاكم ويحفظكم، وكأنّ الحقّ ﷻ يُجري مقارنة بين إنعامه ﷻ على عباده وما يقابلونه به من جحود ونكران وكفران، أنتم تكفرون بالله ﷻ وتُؤذُون الصّالحين من عباده وتسخرون منهم، وهو جل جلاله الّذي ﴿يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: كلاءة صادرة من الله الرّحمن، كما في قوله ﷻ: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرّعد: من الآية ١١]، فليس المراد أنّهم يحفظونه من أمر الله ﷻ الّذي أراده الله عز وجل فيه؛ لأنّ الحِفْظَ صادر من الله عز وجل، والحفَظة مكلّفون من قبله جل جلاله بحفظ النّاس، وليس تطوُّعاً منهم، وكلاءة الله ﷻ للإنسان وحفْظه إيّاه تكون في النّهار واللّيل، حتّى وهو نائم عليه حَفَظة يحفظونه، ويدفَعون عنه الأذى بأمر الله عز وجل، وكثيراً ما نسمع أنّ بعض النّاس قام من نومه فوجد شيئاً مؤذياً في فراشه، ولم يُصِبْه بسوء، وربّما فزع لرؤيته، وغيرها من العجائب الّتي نسمعها دائماً، وكلاءة الله عز وجل لنا لا تقتصر على الحِفْظ من المعاطب، فمن كلاءته ﷻ أن يمدّنا بمقوّمات الحياةَ، فالشّمس بضوئها، والقمر بنوره، والأرض بنباتها، والسّماء بمائها، ومع هذا نجد كثير من النّاس يكفرون به جل جلاله، ويسخرون من رسله وأهل طاعته والأتقياء؛ لذلك

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾، وما كان يصحّ أنْ يغيبَ ذِكْره جَلَّ جَلَالُهُ عنهم.

(الآية ٤٣) - ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ٤٣﴾:

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾: أَلَهم آلهة أخرى تمنعهم من الإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ؛ هؤلاء الآلهة لا يستطيعون نَصْر أنفسهم، وكيف ينصرون أنفسهم، وهي أصنام من حجارة نحتَها أشخاص على أشكال اختاروها؟ كيف ينصرون أنفسهم، ولو أطاحت الرّيح بأحدهم لاحتاج لمَنْ يرفعه؟

﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾: كانوا قديماً في البادية، إذا فعل أحدهم ذنباً، أو فعل فَعْله في إحدى القبائل، واحتاج إلى المرور عليهم في طريقه يذهب إلى شخص قويٍّ يصاحبه في طريقه، ويحميه منهم إلى أنْ يمرَّ على ديارهم، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ١٤﴾ [الشّعراء]، فالمراد: يصحبه كي يحميه بهذه الصُّحْبة وينجو من العذاب، فهؤلاء لن يكون في صُحْبتهم أحد، ولا أحدَ يستطيع أن يصحبهم لينجيهم من عذابنا، لا هذه ولا تلك.

(الآية ٤٤) - ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ٤٤﴾:

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾: وهذا دليل على أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يأخذ الظّالمين أخذة واحدة، إنّما يمتّعهم ويمهلهم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي

﴿مَتِينٌ ۝٤٥﴾ [القلم]؛ أي: أنّهم مكثوا فترة طويلة من الزّمن يتقلّبون في نِعَم الله ﷻ، لكن انظروا إلى ما حدث لهم بعد ذلك، وخذوا منهم عبرةً: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الرّوم: من الآية ٩]، ومع ذلك أخذهم الله ﷻ أَخْذ عزيز مقتدر، كما قال ﷻ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦﴾ [الأنعام]، فلا يقولنّ قائل: لماذا نرى الظّالمين، ونرى دول الغرب والصّهاينة المجرمين يقتلون النّاس والبشر بهذا التّمكين وهذا البنيان؟ هذه سنّة من سنن الله ﷻ، بأنّ الله ﷻ يملي لهم ويمتّعهم، ثمّ بعد ذلك يكون الأخذ الأليم.

﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ﴾: ممكن أن يطول عليهم العمر، لكن هذا بمقياس البشر، أمّا بمقياس الله ﷻ فهو لا يساوي شيئاً، ولا قيمة لأعمارهم وقرونهم وأزمانهم؛ لأنّ النّتيجة هي الأساس، وأنّهم إلى خراب ودمار ونهاية، وبعد ذلك إلى حساب وعقاب أليم.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ﴾: ويقول ﷻ في موضعٍ آخر: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤١﴾ [الرّعد]، وهذه آية من الآيات الّتي وقف عندها العلماء، وتحدّثوا فيها كثيراً، فقالوا: إنّ الإيمان يمتدّ والشّرك ينقص، وهذا تفسير سابق، فلم يروا النّقص بحقيقته العلميّة، والله ﷻ قال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾، وهناك كثير من النّظريّات، وقد قلنا سابقاً: إنّنا لا نأخذ النّظريّة العلميّة، ولكن نأخذ الحقيقة

العلميّة، والحقيقة العلميّة الّتي توصّلوا إليها حول هذه الأمور أنّ الأرض تنقص، قال بعضهم: بسبب ما يحدث من عوامل على القشرة الأرضيّة، وبعضهم قال: من ذوبان الجليد بالقطب الشّماليّ والقطب الجنوبيّ، على كلّ حال هي نظريّات علميّة، وسيثبت العلم صحّة ما جاء في القرآن الكريم بأنّ الأرض تنقص من أطرافها.

﴿أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾: وهذا تهكّم من الله سبحانه وتعالى بهذا الأسلوب الاستفهاميّ الاستنكاريّ، والنّتيجة هي إلى خزيهم وعذابهم واندثارهم.

(الآية ٤٥) - ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ٤٥﴾:

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾: فإنذار النّبيّ صلى الله عليه وسلم ليس من عند نفسه، وإنّما هو من الله سبحانه وتعالى، بماذا يُنذر؟ الجواب: بالوحي، والوحي ممّن؟ الجواب: من الله عز وجل موحى إليه لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾: حاسّة السّمع هي أوّل معلوميّات الإنسان، وأوّل حواسّه عملاً، وقبل أن يتكلّم الطّفل لا بُدَّ أنْ يسمع أوّلاً، لينطق بما سمعه؛ لأنّ السّمع هو الإدراك الأوّل المصاحب لتكوين الإدراكات، والأذن -كما قلنا- تسبق العين في أداء مهمّتها؛ لذلك قدّمه الله سبحانه وتعالى، فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء: من الآية ٣٦].

ومعنى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ صحيح أنّهم يسمعون، وآلة السّمع عندهم صالحة للعمل، إلّا أنّه سماعٌ لا فائدة منه، ففائدة السّمع أنْ تستجيب لمن يُحدِّثك، فإذا لم تستجِبْ فكأنّك لم تسمع.

﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾: أي: لَيْتهم يتغافلون عن نداءٍ عاديّ، إنّما يتغافلون وينصرفون ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾، حين يُخوِّفهم عذاب الله ﷻ، والتّحذير أَوْلَى ما يجب على الإنسان الاهتمام به، ففيه مصلحته.

(الآية ٤٦) - ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٤٦﴾:

﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾: مباشرة بعد الحديث عن الإنذار جاء بأوّل شيء بالنّسبة إلى العذاب، وهو المسّ، لمس خفيف.

والنّفحة: هي الرّيح اللّيّنة تحمل آثارَ الأشياء دون حقيقتها، كأن تحمل لك الرّيحُ رائحة الورود مثلاً، هي لا تحمل لك الورود نفسها، إنّما رائحتها، وتظلّ الورود كما هي، كذلك هذه المسَّة من العذاب، إنّها مجرّد رائحة عذاب، كما نقول: لفح النّار الّذي نشعر به، ونحن بعيدون عنها.

والنّفحة: اسم مرَّة؛ أي: تدلّ على حدوثها مرّة واحدة، كما تقول: جلس جَلسة؛ أي: مرّة واحدة، وهذا أيضاً دليل على التّقليل، فـ ﴿مَّسَّتۡهُمۡ﴾ تقليل، و﴿نَفۡحَةٞ﴾ تقليل، وكونها مرّة واحدة تقليل آخر، ومع ذلك يضجُّون ويجأرون، فما بالنا إنْ نزل بهم العذاب على حقيقته، وهو عذاب أبديّ؟!

﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾: الآن ينطقون، الآن يقولون كلمة الحقّ الّتي طالما كتموها، الآن ظهرتْ حساسيّة الإدراك لديهم، فمن أقلِّ القليل ومن رائحة العذاب يجأرون، وأين كان هذا الإدراك، وهذه الحساسيّة من قبل؟ فالمسألة هي مسألة توجيه إدراك الإنسان.

﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾: إحساس بما هم مُقبلون عليه، وهذا القول صادر عن مواجيد في نفوسهم، ثمّ يُقرُّون على أنفسهم:

﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾: فأقرّوا بأنّهم كانوا ظالمين.

(الآية ٤٧) - ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾:

نقلهم الحقّ ﷻ من إنكار وتكذيب وتسفيه كلام الرّسول، وعدم الإيمان بالوحي، وصَمِّ الآذان عن الخير إلى مسألة الحساب والميزان القسط، فلماذا هذه النَّقْلة؟ ليُنبّههم ويلفت أنظارهم إلى أنّ هذا الكلام الّذي قابلتموه بالتّكذيب والتّشكيك كان لمصلحتكم، وأنّ كلّ شيء محسوب، وسوف يُوزَن عليكم ويُحْصَى.

﴿ٱلۡمَوَٰزِينَ﴾: كلمة (موازين) جمع: ميزان، وهو آلة نُقدِّر بها الأشياء من حيث كثافتها؛ لأنّ التّقدير يقع على عدّة أشياء: على الكثافة بالوزن، وعلى المسافات بالقياس... إلخ، وقد جعلوا لهذه المعايير ثوابت، فمثلاً: المتر، وكذلك الياردة، وجعلوا للوزن معايير من الحديد: الكيلو والرّطل.. إلخ.

والموازين هنا موازين عامّة، تكلّم عن الشّيء الّذي يوزَن، ولم يذكر المعايير الأخرى، فكلّ شيء سيوزن بحساب دقيق عند ربّ العالمين، قال ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧﴾ [الرحمن]، فهل هي موازين متعدّدة، أو هو ميزان واحد؟ الخَلْق جميعاً سيُحاسبون مرّة واحدة، فلن يقفوا طابوراً ينتظر كلّ واحدٍ

منهم دَوْره، بل في وقت واحد؛ لذلك عندما سُئِل الإمام عليّ -كرَّم الله وجهه-: كيف يُحاسب الله ﷻ الخَلْق جميعاً في وقتٍ واحد؟ قال: "كما يرزقهم جميعاً في وقتٍ واحد"، فالمسألة صعبة بالنّسبة إلينا، بينما سهلة ميسورة للحقّ ﷻ.

﴿ٱلْقِسْطَ﴾: صفة للموازين، وهي مصدر بمعنى: عدل، كما تقول في مدح القاضي: هذا قاضٍ عادل؛ أي: موصوف بالعدل، فإذا أردتَ المبالغة تقول: هذا قاضٍ عَدْل، كأنّه هو نفسه عَدْل؛ أي: معجون بالعدل، فهذه الموازين معجونة بالقسط، وهذه المادّة: (قسط) لها دور في اللّغة، فهي من الكلمات المشتركة الّتي تحمل المعنى وضدّه، مثل: (الزّوج) تُطلق على الرّجل والمرأة، و: (العَيْن) تُطلَق على العين الباصرة، وعلى عين الماء، وعلى الجاسوس، وعلى الذّهب والفضّة، كذلك: (القِسْط) نقول: القِسْط بالكسر بمعنى العدل من قَسَط قِسْطاً، ومنه قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٤٢﴾ [المائدة: من الآية ٤٢]، ونقول: القَسْط بالفتح يعني: الظّلم، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾ [الجنّ]؛ أي: الجائرون الظّالمون.

والقِسْط بمعنى العدل كما جاء في هذه الآية.

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾: فلا تظلم نفس حتّى مجرّد شيء، ولا حتّى مثقال حبّة خردل.

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾: والخردل: مثال للصِّغَر، للدّلالة على استقصاء كلّ شيء، ولا يزال الخردل هو المقياس العالميّ للكيلو، فقد وجدوا حَبَّ الخردل مُتَساوياً في الوزن، فأخذوا منه وحدة الكيلو الآن، وقد أتى بها القرآن الكريم منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزّمان.

ومعنى: ﴿أَتَيۡنَا بِهَاۗ﴾؛ أي: لهم أو عليهم، فإنْ كانت لهم علموا أنَّ الله ﷻ لا يظلمهم، ويبحث لهم عن أقلِّ القليل من الخير، وإنْ كانت عليهم علموا أنّ الله ﷻ يستقصي كلّ شيء في الحساب، وحَبّة الخردل تدلّ مع صِغَرها على الحجم، وكلمة مثقال تدلّ على الوزن، فجمع فيها الحجم والوزن، ثمّ يُعقِّب سبحانه وتعالى على هذه المسألة:

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾: فلا أحد يُجيد هذه المسألة ويُدقِّقها كما نفعل نحن، فليست عندنا غفلة بل دِقَّة وضبط لمعايير الحساب، ولا يظنّنّ أحدٌ أنّ مسألة الحساب والميزان مسألة سهلة يمكن أن يصل فيها إلى الدّقّة الكاملة مهما أخذ من وسائل الحيطة، فنحن بشر، أمّا المعيار والقسط والحساب فهو لله ﷻ، وهذا معنى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٣٩﴾ [الأحزاب: من الآية ٣٩].

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ فيكفي أنّ الّذي يضع الميزان، ويحاسب النّاس هو الله سبحانه وتعالى؛ لأنّه سبحانه وتعالى هو الخالق، والمنعم، والعدل، والحقّ.

(الآية ٤٨) - ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨﴾:

يريد الله سبحانه وتعالى أن يُسلّي رسوله ﷺ ويُخفِّف عنه مَا لاقاه من قومه، فيذكر له نماذج من إخوانه أُولِي العزم من الرّسل الّذين اضطهدهم أقوامهم، وآذوهم ليُسهِّل على رسوله ﷺ مهمّته، فبدأ بموسى عليه السلام؛ لأنّه من أكثر الرّسل الّذين تعبوا في دعوتهم، فقد تعب موسى عليه السلام مع المؤمنين به من شعب بني إسرائيل، فضلاً عن الكافرين به، فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾: لأنّ رسالتهما واحدة، وهما فيها شركاء: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: من الآية ٣٤]، وقال جلّ جلاله: ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ [طه].

﴿ٱلۡفُرۡقَانَ﴾: هو الفارق القويّ بين شيئين؛ لأنّ الزّيادة في المبنى تدلّ على زيادة في المعنى، كما نقول: غفر الله لفلان غفراناً، ونقول: قرأت قراءة، وقرأت قرآناً، فليست القراءة واحدة، ولا كلّ كتاب يُقرأ.

والفرقان من أسماء القرآن الكريم: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ [الفرقان]؛ لأنّه يفرّق بين الحقّ والباطل، والفرقان مصدر يدلُّ على المبالغة، تقول: فرَّق تفريقاً وفرقاناً، فزيادة الألف والنّون تدلّ على زيادة في المعنى، وأنّ الفَرْق في هذه المسألة فَرْق جليل وواضح، فتفريقك بين شيئين يترتّب عليه خطورة في تكوين المجتمع وخطورة في حركة الحياة.

ومن الفرقان، قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا﴾ [الأنفال: من الآية ٢٩]، وتقوى الله سبحانه وتعالى لا تكون إلّا بتنفيذ أوامره وتعاليمه الواردة في القرآن الكريم الّذي نزل على رسوله صلى الله عليه وسلم محمّد، والفرقان هنا يعني: نور نُفَرِّق به بين الأشياء ونُميِّز به بين المتشابهات، وعلى قَدْر ما نتّقي الله سبحانه وتعالى باتّباع الفرقان الأوّل يجعل لنا الفرقان الثّاني، وتتكوَّن لدينا فراسة المؤمن وبصيرته، وتنزل علينا الإشراقات الّتي تُسعِف المؤمن عندما يقع في مأزق.

فكلمة: ﴿ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ لا تُستعمل إلّا للأمور الجليلة العظيمة، سواء ما نزل على موسى عليه السلام، أم ما نزل على محمّد صلى الله عليه وسلم، إلّا أنّ الفرقان أصبح عَلَماً على القرآن الكريم، فكلّ ما يُفرِّق بين حَقٍّ وباطل تصفه بأنّه فرقانٌ، أمّا إنْ

سُمِّي به ينصرف إلى القرآن الكريم.

﴿وَضِيَآءً﴾: أي: نوراً يهدي النّاس إلى مسالك حياتهم، وإلّا فكيف يسيرون في دروب الحياة؟ فهذا ما أرسل الله سبحانه وتعالى به موسى عليه السلام، وهذا الضّياء ضروريّ في مسيرة الإنسان.

﴿وَذِكۡرًا﴾: أي: يذكِّر ويُنبِّه الغافلين، ويكون وسيلة للدّعوة إلى الله سبحانه وتعالى، فالكتب السّماويّة التّوراة والإنجيل والقرآن الكريم الّتي نزلت من عند الله عز وجل لتفرّق بين الحقّ والباطل هي ذكر للمتّقين؛ لأنّ الذّكر هو الّذي يُجلي الرّان عن القلب.

﴿وَذِكۡرًا لِّلۡمُتَّقِينَ﴾: ومن صفاتهم أنّهم:

(الآية ٤٩) - ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ٤٩﴾:

هذه برقيّة مختصرة عن المتّقين، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذّاريات]، وبذلك نجد في بداية القرآن الكريم قوله سبحانه وتعالى: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: الآية ١-٢، ومن الآية ٣]، وهنا تعريف مختصر للمتّقين، وهم:

﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾: الخشية: الخوف بتعظيم ومهابة، فقد تخاف من شيء وأنت تكرهه، كأن تخاف من شيءٍ ضارّ، أمّا الخشية كأنْ تخاف من أبيك أو من أستاذ أن يراك مُقصِّراً، وتخجل منه أنْ يراك على حال تقصير، فمعنى الخوف من الله عز وجل: أن تخاف أن تكون مُقصِّراً فيما طُلِب

منك، وفيما كلَّفك به؛ لأنّ مقاييسه سبحانه وتعالى عالية، وربّما فات الإنسان من ذَلك شيء، وفي موضع آخر يشرح الحقّ سبحانه وتعالى هذه المسألة، فيقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: من الآية ٢٨]، لماذا؟ لأنّهم الأعلم بالله سبحانه وتعالى وبحكمته في كونه، وكلّما تكشَّفَتْ لهم حقائق الكون وأسراره ازدادوا لله جلّ جلاله خشية، ومنه مهابة وإجلالاً؛ لذلك قال عنهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النّحل: من الآية ٥٠]؛ أي: أعلى منهم وعلى رؤوسهم، لكن بِحُبٍّ ومهابة.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: إنّهم يخافون الله عزّ وجلّ، مع أنّهم لا يَروْنه بأعينهم، إنّما يَرَوْنَه في آثار صُنْعه، أو بالغيب؛ أي: الأمور الغيبيّة الّتي لا يشاهدونها، لكن أخبرهم الله سبحانه وتعالى بها، فأصبحت بَعْد إخبار الله عزّ وجلّ كأنّها مشهدٌ لهم يروْنَها بأعينهم.

أو يكون المعنى: يخشون ربّهم في خَلَواتِهم عن الخَلْق، فمهابة الله سبحانه وتعالى والأدب معه تلازمهم حتّى في خَلْوتهم وانفرادهم، على خلاف مَنْ يُظهِر هذا السّلوك أمام النّاس رياءً.

﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾: الإشفاق بمعنى الخوف أيضاً، لكنّه خَوْف يصاحبه الحذر ممّا تخاف، فالخوف من الله سبحانه وتعالى مصحوب بالمهابة، والخوف من السّاعة مصحوب بالحذر منها، مخافة أنْ تقوم عليهم قبل أنْ يُعِدّوا أنفسهم لها إعداداً كاملاً يُفرحهم بجزاء الله عزّ وجلّ ساعة يلقوْنَه.

(الآية ٥٠) - ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾:

﴿وَهَٰذَا﴾: أي: القرآن الكريم، والآية السّابقة جاءت عن التّوراة.

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾: لا تعود إلّا على القرآن الكريم؛ أي: كما جاءت التّوراة ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ كذلك القرآن الكريم الّذي نزل عليك يا محمّد

﴿ذِكۡرٞ﴾، لكنّه: ﴿ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ﴾، نقول: هذا شيء مبارك يعني: فيه البركة، والبركة في الشّيء أنْ يعطي من الخير فوق ما يتوقّع فيه، فمعنى: ﴿ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ﴾؛ أي: فيه من الخير فوق ما تظنّون، فإيّاكم أنْ تقولوا: إنّه كتاب أحكام وتكاليف فحسْب، فالقرآن الكريم فيه صفة الخلود، وفيه من الأسرار ما لا ينتهي، فبركته تشمل النّواحي والمجالات جميعها إلى أنْ تقوم السّاعة، فمهما ردّدنا آياته نجدها جميلة مُوحِية مُعبّرة، فكلّ عصر يأتي بجديد، لا يَخْلُق على كثرة الرّدّ ولا تنقَضي عجائبه، فالقرآن الكريم ﴿ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ﴾؛ لأنّ ما فيه من الخير يتجاوز عصر الرّسول ﷺ والعصور والأعمار والقرون كلّها، فيعطي كلّ يوم سرّاً جديداً من أسرار قائله والمتكلِّم به؛ لذلك يتعجّب بعدها من إنكار القوم له:

﴿أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾: أَمِثْل هذا الكلام يُنكر؟ وسبق أنْ أوضحنا أقوالهم في القرآن الكريم، فمنهم مَنْ قال: سحر، ومنهم من قال: شعر، ومنهم من قال كذب وأساطير الأوّلين، وهذا كلّه إفلاس في الحُجَّة، وتصيُّد لا معنى له، ودليل على تضارب أفكارهم.

(الآية ٥١) - ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١﴾:

نلاحظ أنّ الحقّ سبحانه وتعالى بدأ تسليته لرسوله ﷺ بذِكْر طرف من قصّة موسى عليه السلام، ثمّ ثنّى بقصّة إبراهيم عليه السلام، مع أنّ إبراهيم عليه السلام سابقٌ لموسى عليه السلام، فلماذا؟ لأنّ موسى عليه السلام له صِلَة مباشرة باليهود وقريب منهم، وكان اليهود معه أهلَ جَدَل وعناد وعداء.

﴿رُشۡدَهُۥ﴾: الرُّشْد: اهتداء العقل إلى الأكمل في الصّلاح والأعلى في الخير، بحيث لا يأتي بعد الصّلاح فسادٌ، ولا بعد الخير شرّ، ولا يُسلمك بعد العُلوّ إلى الهبوط، هذا هو الرُّشْد، أمّا أنْ يجرَّك الصّلاح الظّاهر إلى فساد، أو يُسلِمَك الخير إلى شرّ، فليس في ذلك رُشْدٌ، والإمام عليّ -كرّم الله وجهه- لخَّص هذه المسألة فقال: "لا شَرَّ في شَرٍّ بعده الجنّة، ولا خيرَ في خير بعده النّار"، فعلى الإنسان أن ينتبه إلى الرُّشْد الّذي هو اهتداء العقل إلى الصّالح الأعلى أو إلى الكمال الأعلى أو الخير الأعلى، وهذا الرُّشْد له اتّجاهان: رُشْد البِنْية، ورُشْد المعنى:

١- رُشْد البِنْية: وهو اكتمال تكوين الإنسان بحيث يُؤدِّي كلّ جهاز فيه وظيفته، وهذا لا يكون إلّا بعد سِنّ البلوغ.

٢- وهناك رُشْد أعلى، رُشْد فكريّ معنويّ، رُشْد يستوي فيه العقل والتّفكير، ويكتمل الذِهنْ الّذي يختار ويُفَاضل بين البدائل، فقد يكتمل للمرء الرُّشْد البُنيانيّ الجسمانيّ دون أنْ يكتملَ عقله وفِكْره، وفي هذه الحالة لا نُمكِّنه من التّصرّف حتّى نختبره، لنعلم مدى إحسانه للتّصرّف فيما يملك، كما ورد في حقّ اليتيم في قول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النّساء: من الآية ٦]؛ أي: لا تنتظر حتّى يكبر ثمّ تعطيه ماله، إنّما يجب أن يكون لديه خِبْرة وتجربة، وتختبره وتشركه في خِضَمّ الحياة ومعتركها، فيشبّ مُتمرِّساً قادراً على التّصرّف السّليم.

ومن الرُّشْد ما سمّاه القرآن الكريم الأشُدّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [الأحقاف: من الآية ١٥]،

والأشُدُّ هو: التّسامي في الرُّشْد، وقال هنا: ﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾، مع أنّنا ذكرنا أنّ الإنسان يبلغ رُشْد البنْية ورُشْد العقل بعد سِنِّ البلوغ في الخامسة عشرة تقريباً، فمَنْ لم يرشُدْ حتّى الأربعين فلا أملَ فيه، ومن ذلك ما نسمعه من مصطلحات معاصرة، يقولون: (الرّشد السّياسيّ)، ويقولون: (ترشيد الاستهلاك)، (ترشيد الطّاقة)، ما معنى هذه المصطلحات؟ معناها أنّ أحداث الحياة وتجاربها وعدم الرُّشْد في مسيرة النّاس عضّتهم، وألجأتْهم إلى التّفكير في ترشيدٍ يُذهب هذا الفساد، فالرُّشْد للذّات والتّرشيد للغير، كما نفعل في ترشيد استهلاك القمح مثلاً وترشيد المياه، وترشيد الطّاقة، ويتمّ بذلك حساب المصلحة العامّة، فمثلاً في (ترشيد الماء) أمرنا رسول الله ﷺ بترشيد استهلاكه حتّى في الوضوء الّذي نتقرّب به إلى الله عز وجل. وقد قال سبحانه وتعالى في حَقِّ إبراهيم عليه السلام:

﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾: وكأنّ رُشْد إبراهيم عليه السلام لا يخضع لهذه القواعد، ولا يرتبط ببلوغ، ولا نبوّة، بل هو رُشْد سابق لأوانه منذ أنْ كان صغيراً، يتأمّل في النّجوم، ويبحث عن ربّه: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ [الأنعام]، فكان عليه السلام مُؤهّلاً للرّسالة منذ صِغَره، ولمّا أُرسل ونُبِّئ ظهرتْ مواهب رُشْده حين أُلقِي في النّار، وجاءه جبريل عليه السلام يعرض عليه المساعدة، فيقول له إبراهيم: أمّا إليك فلا، وأمّا إلى ربّي، فعلمه بحالي يكفي عن سؤالي، ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء]، وهذه أوّل بشائر الرّشد

الفكريّ والعقديّ عند إبراهيم الخليل عليه السلام، وفي حَقِّه قال سبحانه وتعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: من الآية ١٢٤]؛ أي: اختبره في أشياء فوفّاهنّ فأتمّهُنَّ وأتى بِهنّ على أكمل وجه، منها: أنّه طلب منه أنْ يرفعَ قواعد البيت، وكان يكفي أن يرفع إبراهيم عليه السلام قواعد البيت إلى ما تطول يده، ولكنّه عليه السلام كان حريصاً أنْ يتمّ الأمر على أكمل وجه، ففكّر في ذلك، وأتى بحجر ليقف عليه ويرفع البناء بمقدار الحجر، وقد كان يساعده ولده الصّغير إسماعيل فيناوله الحجارة، فكان عنده عِشْق للتّكاليف وحِرْص على إتمامها.

﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾: هذا واضحٌ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: من الآية ١٢٤].

(الآية ٥٢) - ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢﴾:

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ﴾: أي: اذكر يا محمّد، إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه.

﴿لِأَبِيهِ﴾: وسبق أنْ تحدّثنا في معنى (أبيه) هنا، وقلنا: المراد عَمُّه، بدليل قوله سبحانه وتعالى في موضع آخر: ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: من الآية ٧٤]، وحين يطلق الاسم مع الأب فمعنى هذا أنّه العمّ، المهمّ أنّه يدعو أقرَب النّاس إليه أبيه أو عمّه.

﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾: كان سيّدنا إبراهيم عليه السلام في عصر عبادة الأصنام والتّماثيل.

﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾: جمع تمثال، وهو مأخوذ من مِثْل أو مَثَل، ومِثْل الشّيء يعني: شبيهه ونظيره، وكانوا يعمدون إلى الأشياء الّتي لها جِرْم ويُصوّرونها على صورة أشياء مخلوقة لله سبحانه وتعالى، كصورة الإنسان أو الحيوان، من الحجر أو الحديد

أو الخشب أو غيرها ويُسمُّونه تمثالاً، ويُقيمونه ليعبدوه، ويبالغون في ذلك: فهذا من الحجر، وهذا من المرمر، وهذا صغير، وهذا كبير، فإبراهيم عليه السلام يقول مستنكراً لأبيه وقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؟ فالاستفهام هنا على غير حقيقته، فهو استفهام إنكاريّ يحمل لهجة الاستهزاء والسّخرية والتّقريع، ولا بدّ أنّه ألقى عليهم هذا السّؤال بشكلٍ يُوحي بهذا التّقريع.

﴿لَهَا عَٰكِفُونَ﴾: وقد وقف المفسِّرون عند اللّام في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَهَا عَٰكِفُونَ﴾، مع أنّ المعنى: يعكفون على عبادتها، كما جاء في آيةٍ أخرى: ﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾ [الأعراف: من الآية ١٣٨]، وهنا جاءت باللّام؛ لذلك قال بعضهم: (اللّام) هنا بمعنى: (على)، فلماذا عدَل عن (على) إلى (اللّام)؟ ولو تنبَّهنا إلى معطيات الألفاظ: ﴿لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ نقول: الاعتكاف: هو الإقامة، فلان عاكف في المسجد، يعني: على الإقامة في المسجد، فكلمة عاكفون وحدها تعطي معنى: (على)؛ أي: لمصلحة هذه الآلهة، أمّا اللّام فلشيء آخر، اللّام هنا لام الملكيّة والنّفعيّة، وذكروا لها مثالاً آخر في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾ [الأنبياء: من الآية ١٠٤]، السِّجل هو: القرطاس والورق الّذي نكتب فيه، ومنه قولهم: نُسجِّل كذا، يعني: نكتبه في السِّجلّ أو الورق ليُحفَظ، ومعنى: ﴿لِلۡكُتُبِۚ﴾ يعني: الشّيء المكتوب، فكأنّ المعنى: نطوي الورق على ما كُتِب فيه.

(الآية ٥٣) - ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ٥٣﴾:

فلا حُجَّة لهم في عبادتهم لهذه التّماثيل الّتي صنعوها وأقاموها بأنفسهم، إلّا أنّهم رَأَوْا آباءهم يعبدونها، فحُجَّتهم التّقليد الأعمى، ولو كان عندهم حجّة

منطقيّة لَقالُوها، وفي موضع آخر قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ٢٣﴾ [الزّخرف: من الآية ٢٣]، فنعيب عليهم هذا التّقليد ونعيب على آبائهم أيضاً، فكيف يكون رَدُّ إبراهيم؟

وكلمة: ﴿عَٰبِدِينَ﴾ هنا تعبير أنّ عبادتهم لهم عبادة عن غير فَهْم؛ لأنّ العبادة طاعة عباد لأوامر معبودهم، فبماذا أمرتهم الأصنام؟ لا شيء، فقولهم: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ هذا هو التّقليد الأعمى، وسيّدنا إبراهيم يجيب قومه:

(الآية ٥٤) - ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٥٤﴾:

أراد أنْ يُرشِّد هذا السّفَه فقال: أنتم في ضلال؛ لأنّكم قلّدتم في الإيمان، والإيمان لا يكون بالتّقليد، وآباؤكم في ضلال؛ لأنّهم اخترعوا هذه المسألة وسَنُّوهَا لكم، ومن العجيب أنْ يُقلِّدوا آباءهم في هذه المسألة بالذّات دون غيرها، وإلَّا فَمن الّذي يظلّ على ما كان عليه أبوه؟ ونحن نرى كُلَّ جيل يأتي بجديد مِمَّا لم يكُنْ معروفاً للجيل السّابق، لذلك يقولون: النّاس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم، فلكُلّ زمن وَضْعه وارتقاءاته، ونحن نتحكّم في أولادنا ما داموا صغاراً، فيأكل الولد ويشرب ويلبس حَسْب ما يحبّ الأب والأمّ، فإذا ما شبَّ وكَبر صارتْ له شخصيّته الخاصّة وفِكْره المستقِلّ، فيختار هو مَأكله ومَلْبسه، والكُلّيّة الّتي يدخلها، فهؤلاء قلَّدوا آباءهم في هذه المسألة دون غيرها، فلماذا مسألة الإيمان بالذّات يتمسَّكون فيها بالتّقليد؟ ولو أنّ كُلَّ جيل جاء صورة طِبْق الأصل لسابقه لما تغيَّر وَجْه الحياة، ففي هذا دلالة على أنّ لكلّ جيل ذاتيّته المستقلّة وفِكْره الخاصّ.

لقد قلَّد هؤلاء آباءهم في هذه العبادة دون غيرها من الأمور؛ لأنّها

عبادة وتديُّن بلا تكليف، وآلهة بلا منهج، لا تُضيِّق عليهم في شيء، ولا تمنعهم شيئاً ممّا أَلِفُوه من الشّهوات، فهو تديُّن بلا تَبِعة، لذلك فالحقّ ﷻ يردُّ عليهم في أسلوبين مختلفين، فمرّة يقول ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة]، وفي موضع آخر يقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾ [المائدة]، ونلحظ أنّ نهاية الآيتين مختلف، فمرّة: ﴿لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: من الآية ١٧٠]، ومرّة: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [المائدة: من الآية ١٠٤]، فلماذا؟ قالوا: لأنّ نهاية كلّ آية تناسب صَدْرها، وصَدْر الآيتين مختلف، ففي الأولى قالوا: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [البقرة: من الآية ١٧٠]، فيمكن أن نتّبع هذا أو هذا، دون أنْ يقصروا أنفسهم على شيء واحد، وفي الثّانية قالوا: ﴿حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [المائدة: من الآية ١٠٤]، يعني: يكفينا، ولا نريد زيادة عليه، فَقصَروا أنفسهم على ما وجدوا عليه آباءهم، لذلك قال في نهاية الأولى: ﴿لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: من الآية ١٧٠]، وفي نهاية الثّانية: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [المائدة: من الآية ١٠٤]؛ لأنّ العاقل هو الّذي يهتدي إلى الأمر بذاته، أمّا الّذي يعلم فيعلم ما عَقِله هو، وما عَقِله غيره، فدائرة العلم أوسع من دائرة العقل؛ لأنّ العقل يهتدي للشّيء بذاته، أمّا العلم فيأخذ اهتداء الآخرين.

(الآية ٥٥) - ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ٥٥﴾:

يعني: هل هذا الكلام صحيحٌ يا إبراهيم؟ كأنّهم يستبعدون أن يكون كلام إبراهيم عليه السلام جدّيّ؛ لأنّه بعيد عن مداركهم.

(الآية ٥٦) – ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٦﴾:

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: يردّ إبراهيم: لقد جئتكم بالحقّ الّذي يقول: إنّ هذه الأصنام لا تُعبد، بل الّذي يستحقّ العبادة هو الله ربُّ السّموات والأرض، فـ ﴿بَل﴾ إضراب عمّا قبلها، وإثبات الحكم لما بعدها.

﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾: يعني: خَلق السّموات والأرض والأصنام، وكلّ ما في الوجود.

﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: والشّاهد هو الّذي اهتدى إلى الحقّ، كأنّه رَأْي العَيْن، وليس مع العين أَيْن، واهتدى إلى الدّليل على هذا الحقّ، فقال: أنا شاهد على أنّ ربّكم ربّ السّموات والأرض ومعي الدّليل على هذه الحقيقة، نلاحظ هنا الحوار بين الحقّ والباطل، والحوار بين الرّؤية العقليّة والعلميّة المقنعة الّتي تحاكي وتخاطب العقل والعلم، وما بين التّقليد والجمود الّذي كان عليه القوم، فسيّدنا إبراهيم عليه السلام هنا يحاور ويُناقش ويقول: ﴿بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾؛ أي: خلقهنّ، ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ يقدّم شهادة، فكيف وهو لم يشهد خلق السّموات والأرض؟ لقد شهد بالإيمان، عن طريق العقل، عن طريق آيات الله سبحانه وتعالى، عن طريق خلق الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران]، فنحن نصل إلى الله عزّ وجلّ من خلال خلقه وآياته ومن خلال المعجزات الّتي نثرها الله سبحانه وتعالى في هذا الكون

والدّالّة على عجيب صنعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهنا يناقش سيّدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الجمود بالعقل والعلم، وهكذا الحوارات كلّها بين الأنبياء ومن آمن معهم وبين المشركين الّذين صدّوهم، فالّذين يصدّون عن الحقّ هم الّذين لا يُعمِلون العقل، والأنبياء كلّهم جاؤوا بالحقّ، والحقّ هو الأقوى، فإن لم تستطع أن تقول الحقّ فلا تُصَفِّق للباطل.

(الآية ٥٧) - ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾:

هل قال سيّدنا إبراهيم لقومه ذلك؟ إنّ القرآن الكريم عندما يأتي بقول، قد يكون هذا القول علنيّ أو يكون في نَفس الإنسان، لكنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم السّرّ وأخفى، فيخرج لنا القول وكأنّه قاله أمامهم، فبعد ما حدث منهم من لجج وجدال بالباطل أقسم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿وَتَاللَّهِ﴾: والتّاء هنا للقسم.

﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾: وهل الأصنام تُكَاد؟ أم أنّ المراد: لأكيدنّكم في أصنامكم؟ فالأصنام كمخلوق من مخلوقات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تُسبِّح لله عَزَّ وَجَلَّ، فهي من حجارة، والحجر يسبّح، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: من الآية ٤٤]، وما أجمل ما قاله الشّاعر في هذا المعنى حين تكلّم بلسان الأحجار في غار حراء وغار ثور، حيث كانت الحجارة تَغارُ وتحسد حِراء؛ لأنّ المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتعبَّد به قبل البَعْثة، فحِراء شاهدُ تعبُّد لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيزهو بهذه الصّحبة، فلمّا نزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بغار ثور عند الهجرة فرح ثور؛ لأنّه صار في منزلة حراء:

كَمْ حَسَدْنَا حِـرَاءَ حِينَ تَرَى   الـرُّوحَ أميـنـاً يغــزُوك بالأَنْــوارِ
فَحِـرَاءُ وثَــوْرٌ صَـارَا سَــواءً   بِهِمَا تشـفـع لـدولةِ الأحْجَـارِ
عَـبَـدُونَـــا ونَحْـــنُ أعـبَــدُ   لله مِـنَ القَـائِمينَ بالأَسْــحَارِ
اتَّخَــذُوا صَمْتَنَــا علينَـا دَليـلاً   فَغــدَوْنا لَـهُــمْ وقُـــودَ الـنَّــارِ

لأنّ الله ﷻ قال: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: من الآية ٢٤].

فتحطيم الأصنام ليس كَيْداً للأصنام، بل لعُبّادها الّذين يعتقدون أنّها تضرُّ وتنفع، وكأنّ إبراهيم عليه السلام يريد أن يقيم لهؤلاء الدّليل العقليّ على بطلان عبادة الأصنام، الدّليل العمليّ حين يُكسِّر الأصنام، ويثبّت الفأس برأس الصّنم الكبير.

﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾: أي: بعد أنْ تنصرفوا عنها، يعني: على حين غَفْلة منهم.

(الآية ٥٨) - ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾:

ونلحظ هنا أنّ السّياق القرآنيّ يحذف ما يُفهم من الكلام، كما في قصّة سليمان عليه السلام والهدهد: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾ [النّمل]، وحَذْف ما كان من الهدهد ورحلته إلى بلقيس، وإلقائه الكتابَ إليها، وأنّها أخذتْه وعرضتْه على مستشاريها: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩﴾ [النّمل].

﴿جُذَٰذًا﴾: أي: قطعاً متناثرة وحطاماً، بعد أنْ كانت هياكل مجتمعة.

﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾: أي: أنّه تركه فلم يحطّمه، وقد كانوا يضعون الأصنام على هيئة خاصّة، بحيث يكون الكبير في الوسط، وحوله الأصنام الصّغيرة،

كأنّ له سيطرةً عليهم ومنزلة بينهم، ويضعون في عينه الزّبرجد، حتّى يُخيَّل لِمَنْ يراه أنّه ينظر إليه.

﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾: فيسألونه عَمَّا حدث للآلهة الصّغار، ولماذا لم يدافع عنهم، خاصّةً وقد وجدوا الفأْس على كتفه؟

(الآية ٥٩) - ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝٥٩﴾:

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا﴾: أي: لمّا ذهبوا إلى المعبد الّذي يعبدون فيه أصنامهم وجدوها مُحطّمة، فقالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ لأنّه اعتدى على الآلهة السّليمة وكسَّرها، فهذه الآلهة لا تستطيع أنْ تدفع عن نفسها الضّرّ، وكان عليهم أنْ يتنبّهوا إلى هذه المسألة، كيف يقبَلُون عبادتها، ولو أوقعت الرّيحُ أحدهم لكسرته، فيحتاج الإله إلى مَنْ يُصلِح ذراعه ويُرمِّمه ويُقيمه في مكانه، فأيُّ ألوهيّة هذه الّتي يدافعون عنها؟!.

(الآية ٦٠) - ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠﴾:

أي: تطوّع بعضهم وقالوا هذا، وكان للقوم يوم مُحدّد يذهبون فيه إلى معبدهم ومكان أصنامهم، ويأخذون طعامهم وشرابهم، ويبدو أنّه كان يَوْمَ عيد عندهم، وقد استعدّ آزر لهذا اليوم، وأراد أنْ يأخذ معه إبراهيم لعلَّ الآلهة تجذبه فيهتدي وينصرف عَمَّا هو فيه، لكنّ إبراهيم عليه السلام ادّعى أنّه مريض، لا يستطيع الخروج معهم، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ [الصّافّات: من الآية ٨٩]، وعندها عزم إبراهيم عليه السلام على تحطيم أصنامهم، وقال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء]، سمعه بعض القوم فأخبرهم بأمره إن كان إبراهيم عليه السلام

قالها بلسانه، لكنّه لم يُخبِر أحداً وقالها بقلبه، لكنّهم توقّعوا ذلك من كثرة ما يذكر آلهتهم بسوء.

﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ﴾: والذّكْر هنا يعني بالشّرّ بالنّسبة إليهم.

﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾: يعني: اسمه إبراهيم.

(الآية ٦١) - ﴿قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ٦١﴾:

﴿عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ﴾: يعني: على مَرْأىً منهم ليشاهدوه بأعينهم.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ﴾: أي: يشهدون ما نُوقِعه به من العذاب حتّى لا يجترئ أحدٌ آخر أنْ يفعل هذه الفِعْلة، ويكون عبرةً لغيره.

(الآية ٦٢) - ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ٦٢﴾:

هنا أيضاً كلام محذوف: فأَتَوْا به، ثمّ سألوه هذا السّؤال.

﴿ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا﴾: والاستفهام استفهامٌ عن الفاعل.

(الآية ٦٣) - ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣﴾:

﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾: وكأنّه يريد أنْ ينتزعَ منهم الإقرار بأنّ هذا الكبير لا يفعل شيئاً، فيُواجههم: فلماذا تعبدونهم؟ وقَوْل إبراهيم عليه السلام فيه توبيخ وتبكيت لهم، حيث رَدَّ الأمر إلى مَنْ لا يستطيعه ولا يتأتّى منه.

ثمّ يُصرّح إبراهيم عليه السلام لهم بما يريد:

﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾: وهم لن يسألوهم؛ لأنّهم يعرفون حقيقتهم.

(الآية ٦٤) - ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤﴾:

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: أي: تنبّهوا وعادوا إلى عقولهم، ونطقوا بالحقّ.

﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: يعني: بعبادتكم هذه الأصنام، وأنتم تعلمون أنّها لا تنفع ولا تضرُّ، ولا ترى ولا تتكلّم، هكذا واجهوا أنفسهم بهذه الحقيقة، وكشفوا عن بطلان هذه العبادة داخل أنفسهم، لكنّهم لم يصرِّحوا بذلك، بدليل أنّ المولى تبارك وتعالى قال بعدها:

(الآية ٦٥) - ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥﴾:

فبعد أنْ جابهوا أنفسهم بالحقّ ﴿نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾، والنّكسة: أنّ الأعلى يأتي في الأسفل، ورجعوا يقولون له حجّته عليهم نفسها: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ وهذا هو التّغفيل بعينه، فهنا يجب أن نلحظ أنّ القرآن الكريم يأتينا بلسان القائلين مجتمعين، ويأتينا بما في داخل نفوسهم وكأنّهم يقولونه.

(الآية ٦٦) - ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦﴾:

يعني: لا ينفعكم بشيءٍ إنْ عبدتموه ولا يضرّكم بشيء إنْ تركتم عبادته.

(الآية ٦٧) - ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾:

﴿أُفّٖ﴾: اسم فعل بمعنى: أتضجّر، فليس اسماً، ولا فعلاً، ولا حرفاً، إنّما ﴿أُفّٖ﴾ اسمٌ مدلوله فعل، ففيه من الاسميّة، وفيه من الفعليّة؛ لذلك يسمّونه

(الخالفة)؛ لأنّ كلام العرب يدور على اسم أو فعل أو حرف، وإبراهيم عليه السلام يعبِّر بهذه الكلمة: ﴿أُفٍّ﴾ عن ضيقه وتضجُّرِه ممَّا يفعل قومه من عبادة الأصنام من غير الله عز وجل.

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾: يحضّ القرآن الكريم على استخدام العقل، وقد استخدم الحوار بين أنبياء الله سبحانه وتعالى وبين أعدائهم، فقد استخدم معهم سيّدنا إبراهيم عليه السلام أسلوب الحوار والإقناع بالحجّة والبرهان، فكان جوابهم على الحوار والعقل والمنطق:

(الآية ٦٨) - ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨﴾:

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾: بالتّضعيف الدّالّ على المبالغة، ولم يقولوا مثلاً: أحْرِقوه، وقد اجتمعوا على هذا الفعل فبنَوْا بناءً ضخماً ووضعوا فيه النّار، وفي الرّوايات أنّهم مكثوا أربعين يوماً يسجرونها بكلّ ما يمكن أن يشتعل، وبذلك اشتدّت حرارة النّار، حتّى الطّير الّذي يمرُّ فوق هذه النّار كان يسقط مشويّاً من شدّة حرّها، والدّليل على ذلك أنّهم لمّا أرادوا إلقاء إبراهيم عليه السلام في النّار لم يستطيعوا الاقتراب منها لشدّة لَفْحها، فصنعوا له مِنجنيقاً لِيُلْقُوه به في النّار من بعيد.

﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾: حسب اعتقادهم، كأنّ المعركةَ بين إبراهيم والآلهة، والحقيقة أنّ الآلهة الّتي يعبدونها مع إبراهيم عليه السلام وليست ضدّه، فالمعركة بين إبراهيم عليه السلام وبين عُبَّاد الأصنام.

﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾: يعني: إنْ فعلتم شيئاً بإبراهيم فَحرِّقوه.

ثمّ يقول الحقّ سبحانه وتعالى عن إنجائه لإبراهيم عليه السلام من هذه المَحْرقَة:

(الآية ٦٩) - ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾:

جاء هذا الأمر من الحقّ الأعلى سبحانه وتعالى؛ ليخرق بالمعجزة نواميس الكون

السّائدة، ولا يخرق النّاموسَ إلّا خالقُ النّاموس، كما قلنا في قصّة موسى عليه السلام: الماء قانونه السّيولة والاستطراق، ولا يسلبه هذه الخاصيّة إلّا خالقه؛ لذلك فَرَقه لموسى عليه السلام فُرْقاناً -كما قلنا- كلُّ فِرْق كالطَّوْد العظيم، فلا يُعطّل قانون الأشياء إلّا خالقها؛ لأنّ الأشياء لم تُخلق لتكون لها القدرة على قيُّوميّة نفسها، بل مخلوقة تُؤدِّي مهمّة، ومَن خلقها للمهمّة هو القادر أنْ يسلبَها خواصّها، وفَرْقٌ بين فِعْل العبد وفِعْل الرّبّ سبحانه وتعالى، فلو أنَّ في يدك مسدّساً، وأنت تُحسِن التّصويب، وأمامك الهدف، ثمّ أطلقتَ اتّجاه الهدف رصاصة، أَلَكَ تحكُّمٌ فيها بعد ذلك؟ أيمكن أنْ تأمرها أن تميلَ يميناً أو شمالاً فلا تصيب الهدف؟ بالتّأكيد لا تستطيع، لكنّ الحقّ سبحانه وتعالى يتحكّم فيها، ويُسيِّرها كيف يشاء، فالحقّ سبحانه وتعالى خلق النّار وخلق فيها خاصّيّة الإحراق، وهو وحده القادر على سَلْب هذه الخاصّيّة منها، فتكون ناراً بلا إحراق، فليس للنّار قيّوميّة بذاتها، ولكن بمقوّمها، لذلك يقول بعض العارفين: بمجرّد أنْ صدر الأمر: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا﴾ انطفأت كلّ نارٍ في الدّنيا، فلمّا قال: ﴿عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أصبح الأمر خاصّاً بنار إبراهيم دون غيرها، فاشتعلت النّيران عدا هذه النّار، ونلحظ أنّ الله سبحانه وتعالى قيّد قوله: ﴿بَرۡدٗا﴾ بـ (سلاماً)؛ لأنّ البرد المطلق يؤذي.

(الآية ٧٠) - ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠﴾:

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾: والمراد بالكيد هنا مسألة الإحراق، ومعنى الكيد: تدبير خفيّ للعدوّ حتّى لا يشعر بما يُدبَّر له، فيحتاط للأمر، والكيد يكون لمصلحة الشّيء، ويكون ضدّه، ففي قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف:

من الآية ٧٦]؛ أي: لمصلحته، فلم يقُلْ: (كِدْنا يوسف)، إنّما: ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، وقالوا في الكيد: إنّه دليل ضعف وعدم قدرة على المواجهة، فالّذي يُدبِّر لغيره، ويتآمر عليه خُفْية ما فعل ذلك إلّا لعدم قدرته على مواجهته.

﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾: والأخسرون جمع أخسر، على وزن أفعل؛ يدلّ على المبالغة في الخُسْران، وقد كانت خسارتهم في مسألة حَرْق إبراهيم من عِدَّة وجوه: أوّلاً أنّ إبراهيم عليه السلام لم يُصِبْه سوء مع إلقائه في النّار، ثمّ إنّهم لم يَسْلَموا من عداوته، فكلّ من كان موجوداً شاهد أنّ الحقّ مع إبراهيم عليه السلام، وبعد ذلك سيجازون على فِعْلهم هذا في الآخرة.

(الآية ٧١) - ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾:

﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾: يعني: كان هناك شرٌّ يصيبه، وأذىً يلحق به، فنجّاه الله سبحانه وتعالى منه، وهذه النّجاة مستمرّة، فبعد أنْ أنجاه الله سبحانه وتعالى من النّار أنجاه أيضاً ممَّا تعرَّض له من أَذَاهم.

﴿وَلُوطًا﴾: لوط عليه السلام ابن أخ إبراهيم، كان موجوداً في قرية قريبة.

﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾: أي: قلنا لإبراهيم: اترك هذه الأرض -وهي أرض بابل من العراق- واذهب إلى الأرض المقدّسة بالشّام، وخُذْ معك ابن أخيك، فبعد أنْ نجّاهما الله سبحانه وتعالى لم يتركهما في هذا المكان، بل اختار لهما هذا المكان المقدّس، والأرض حينما تُوصَف يُراد بها أرض مُحدَّدة مخصوصة، فإذا لم تُوصَف تُطلق على الأرض عامّة إلّا أن يعيّنها سياق الحال، فمثلاً لـمّا قال أخو يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ [يوسف: من الآية

٨٠]، فالسّياق يُوضِّح لنا أنّها أرض مصر، لكنّ قوله: ﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الإسراء: من الآية ١٠٤] لم تُعيَّن، فدلَّ ذلك على أنّها الأرض عامّة، اسكنوا الأرض كُلَّها، يعني: تبعثروا فيها، ليس لكم فيها وطن مستقلّ، وهذا ردٌّ على اليهود، كما قال في آية أخرى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ﴾ [الأعراف: من الآية ١٦٨]، فإذا أراد الله سُبحانَهُ وتَعالَى تجمّعوا من الشّتات: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الإسراء: من الآية ١٠٤]؛ أي: المرّة الّتي سينتصرون فيها، ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ١٠٤﴾ [الإسراء: من الآية ١٠٤]، وهكذا يتجمَّعون في مكانٍ واحد، فيسْهُلُ القضاء عليهم.

﴿بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾: البركة قد تكون مادّيّة، وهي الزّروع والثّمار والأنهار والخيرات، أو بركة معنويّة، وهي بركة القِيَم في الأرض المقدّسة، وهي أرض الأنبياء، ومعالم النّبوّة والرّسالات.

(الآية ٧٢) - ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾:

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾: يعطينا الحقّ سُبحانَهُ وتَعالَى هنا لقطةً من قصّة إبراهيم لكنّها بعيدة عَمّا نحن بصدده من الحديث عنه، فقد وهب الله سُبحانَهُ وتَعالَى لإبراهيم إسحق لمّا دعا الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصّافّات]، مع أنّه كان عنده إسماعيل، لكنّ إسماعيل من هاجر، فألحَّتْ سارة على إبراهيم أن يدعو الله سُبحانَهُ وتَعالَى أنْ يرزقها الولد، فدعا إبراهيم ربّه، وأراد الحقّ سُبحانَهُ وتَعالَى أن يجيب إبراهيم، وأن يُحقِّق له ما ترجوه زوجته، لكن أراد أن يعطيه هذا الولد في ملحظ عقديّ يُسجَّل ولا يزول عن الأذهان أبداً، ويظلُّ الولد مقترناً بالحادثة، فبداية القصّة

لمّا أمر الله جل جلاله نبيّه إبراهيم عليه السلام في الرّؤيا أن يذبح ولده إسماعيل، فأخبره برؤياه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصّافّات]، فوفّى إبراهيم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النّجم]، ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ﴾، فإبراهيم عليه السلام أتمّ ما أمر الله سبحانه وتعالى به كلّه، فأعطاه مع إسماعيل إسحق ومن وراء إسحق يعقوب.

﴿نَافِلَةً ۖ﴾: النّافلة: الزّيادة، وقد طلب من ربّه ولداً من الصّالحين، فبشّره الله سبحانه وتعالى بإسحق ومن بعده يعقوب وجميعهم أنبياء؛ لذلك قال: ﴿نَافِلَةً ۖ﴾؛ أي: أمر زائد عمّا طلبتَ؛ فإجابة الدّعاء بإسحق، والزّيادة بيعقوب، وسرور الإنسان بولده كبير، وبولد ولده أكبر.

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾: جعلهم صالحين، وجعلهم أنبياء، كما قال في آية أخرى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: من الآية ٤٩]، فعندما يعطي الله سبحانه وتعالى يعطي عطاء مدهشاً، وسيّدنا إبراهيم عليه السلام كان راضياً بقضاء الله عز وجل؛ لذلك أعطاه الله سبحانه وتعالى هذا العطاء كلّه.

(الآية ٧٣) - ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾: ليس المقصود بالإمامة هنا السُّلْطة الزّمنيّة من باطنهم، إنّما إمامة القدوة بأمر الله عز وجل.

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾: فهم لا يعملون أيّ عمل إلّا على هُدىً من الله عز وجل.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾: أي: يفتح لهم أبواب الخير ويُيسِّر لهم ظروفه؛ لأنّ الموفّق الّذي يتوفّر لديه الاستعداد للخير يفتح الله عز وجل له مصارف الخير ويُعينه عليه، وهذه هي مهمّة الأنبياء، والدّعاة إلى الدّين هم دعاة إلى الخير العميم للبشريّة جمعاء دون تفرقة.

وقد بدأ بالمقاصد ثمّ انتقل إلى الشّعائر فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: وإقامة الصّلاة هي: عَيْن الخيرات كلّها؛ لأنّ الخيرات نعمة، لكنّ إقامة الصّلاة حضرة في جانب المنعم سبحانه وتعالى، فالصّلاة هي خَيْر الخَيْر، ولأهمّيّة الصّلاة ذكرها الله سبحانه وتعالى في أوّل أفعال الخيرات، وفي مقدّمتها، فقمّة الخيرات أنْ تكون مع الله سبحانه وتعالى الّذي يهبُ لك هذه الخيرات، والصّلاة هي استدامة ولاءٍ لله سبحانه وتعالى خمس مرّات في اليوم واللّيلة، وإعلان ولاء لله سبحانه وتعالى، تترك هموم الدّنيا كلّها وتلتقي مع المنعم سبحانه وتعالى، قال صلى الله عليه وسلم: «**يَا بِلَالُ، أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا**»(١)، فهي راحةٌ للمؤمن وتزكيةٌ لنفسه وراحةٌ واطمئنان وسكون، يتلقّى فيها رحمات من الله سبحانه وتعالى.

﴿وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾: الزكاة تطبيق عمليٌّ للاستجابة لله سبحانه وتعالى حين يُخرج الإنسان جزءاً من ماله الّذي ملّكه الله سبحانه وتعالى إيّاه لله عز وجل، لذلك دائماً ما تُقرَن الصّلاة بالزكاة، فالعلاقة بينهما قويّة، فالزكاة تضحية بجزء من المال، والمال في الحقيقة نتيجة العمل، والعمل فرع الوقت، أمّا الصّلاة فهي تضحية بالوقت ذاته، فالصّلاة والزكاة هما العمدة، والزكاة هي علاقة مع النّاس والمجتمع، علاقة

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، الحديث رقم (٤٩٨٥).

مع الفقراء والمساكين والمحتاجين والأيتام، فكيف تترجم صلتك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من خلال عطائك لخلق الله جَلَّ جَلَالُهُ.

﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾: أي: مطيعين لأوامرنا، مجتنبين لنواهينا، فالعبادة طاعة عباد لمعبوده.

(الآية ٧٤) - ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ٧٤﴾:

﴿وَلُوطًا﴾: جاءتْ منصوبة؛ لأنّها معطوفة على قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: من الآية ٥١]، وأيضاً: آتينا لوطاً رشده.

﴿حُكْمًا﴾: الحُكْم: يعني الحكمة، وأصله من الحَكَمة الّتي تُوضَع في حنك الفَرَس؛ لأنّ الفَرس قد يشرد بصاحبه أو يتّجه إلى جهة غير مرادة لراكبه؛ لذلك يوضع في حنكه اللّجام أو الحَكَمة، وهي قطعة من الحديد لها طرفان، يتمّ توجيه الفرس منهما يميناً أو شمالاً، ومن ذلك الحِكْمة، وهي وَضْع الشّيء في موضعه، ومنه الحُكْمْ، وهو: وضع الحقّ في مَوْضعه من الشّاكي أو المشكو.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: وفرْقٌ بين العلْم والحكم: العلم أن تُحقِّق وتعرف، أمَّا الحكم فسلوك وتطبيق لما تعلم، فالعلم تحقيق والحكم تطبيق.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾: فقد نجّى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إبراهيم من النّار، وكذلك نجّى لوطاً من أهل القرية الّتي كانت تعمل الخبائث، والخبائث في قوم لوط معروفة؛ لذلك يقول بعدها:

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ﴾: ورجل السَّوْء هو الّذي يسوء كلّ مَنْ يخالطه، ولا يسوء بعضاً دون بعض، فالمثليّة والشّذوذ هو سوءٌ كلّه.

﴿فَٰسِقِينَ﴾: والفسْق: الخروج عن أوامر التّكليف، وهذا التّعبير ككُلِّ التّعابير القرآنيّة مأخوذ من واقعيّات الحياة عند العرب، فأصل الفِسْق من فَسقَتِ الرُّطبة عن قشرتها حين تستوي البلحة فتنفصل عنها القشرة حتّى تظهر منها الرُّطبة، وهذه القشرة جُعلَتْ لتؤدّي مهمّة، وهي حِفْظ الثّمرة، كذلك نقول في الفسق عن المنهج الدّينيّ الّذي جاء ليؤدّي مهمّة في حياتنا، فمَنْ خرج عنه فهو فاسق.

(الآية ٧٥) - ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾:

﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ﴾: كيف؟ ألسنا جميعاً في رحمة الله عزّ وجلّ؟ قال العلماء: لأنّ هناك رحمة عامّة للخَلْق جميعهم تشمل حتّى الكافر، وهناك رحمة خاصّة تعدّي الرّحمة منه إلى غيره، وهذه يعنُون بها النّبوّة، بدليل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزّخرف]، فردَّ الله سبحانه وتعالى عليهم: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ [الزّخرف: من الآية ٣٢]؛ أي: النّبوّة: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الزّخرف: من الآية ٣٢]، فكيف يقسمون رحمة الله سبحانه وتعالى الّتي هي النّبوّة، وهي قمّة الحياة، ونحن نقسِّم لهم أرزاقهم ومعايشهم في الدّنيا؟ فمعنى: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ﴾؛ أي: في رَكْب النّبوّة.

﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: أي: للنّبوّة، والله أعلم حيث يجعل رسالته، لكنّ قمّة هذه الرّحمة جاءت في النّبيّ الخاتم ﷺ والرّسول الّذي لا يُستدرك عليه

برسول بعده؛ لذلك خاطبه ربّه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، فالرّسل قبل محمّد صلى الله عليه وسلم كانوا رحمة لأممهم، أمّا سيّدنا محمّد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحمة للعالمين أجمع.

ثمّ يحدّثنا الحقّ سبحانه وتعالى عن رسولٍ آخر من أولي العزم من الرّسل:

(الآية ٧٦) - ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦﴾:

﴿وَنُوحًا﴾: مثلما قلنا في: ﴿وَلُوطًا﴾ [الأنبياء: من الآية ٧٤]، لمَ جاءت منصوبة؟ أي: آتيناه هو أيضاً رُشْده.

﴿إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾: النّداء في حقيقته: طلبُ إقبال، وإنْ كان من أعلى لأدنى فهو نداء، وإنْ كان من مُسَاوٍ لك فهو التماس، فإنْ كان من أدنى لأعلى فهو دعاء، فحين تقول: يا ربّ، الياء هنا ليست للنّداء بل للدّعاء، وحين نمتحن تلميذاً نقول له: أعرب: رَبِّ اغفر لي، فلو كان نبيهاً يقول: ربّ مدعو، والتّقدير: يا ربّ، ومن قال: منادى، فهذا صحيح أيضاً، فالياء في أصلها للنّداء، لكنّه غير دقيق في الأداء، كذلك في: اغفر لي، إنْ قال: فِعْل أمر، فله نصف الدّرجة، أمّا إن قال: دعاء، فَلَهُ الدّرجة الكاملة.

فماذا قال نوح عليه السلام في ندائه؟ المراد قوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح: من الآية ٢٦]، فاستجاب الله سبحانه وتعالى لنبيّه نوح عليه السلام:

﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾: والمراد بالكرب ما لبثه نوح عليه السلام في دعوة قومه من عمر امتدّ ألف سنة إلّا خمسين عاماً، وما تحمَّله في سبيل

دعوته من عَنَتٍ ومشقّة قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح]، ثمّ لمّا أمره الله جَلَّ جَلَالُهُ بصناعة الفُلك أخذوا يسخرون منه: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: من الآية ٣٨]، فاستجاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دُعاءه ونداءه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾، وفي موضعٍ آخر، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥﴾ [الصّافّات]، فوصف الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إجابته لنوح بـ (نِعْمَ) الدّالّة على المدح، فهل يعني ذلك أنّ هناك مَنْ يكون بِئْس المجيب؟ قالوا: نعم، إذا سألته شيئاً فأجابك إليه وهو شَرٌّ لك، أمّا الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهو نِعْم المجيب؛ لأنّه لا يُجيبك إلّا بما هو صالح ونافع لك، فإنْ كان في دعائك شَرٌّ ردَّه لعلمه جَلَّ جَلَالُهُ أنّه لن ينفعك، وكأنّ الحقّ الأعلى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول لكم: أنا لستُ موظّفاً عندكم، أجيبكم إلى كُلِّ ما تطلبون، إنّما أنا قيُّوم عليكم، وقد تدعون بما تظنّون أنّه خير لكم، وأعلم بأزليّة عِلْمي أنّ ذلك شرّ لا خيرَ فيه، فيكون الخير لكم ألّا أجيبكم؛ لأنّني نِعْمَ المجيب، فالحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حين يردُّ مِثْل هذا الدّعاء هو نِعْم المجيب؛ لأنّه نِعْم المانع، لذلك يقول جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾ [الإسراء]؛ أي: يدعو ويُلِحُّ في الدّعاء بما يظنُّه خَيْراً، وهو ليس كذلك.

(الآية ٧٧) - ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٧٧﴾:

ما زالت الآيات تقصُّ علينا طرفاً مُوجزاً من رَكْب النّبوّات، ونحن في سورة الأنبياء، وحينما نتأمّل هذه الآية نجد أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعذِّب بالماء كما

يُعذِّب بالنّار، مع أنّهما ضِدَّانِ لا يلتقيان، فلا يقدر على هذه المسألة إلّا خالقهما ﷻ. وقصّة غَرَق قوم نوح وأهل سبأ بعد انهيار سَدِّ مأرب أحدثتا عقدة عند أهل الجزيرة العربيّة، فصاروا حين يروْنَ الماء يخافون منه، ويبتعدون عنه؛ لأنّه يُذكِّرهم بخطر الطّوفان.

ثمّ يحدّثنا الحقّ ﷻ عن نبيّين من أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام:

(الآية ٧٨) - ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ۝٧٨﴾:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾: يحكمان تعني أنّ هناك خصومة بين طرفين، والحرْث: إثارة الأرض وتقليب التّربة؛ لتكون صالحة للزّراعة، وقد وردتْ كلمة الحرث أيضاً في قوله ﷻ: ﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٠٥]، والحرْث ذاته لا يهلك، إنّما يهلك ما نشأ عنه من زُروع وثمار، فسمَّى المولى ﷻ الزّرع حَرْثاً؛ لأنّه ناشئ عنه، كما في قوله ﷻ أيضاً: ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾ [آل عمران: من الآية ١١٧]، لكن، لماذا سَمَّى الحرْث زَرْعاً، مع أنّ الحَرْث مجرّد إعداد الأرض للزّراعة؟ قال العلماء: لُيبيِّن بأنّ الزّرع لا يكون إلّا بحرْث؛ لأنّ الحرْث إهاجة تُرْبة الأرض، وهذه العمليّة تساعد على إدخال الهواء للتّربة، وتخفيفها من الماء الزّائد؛ لأنّ الأرض بعد عمليّة الرّيِّ المتكرّرة يتكوَّن عليها طبقة زَبَديّة تسدُّ مسَام التُّربة، وتمنع تبخُّر المياه الجوفيّة الّتي تُسبِّب عطباً في جذور النّبات، لذلك، ليس من جَوْدة التّربة أن تكون طينيّة خالصة، أو رمليّة خالصة، فالأرض الطّينيّة تُمسك

الماء، والرّمليّة يتسرَّب منها الماء، وكلاهما غير مناسب للنّبات، أمّا التّربة الجيّدة، فهي الّتي تجمع بين هذه وهذه، فتسمح للنّبات بالتّهوية اللّازمة، وتُعطيه من الماء على قَدْر حاجته، لذلك سَمَّى الزّرْع حَرْثاً؛ لأنّه سببُ نمائه وزيادته وجَوْدته، وليُلفت أنظارنا أنّه لا زَرْع من غير حَرْث، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ [الواقعة]، ففي هذه المسألة إشارة إلى سُنَّة من سُنَن الله ﷻ في الكون، هي أنّنا لا بُدَّ أن نعمل لننال، فربُّنا وخالقنا قدَّم لنا العطاء حتّى قبل أنْ نُوجَد، وقبل أن يُكلِّفنا بشيء، وقد ورد في الحديث الشّريف قوله ﷺ: «أَعْطُوا الأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ»(١)، ما دام قد عمل فقد استحقّ الأجر، والأمر كذلك في مسألة الحرث.

﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾: هذه خصومة بين طرفين، احتكما فيها لداود ؏: رجل عنده زرع، وآخر عنده غنم، فالغنم شردتْ في غفلة من صاحبها فأكلتْ الزّرع، فاشتكى صاحبُ الزّرع صاحبَ الغنم لداود، فحكم في هذه القضيّة بأن يأخذَ صاحبُ الزّرع الغنَم، وربّما وجد سيّدنا داود ؏ أنّ الزّرع الّذي أتلفتْه الغنم يساوي ثمنها، فحينما خرج الخَصْمان لقيهما سليمان ؏ وكان في الحادية عشرة من عمره، وعرف منهما حكم أبيه في هذه القضيّة، فقال: غير هذا أرفق بالفريقين، فسمَّى حُكْم أبيه رِفْقاً، ولم يتّهمه بالجَوْر مثلاً، لكن عنده ما هو أرفق، فلمّا بلغت مقالته لأبيه داود سأله: ما الرِّفق بالفريقين؟ قال سليمان: نعطي الغنم لصاحب الزّرع يستفيد من لبنها

---

(١) مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: كتاب البيوع، باب بيع ما لم يقبض، الحديث رقم (٦٤٥٧).

وأصوافها، ونعطي الأرض لصاحب الغنم يُصلحها حتّى تعود كما كانت، ساعتها يأخذ صاحب الغنم غنمه، وصاحب الزّرع زَرْعه.

﴿نَفَشَتْ﴾: نقول: نفش الشّيء؛ أي: أخذ حَجْماً فوق حَجْمه، كما لو أخذتَ مثلاً قطعة من الخبز ووضعتَها في لبن أو ماء، تلاحظ أنّها تنتفش ويزداد حجمها.

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾: أي: مراقبين.

(الآية ٧٩) - ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۝٧٩﴾:

فداود وسليمان عليهما السلام نبيّان، لكلٍّ منهما طريقة وعطاء من الله عز وجل، وله مكانة، وقد أعطاهما الله سبحانه وتعالى حُكْماً وعلماً، ومع ذلك اختلف قولهما في هذه القضيّة، فما توصَّل إليه سليمان لا يقدح في عِلْم داود، ولا يطعن في حُكْمه، وما أشبه حُكْم كُلٍّ من داود وسليمان بمحكمة درجة أولى، ومحكمة درجة ثانية، ومحكمة النّقْض، ومحكمة الاستئناف، وإيّانا أن نظنّ أنّ محكمة الاستئناف حين تردُّ قضاء محكمة درجة أولى أنّها تطعن فيها، فهذا مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾، فجاء بحكْم غير ما حكَم به أبوه؛ لذلك فالقاضي الابتدائيّ قد يحكم في قضيّة، ويتمّ تأجيلها إلى أنْ يترقّى إلى قاضي استئناف، فيقرأ القضيّة نفسها لكن بنظرة أخرى، فيأتي حُكْمه غير الأوّل.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾: حينما جمع السّياق القرآنيّ بين داود وسليمان عليهما السلام أراد أنْ يُبيِّن لنا طَرفاً مِمَّا وهبهما الله جل جلاله، فقوله سبحانه وتعالى:

﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ مظهر من مظاهر امتيازه، وهنا يُبيِّن مَيِّزةً لداود عليه السلام: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ﴾، فالله سبحانه وتعالى سخّر له الجبال كي تُسبِّح معه، فهل الجبال مُسبِّحة؟ الجواب: نعم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: من الآية ٤٤]، فسخّر الجبال وهي جماد، ثمّ الطّير وهي أرْقَى من الجماد، لكن إنْ تصوَّرْنا التّسبيح من الطّير؛ لأنّه حَيٌّ، وله روح، وله حركة وصوت مُعبّر، فكيف يكون التّسبيح من الجبال الصّمّاء؟ فيجب ألّا نأخذ هذه الآية بظواهر التّفسير، بل بالنّظر في لُبِّ الأشياء، فالجبال صحيح أنّنا نراها جامدة، ليس لها صوت مُعبّر كما للطّير؛ لكنّ الجمادات تُسبِّح بطريقتها، بدليل: أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم سبَّح الحصى في يده، وهي جماد، فالحصى مُسبِّحة، تُسبِّح في أيّ مكان، وفي أيّ يد، لكنّ الفارق أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم سمع تسبيحها؛ أي: وافق. والمزيّة الّتي أعطاها الله سبحانه وتعالى لنبيّه داود عليه السلام ليستْ في تسبيح الجبال؛ لأنّ الجبال تُسبِّح معه ومع غيره، إنّما الميّزة في أنّها تُردِّد معه، وتوافقه التّسبيح، وتجاوبه، فحين يقول داود عليه السلام: سبحان الله، تردّد وراءه الجبال: سبحان الله، قال بعضهم: التّسبيح هنا ليس على حقيقته، لكنّ الحقيقة أنّ الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: من الآية ٤٤]، فهم يُسبِّحون، والآن نرى في طموحات العلماء السَّعْي لعمل قاموس للغة الأسماك ولغة بعض الحيوانات، ولا نستبعد في المستقبل عمل قاموس للغة الأحجار والجمادات، وإلّا فكيف ستكون ارتقاءات العلم في المستقبل؟ وهذه حقيقة أثبتها القرآن الكريم تنتظر أن يكتشفها العلم الحديث، بأنّ للجماد لغة، فالمزيّة الّتي أعطاها الله سبحانه وتعالى لنبيّه داود عليه السلام ليستْ في تسبيح الجبال؛ لأنّ الجبال

تُسبّح معه ومع غيره، إنّما الميّزة في أنّها تُردِّد معه، وتوافقه التّسبيح، وتجاوبه، وهو يسمع هذا التّسبيح، ولا يسمعه بقيّة الخلق، وليس معنى الجماد أنّه جامد لا حياةَ فيه، فهو جماد من حيث صورة تكوينه، ولو تأمّلنا المحاجر في طبقات الأرض لوجدنا بين الأحجار حياة وتفاعلاً وحركةً منذ ملايين السّنين، ونتيجة لهذه الحركة يتغيّر لَوْنُ الحجر وتتغيّر طبيعته، وهذا دليل الحياة فيها -فسبحان الله-.

﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾: أي: أنّ الله سبحانه وتعالى قادر على فعل أيّ شيء، فإيّاك أن تستغرب أو تقول: كيف يُسبّح الطّير وكيف تُسبّح الجبال؛ فالله سبحانه وتعالى هو الفاعل، وهو المانح والمحرّك.

(الآية ٨٠) - ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾:

الحديث هنا عن داود عليه السلام:

﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ﴾: العِلْم نقل قضيّة مفيدة في الوجود من عالم بها إلى جاهل بها، والإنسان دائماً في حاجة إلى معرفة وتعلُّم؛ لأنّه خليفة الله عز وجل في الأرض، ولن يستطيع أن يؤدّي هذه المهمّة إلّا من خلال العلم، ومن خلال الفَهْم والمعارف والثّقافات، فمثلاً تشكيل الحديد يحتاج إلى تسخين حتّى يصير لَيِّناً قابلاً للتّشكيل، الماء لا بُدَّ أنْ نغليَه لكذا وكذا.. إلخ، فكلّ شيء مرتبط بعلم، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ﴾ يصحّ أن يُقال: كان هذا التّعليم بالوحي، أو بالتّجربة، أو الإلقاء في الرَّوْع، وهذه الصّنعة لم تكن معروفة قبل داود عليه السلام، واللّبوس: أبلغ وأحكم من اللّباس، فاللّباس من مادّة (لبس)

نفسها، وهي الملابس الّتي تستر عورة الإنسان، وتقيه الحرّ والبرد، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النّحل: من الآية ٨١]، أمّا في الحرب فنحتاج إلى حماية أكبر ووقاية أكثر من العاديّة الّتي نجدها في اللّباس، فنحتاج إلى ما يقينا البأس، ويحمينا من ضربات العدوّ في الأماكن القاتلة؛ لذلك اهتدى النّاس إلى صناعة الخوذة والدّرع لوقاية الأماكن الخطرة في الجسم البشريّ، وتتمثّل هذه في الرّأس والصّدر، ففي الرّأس المخّ، وفي الصّدر القلب، فإن سَلِمَتْ هذه الأعضاء فما دونها يمكن مداواته وجَبْره، فاللّبوس أبلغ وأكثر حماية من اللّباس؛ لأنّ مهمّته أبلغ من مهمّة اللّباس، وكانت قبل داود عليه السلام مَلْساء يتزحلق السّيف عليها، فلمّا صنعها داود جعلها مُركَّبة من حلقات حتّى ينكسر عليها السّيف؛ لذلك قال ﷻ بعدها:

﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾: أي: تحميكم في حَرْبكم مع عدوّكم، وتمنعكم وتحوطكم.

فألهمنا داود عليه السلام، فأخذ يُفكِّر ويبتكر، وكلّ تفكير في ارتقاء صَنْعة إنّما ينشأ من ملاحظة عيب في صَنْعة سابقة، فيحاول اللّاحق تلافي أخطاء السّابق، وهكذا حتّى نصلَ إلى شيء لا عَيْبَ فيه، أو على الأقلّ نتجنّب العيوب السّابقة.

﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾: تشكرون نعمة الله عز وجل الّذي يرعاكم ويحفظم في المآزق والمواقف الصّعبة، واختار ﷻ موقف البأس؛ أي: الحرب، أمام العدوّ؛ ليعطينا إشارة إلى ضرورة إعداد المؤمن للمواجهة، والأخذ بأسباب النّجاة إذا تمَّتْ المواجهة.

ثمّ ينتقل السّياق القرآنيّ من الكلام عن داود إلى ابنه سليمان ﷺ، فيقول الحقّ سبحانه وتعالى:

(الآية ٨١) - ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾﴾:

لا شكّ أنّ سليمان عليه السلام قد استفاد ممّا علّمه الله سبحانه وتعالى لأبيه داود عليه السلام، وأخذ من نعمة الله عز وجل على أبيه، وهنا يزيده الله سبحانه وتعالى عطاءً وأموراً تميّز بها سليمان عليه السلام منها الرّيح العاصفة؛ أي: القويّة الشّديدة:

﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ﴾: وكأنّها مواصلات داخليّة في مملكته من العراق إلى فلسطين، وفي موضعٍ آخر قال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص: من الآية ٣٥ - الآية ٣٦]، رُخَاء؛ أي: هيّنة ليّنة ناعمة، وهنا قال: ﴿عَاصِفَةً﴾: فكأنّ الله سبحانه وتعالى جمع لهذه الرّيح صفة السّرعة في: ﴿عَاصِفَةً﴾، وصفة الرّاحة في: ﴿رُخَاءً﴾، وهاتان صفتان لا يقدر على الجمع بينهما إلّا الله عز وجل، فنحن حين تُسْرِع بنا السّيّارة مثلاً لا تتوفّر لنا صِفَة الرّاحة والاطمئنان، بل نشعر بفزع ونطلب تهدئة السّرعة، أمّا ريح سليمان عليه السلام فكانت تُسرع به إلى مراده، وهي في الوقت نفسه مريحة ناعمة هادئة لا تُؤثّر في تكوينات جسمه، ولا تُحدث له رجَّة أو قوّة اندفاع يحتاج مثلاً إلى حزام أمان، فمَنْ يقدر على الجمع بين هذه الصّفات إلّا الله عز وجل القابض الباسط، الّذي يقبض الزّمن في حقّ قوم ويبسطه في حقّ آخرين.

﴿بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾: أي: بركة حِسِّية بما فيها من الزّروع والثّمار والخِصْب والخيرات، أو بركة معنويّة، حيث جعل فيها مهابط الوحي والنّبوّات وآثار الأنبياء.

وليس تسخير الرّيح لسليمان أنّها تحمله مثلاً، أو: أنّها كانت تُسيِّر المراكب في البحار، إنّما المراد بتسخيرها له أن تكون تحت مراده، وتأتمر بأمره، فتسير حيث شاء يميناً أو شمالاً، فهي لا تهُبُّ على مرادات الطّبيعة الّتي خلقها الله ﷻ عليها، ولكن على مراد سليمان ؑ، وهذا هو الفارق، وإنْ كانت هذه الرّيح الرُّخَاء تحمله في رحلة داخليّة في مملكته، فهناك من الرّياح ما يحمله في رحلات وأسفار خارجيّة، كالّتي قال الله ﷻ عنها: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾ [سبأ: من الآية ١٢]، فيجوب بها في الكون كيف يشاء ﴿حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦﴾ [ص: من الآية ٣٦].

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾: أي: عندنا علْم نُرتّب به الأمور على وَفْق مرادنا، ونكسر لمرادنا قانون الأشياء فَنُسيِّر الرّيح كما نحبّ، لا كما تقتضيه الطّبيعة.

(الآية ٨٢) - ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾:

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾: فبعد أنْ سخَّر الله ﷻ له الرّيح سخَّر له الشّياطين.

﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾: والغَوْصُ: النّزول إلى أعماق البحر؛ ليأتوه بكنوزه ونفائسه وعجائبه الّتي ادّخرها الله ﷻ في البحر.

﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾: أي: ممّا يُكلِّفهم به سليمان عليه السلام من أعمال شاقّة لا يقدر عليها الإنسان، وقد شُرِحَت هذه الآية في موضع آخر: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ [سبأ: من الآية ١٣]، فأدخل مرادات العمل في مشيئة سليمان عليه السلام، والمحاريب جمع محراب، وهو مكان العبادة كالقِبْلة مثلاً، والجِفَان: جمع جَفْنة، وهي القَصْعة الكبيرة الواسعة الّتي تكفي لعدد كبير، والقدور الرّاسيات؛ أي: الثّابتة الّتي لا تنقل من مكان لآخر وهي مبنيّة، أمّا التّماثيل فهي معروفة، والموقف منها واضح منذ زمن إبراهيم عليه السلام حينما كسَّرها ونهى عن عبادتها، وهذا يردُّ قول مَنْ قال بأنّ التّماثيل كانت حلالاً، ثمّ فُتِن النّاس بها، فعبدوها من غير الله عز وجل فَحُرِّمَت، فكيف نخرج من هذا الموقف؟ وكيف يمتنّ الله سبحانه وتعالى على نبيّه سليمان عليه السلام أن سخّر له مَن يعملون التّماثيل وهي مُحرَّمة؟ نقول: كانوا يصنعون له التّماثيل لا لغرض التّعظيم والعبادة، إنّما على هيئة الإهانة والتّحقير، فيجعلونها على هيئة رجل جبّار، أو وحش مفترس يحمل جزءاً من القصر أو شرفة من شرفاته؛ أي: أنّها ليست على سبيل التّقديس.

﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾: حافظين للنّاس المعاصرين لهذه الأعمال يروْنَ البشر، والبشر لا يروْنَهم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ [الأعراف: من الآية ٢٧]، أمّا سليمان عليه السلام فكان يرى الجنَّ، ويراقبهم وهم يعملون له، وفي قصّته: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ﴾ [سبأ: من الآية ١٤]، وفي هذا دليل على أنّ الجنّ لا يعلمون الغيب؛ لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي

﴿ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾ [سبأ: من الآية ١٤]، ويُقال: إنّ سليمان عليه السلام بعد أنْ امتنَّ الله سبحانه وتعالى عليه، وأعطاه مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده، أخذ هؤلاء الجنّ وحبسهم في القماقم حتّى لا يعملوا لأحدٍ غيره. هذه لقطة من قصّة سليمان عليه السلام، ينتقل السّياق منها إلى أيّوب عليه السلام:

(الآية ٨٣) - ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾:

﴿نَادَىٰ﴾: قلنا: النّداء لمثلك طلب إقبال، أمّا بالنّسبة إلى الله سبحانه وتعالى فهو بمعنى الدّعاء، فمعنى: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾؛ أي: دعاه وناداه بمطلوب هو:

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾: والضُّرّ (بضمّ الضّاد): ابتلاء من الله عز وجل في جسده بمرض أو غيره، أمّا الضَّرّ (بفتح الضّاد): فهو إيذاء وابتلاء في أيّ شيء آخر غير الجسد، ولا مانع أن يمرض الأنبياء لكن بمرض غير مُنفِّر، لكن، كيف ينادي أيّوب عليه السلام ربّه جل جلاله ويتوجّع: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، أليس في علم الله سبحانه وتعالى أنّ أيّوبَ عليه السلام مسّه الضُّرّ؟ وهل يليق بالنّبيّ أنْ يتوجّع من ابتلاء الله عز وجل؟ نعم، يجوز له التّوجُّع؛ لأنّ العبد لا يَشْجَعُ على ربّه؛ لذلك فإنّ الإمام عليّاً رضي الله عنه لـمّا دخل عليه رجل يعوده، وهو يتألّم من مرضه ويتوجّع، فقال له: أتتوجّع وأنت أبو الحسن؟ فقال: أنا لا أشجع على الله سبحانه وتعالى، يعني: أنا لست قويّاً أمام الله عز وجل، ألا ترى أنّه من الأدب مع مَنْ يريد أن يُثبِت لك قوّته فيمسك بيدك مثلاً، ويضغط عليها لتضجّ وتتألّم، أليس من الأدب أن تطاوعه فتقول: آه، وتُظهِر له –ولو مجاملة– أنّه أقوى منك؟

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾: ساعةَ نرى جَمْعاً في صفةٍ من الصّفات يُدخِل الله سبحانه وتعالى فيه نفسه مع خَلْقه، كما في: ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، و﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: من الآية ١٤]، و﴿خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: من الآية ٥٤]، فلنعلم أنّ الله سبحانه وتعالى يُثبِت الصّفة نفسها لعباده، ولا يبخسهم حقّهم، فالرّحمة من صفات البشر الّتي تكون على حجم البشر، كما جاء في الحديث الشّريف: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»(١)، فالرّحمة تخلُّق بأخلاق الحقّ سبحانه وتعالى.

فللخَلْق صفة الرّحمة، لكنّ الله سبحانه وتعالى هو أرحم الرّاحمين جميعاً؛ لأنّ رحمته تعالى وسعَتْ كلّ شيء، كما قلنا في صفة الخَلْق: فيمكن للإنسان مثلاً أن يصنع من الرّمل كوباً، ويُخرِجه إلى الوجود، وينتفع به، لكن أهذا الخَلْق للكوب كخَلْق الله عزّ وجلّ؟ بالتّأكيد لا.

(الآية ٨٤) - ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾:

استجاب الله سبحانه وتعالى لأيّوب عليه السلام فيما دعاه به من كَشْف الضُّرّ الّذي أصابه، وأعطاه زيادة عليه ونافلة لم يَدْعُ بها، حيث كان في قِلّة من الأهل، وليس له عِزْوة.

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾: ليعلم كلُّ عابد أخلص عبادته لله سبحانه وتعالى أنّه إذا مسَّه ضُرٌّ أو كَرْب ولجأ إلى الله عزّ وجلّ أجابه الله جلّ جلاله إلى ما يريد، وأعطاه

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب في الرّحمة، الحديث رقم (٤٩٤١).

فوق الإجابة نافلة أخرى، وكأنّ ما حدث لنبيّ الله أيّوب عليه السلام نموذج يجب أن يُحتَذَى بين البشر جميعاً.

(الآية ٨٥) - ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥﴾:

قلنا: إنّ سورة الأنبياء لا تذكر قصَصاً كاملة للأنبياء، إنّما تعطينا طرَفاً منها، وهنا تذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل بالاسم فقط.

﴿كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: كأنّ الصّبر في حَدِّ ذاته حيثيّة يُرسل الله سبحانه وتعالى من أجلها الرّسول.

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾: ولنتأمّل الصّبر عند إسماعيل عليه السلام، الّذي وافق على أنْ يذبحه أبوه برؤيا رآها، فأيُّ صبرٍ أعظم من هذا؟ ثمّ يعيش في صِغَره إلى أن يكبر في وَادٍ غير ذي زرع، ويتحمّل مشاقّ هذه البيئة الجافّة المجْدِبة، ويخضع لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٧]، وكأنّ في خروجه من هذه الأرض وطلبه لأرض أخرى فيها النّعيم والزّروع والثّمار تأبّياً على إقامة الصّلاة؛ لذلك نراه يُفضّل البقاء في هذا المكان، ويزهد في نعيم الدّنيا الّذي يتمتّع به غيره امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى، وكانت النّتيجة أنْ أعطاه الله سبحانه وتعالى ما هو خَيْر من الزّروع والثّمار، أعطاه عطاءً يفخر به بين الأنبياء جميعهم، حيث جعل من نسله النّبيّ الخاتم محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وأيُّ ثمرة أحسن من هذه؟

﴿وَإِدۡرِيسَ﴾: وهو من الجيل الخامس من أولاد آدم عليه السلام، وبعض العلماء يقولون هو أوزوريس، ونحن لا نقول إلّا ما قاله القرآن الكريم: (إدريس)، وأهل

السّير يقولون: إنّ نبيّ الله إدريس عليه السلام أوّل مَنْ علّمه الله سبحانه وتعالى غزل الصّوف وخياطة الملابس، وكانوا قبلها يسترون عوراتهم بقطع الجلود، وهو أوّل مَن استخدم النّجوم لمعرفة الاتّجاهات والأحوال، وأوّل مَنْ خطّ بالقلم، هذه يُسمُّونها: أوّليّات إدريس.

﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾: الكِفْل هو الحظّ والنّصيب، فلماذا سُمِّي بهذا الاسم؟ ذو الكفل هو ابن أيّوب عليه السلام، ويظهر أنّ أولاد أيّوب كانوا كثيرين، ولكن اختصّ الله سبحانه وتعالى ذا الكفل عليه السلام بالرّسالة، وكان هذا حظّه دون غيره من أبناء أيّوب؛ لذلك سُمِّي: ذو الكفل، وقد جاءت هذه المادّة (كَفَل) أيضاً في قوله الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: من الآية ٢٨]، جاءت هذه الآية بعد الكلام عن عيسى عليه السلام والّذين آمنوا به واتّبعوه، يقول جل جلاله: يا مَنْ آمنتم بالرّسل السّابقين، وآخرهم عيسى عليه السلام آمنوا بالرّسول الخاتم ليكون لكم كفلان؛ أي: نصيبان وحظّان من رحمة الله عز وجل.

﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: فوصف الأنبياء كلّهم بالصّبر؛ لأنّهم تعرّضوا لأنواع الاضطهاد والإيذاء والأهوال في سبيل دعوتهم، وصبروا على هذا كلّه.

(الآية ٨٦) - ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٦﴾:

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾: الرّحمة هنا بمعنى النّبوّة، وهي أمر عظيم وعطاء كبير، فإنْ تحمّلوا في سبيله بعض المتاعب، فلا غضاضةَ في ذلك.

﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: فعنوان النّبوّات والرّسالات هو الصّلاح والإصلاح، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [هود: من الآية ٨٨]،

فيأتي الأنبياء لإصلاح العقائد والانحرافات والأخلاق، فالأنبياء ليسوا فقط صالحين بذاتهم، إنّما مصلحين لغيرهم أيضاً.

(الآية ٨٧) - ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾: هو سيّدنا يونس بن متّى صاحب الحوت، والنّون من أسماء الحوت، وجمعه (نينان) كحوت وحيتان؛ لذلك سُمِّيَ به، وقد أُرسل يونس عليه السلام إلى أهل (نِينَوى) من أرض الموصل بالعراق، وقد قال النّبيّ ﷺ لعدّاس: «مِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»(١).

والنّون أيضاً اسم لحرف من حروف المعجم، لكن قد يوافق اسمُ الحرف اسماً لشيء آخر، كما في (ق) وهو اسم جبل، وكذلك السّين، فهناك نهر اسمه نهر السّين.

﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾: مادّة (غضب) نأخذ منها الوصف للمفرد، نقول: غاضب وغضبان، أمّا (مغاضِب) فتعطي معنى آخر؛ لأنّها تدلّ على المفاعلة، فلا بُدَّ أنّ أمامك شخصاً آخر، أنت غاضب وهو غاضب، مثل: شارك فلان فلاناً، لكن في أصول اللّغة رجّحنا جانب الفاعليّة في أحدهما، والمفعُوليّة في الآخر، كما نقول: شارك زيدٌ عَمْراً، فالمشاركة حدثتْ منهما معاً، لكن جانب الفاعليّة أزيد من ناحية زيد، فكلُّ واحد منهما فاعل مرّة ومفعول أخرى،

---

(١) الرّحيق المختوم: ج١، ص١٠٠.

واللّغة أحياناً تلحظ هذه المشاركة؛ فتُحمِّل اللّفظ المعنيين معاً: الفاعل والمفعول.

فَلماذا غضب ذو النّون؟ غضب لأنّ قومه كذّبوه، فتوعّدهم إنْ لم يتوبوا أنْ يُنزل بهم العذاب، وأتى الموعد ولم ينزل بهم ما توعّدهم به، فخاف أنْ يُكذِّبوه، وأن يتجرَّؤوا عليه، فخرج من بينهم مغاضِباً إلى مكان آخر، وهو لا يعلم أنّهم تابوا فأخّر الله ﷻ عذابهم، وأجّل عقوبتهم، وفي آية أخرى يُوضِّح الحقّ ﷻ هذا الموقف: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨﴾ [يونس]؛ أي: لم يحدث قبل ذلك أنْ آمنتْ قرية ونفعها إيمانها إلّا قرية واحدة هي قوم يونس، فقد آمنوا وتابوا فأجّل الله ﷻ عذابهم، فخرج يونس مُغاضِباً لا غاضباً؛ لأنّ قومه شاركوه، وكانوا سبب غضبه.

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: بعضهم ينظر في الآية نظرةً سطحيّة، فيقول: كيف يظنّ يونس عليه السلام أنّ الله ﷻ لن يقدر عليه؟ وهذا الفَهْم ناشئ عن جَهْل باستعمالات اللّغة، فليس المعنى هنا من القدرة على الشّيء والسّيطرة، ولو استوعبتَ هذه المادّة في القرآن الكريم (قَدَرَ) لوجدت لها معنى آخر، كما في قوله ﷻ: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطّلاق: من الآية ٧]، معنى قُدِر عليه رزقه: ضُيّق عليه، ومنها قوله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الإسراء: من الآية ٣٠]، ومنها قوله ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾ [الفجر]، فقدر؛ أي: ضيّق، فقوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؛ أي:

أنّ يونس عليه السلام لـمّا خرج من بلده مُغاضباً لقومه ظنَّ أنّ الله سبحانه وتعالى لن يُضيِّق عليه، بل سيُوسِّع عليه ويُبدله مكاناً أفضل منها، بدليل أنّه قال بعدها: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، يريد منه سبحانه وتعالى تنفيس كربته، وتنفيس الكربة لا يكون إلّا بصفة القدرة لله عزّ وجلّ، فالمعنى: لن يُضيِّق عليه؛ لأنّه يعلم أنّه رسول من الله عزّ وجلّ، وأنّ ربّه لن يُسلْمه، ولن يخذله، ولن يتركه في هذا الكرب. وقد وُجدَتْ شبهة في قصّة يونس عليه السلام في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾ [الصّافّات]، فكيف يلبث في بطن الحوت إلى يوم يُبعثون، مع أنّ يونس عليه السلام سيموت، وسيأتي أجَل الحوت ويموت هو أيضاً، أم أنّ الحوت سيظلّ إلى يوم القيامة يحمل يونس عليه السلام في بطنه؟ انظروا إلى هذه الأسئلة الّتي لا معنى لها، وفات هؤلاء نظريّة الاحتواء في الأمزجة، كما لو أذبتَ قالباً من السّكر في كوب ماء، فسوف تحتوي جزئيّات الماء جزئيّات السّكر، والأكثر يحتوي الأقلّ، فقالب السّكر لا يحتوي الماء، إنّما الماء يحتوي السّكر، فلو مات الحوت، ومات في بطنه يونس عليه السلام وتفاعلت ذرّاتهما وتداخلتْ، فقد احتوى الحوتُ يونسَ إلى أن تقوم السّاعة، وعلى هذا يظلّ المعنى صحيحاً، فهو في بطنه مع تناثر ذرّاتهما.

(الآية ٨٨) - ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾:

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾: استجاب الله عزّ وجلّ نداء يونس عليه السلام ونجّاه من الكرب، من الظّلمات الثّلاث.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: فهذه ليست خاصّة بيونس عليه السلام، بل بكلّ مؤمن يدعو الله سبحانه وتعالى بهذا الدّعاء.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: أي: مثل هذا الإنجاء، نُنْجي المؤمنين الّذين يفزعون إلى الله عز وجل بهذه الكلمة: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: من الآية ٨٧]، فيُذهِب الله سبحانه وتعالى غَمَّه، ويُفرّج كَرْبه، لذلك يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "ثوّروا القرآن"؛ أي: أثيروه ونقّبوا في آياته لتستخرجوا كنوزه وأسراره، وكان سيّدنا جعفر الصّادق رضي الله عنه من المثوّرين للقرآن الكريم المتأمّلين فيه، وكان يُخرِج من آياته الدّواء لكلّ داء، ويكون كما نقول: (وصفة) للمؤمن الّذي يتقلّب بين أحوال عدّة منها: الخوف ومنها النّعيم ومنها ضيق في الصّدر ومنها الغَمُّ، ومنها المكر، ومنها الكَيْد، ومنها تدبير أهل الشّرّ، وهذه كلّها أحوال تعتري الإنسان، ويحتاج فيها إلى مَنْ يسانده ويُخرجه ممّا يعانيه، فليس له حَوْل ولا قوّة، ولا يستطيع الاحتياط لهذه المسائل كلّها، فيحتاج أن يأخذ هذه القوّة من الله عز وجل، فقال الإمام جعفر الصّادق: "عجبت لمن خاف، ولم يفزع إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: من الآية ١٧٣]، فإنّي سمعت الله سبحانه وتعالى بعقبها يقول: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ [آل عمران: من الآية ١٧٤]، وعجبتُ لـمَنْ اغتمَّ، ولم يفزع إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: من الآية ٨٧]، فإنّي سمعت الله سبحانه وتعالى بعقبها يقول: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء: من الآية ٨٨]، وعجبتُ لمن مُكِرَ به، ولم يفزع إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [غافر: من الآية ٤٤]، فإنّي سمعت الله سبحانه وتعالى بعقبها يقول: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ

مَا مَكَرُواْۖ﴾ [غافر: من الآية ٤٥]، وعجبتُ لمن طلب الدّنيا وزينتها، ولم يفزع إلى قوله تعالى: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [الكهف: من الآية ٣٩]، فإنّي سمعت الله بعقبها يقول: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ [الكهف: من الآية ٤٠]"، وهكذا يجب على المؤمن أن يكون مُطْمئنّاً واثقاً من معيّة الله عز وجل، لذلك نجد أنّ الإمام جعفر الصّادق يقول هنا: سمعت الله سبحانه وتعالى، ويجب أن نقف عند هذه الكلمة، (سمعت الله)؛ أي: أنّ قارئ القرآن الكريم كأنّه يسمع من الله عز وجل مباشرة، فهذا كلام الله جل جلاله.

(الآية ٨٩) - ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾:

لقد بلغ زكريّا عليه السلام من الكبر عتيّاً، ولم يرزقه الله سبحانه وتعالى الولد، فتوجّه إلى الله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥﴾ [مريم]، فلمّا بشّره الله سبحانه وتعالى بالولد تعجّب؛ لأنّه نظر إلى مُعْطيات الأسباب، كيف يرزقه الله عز وجل الولد، وقد بلغ من الكِبَر عتيّاً وامرأته عاقر، فأراد أن يُؤكّد هذه البُشْرى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩﴾ [مريم]، يُطمئنُ الله سبحانه وتعالى نبيّه زكريّا: اطرح الأسباب الكونيّة للخَلْق؛ لأنّ الّذي يُبشّرك هو الخالق، وقد تعلّم زكريّا عليه السلام من كفالته لمريم أنّ الله سبحانه وتعالى يُعطي بالأسباب، ويعطي إن عزّتْ الأسباب، وقد تبارى أهل مريم في كفالتها، وتسابقوا في القيام بهذه الخدمة؛ لأنّهم يعلمون

شرفها ومكانتها؛ لذلك أجروا القرعة على مَنْ يكفلها، فأتوا بالأقلام ورموْها في البحر فخرج قلم زكريّا، ففاز بكفالة مريم: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾ [آل عمران]، وإجراء القرعة لأهمّيّة هذه المسألة، وعِظَم شأنها، والقرعة إجراء للمسائل على القَدَر، حتّى لا تتدخّل فيها الأهواء، فلمّا كفَل زكريّا مريم كان يُوفِّر لها ما تحتاج إليه، ويرعى شؤونها، وفي أحد الأيّام دخل عليها، فوجد عندها طعاماً لم يأْتِ به: ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ [آل عمران: من الآية ٣٧]، التقط زكريّا عليه السلام إجابة مريم الّتي جاءتْ سريعة واثقة، تدلّ على الحقّ الواضح الّذي لا يتلجلج: ﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ [آل عمران: من الآية ٣٧]، هذه مسألة يعرفها زكريّا، لكنّها لم تكُنْ في بُؤْرة شعوره، فقد ذكَّرَتْه بها مريم: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾ [آل عمران]؛ أي: ما دام الأمر كذلك، فَهَبْ لي ولداً يرثُ النّبوّة من بعدي، ثمّ يذكر حيثيّات ضَعْفه وكِبَر سِنَّه، وكوْنَ امرأته عاقراً، وهي حيثيّات المنع لا حيثيّات الإنجاب؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى يرزق مَنْ يشاء بغير حساب وبغير أسباب، وهكذا، استفاد زكريّا عليه السلام من هذه الكلمة، واستفادتْ منها مريم كذلك فيما بعد، حينما جاءها الحَمْل في المسيح من غير الأسباب الكونيّة، من غير رجل، وهنا يدعو زكريّا عليه السلام ربّه عز وجل، فيقول: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾؛ أي: لا أطلب الولد ليرث مُلْكي من بعدي، فأنت خير الوارثين ترِثُ الأرضَ والسّماء، ولك كلّ شيء.

(الآية ٩٠) - ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾: فلم تكُنْ استجابة الله ﷻ لزكريّا أنْ يهبه الولد حال كِبَره وكوْن امرأته عاقراً فقط، إنّما أيضاً سمّاه يحيى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم: من الآية ٧]، ولله ﷻ سِرٌّ في هذه التّسمية؛ لأنّ النّاس أحرار في وَضْع الأسماء للمُسمّيات كما قلنا، فلا مانع أن نسمّي فتاة زنجيّة (قمر)، ولا مانع من أن يكون اسم إنسان سعيد وهو تعيس، فنحن نُسمِّي الأسماء تفاؤلاً أن يكونوا كذلك، لكن، حين يُسمِّي المولى ﷻ: يحيى، ولم يكن أحد قد سمّى هذا الاسم، فكأنّه لن يموت، والإنسان عرضة للموت، ولكن من هو المستثنى من الموت؟ إنّه فقط الشّهيد، فعندما سمّاه يحيى فهذا يعني أنّه سيموت شهيداً، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران]، فالشّهيد تتحقّق له الحياة حتّى بعد الموت.

﴿وَوَهَبْنَا﴾: أي: أعطيناه من غير قانون التّكوين الإنسانيّ، ومن غير أسباب.

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾: فبعَد أنْ كانت عاقراً لا تلد، أجرينا لها عمليّة ربّانيّة أعادتْ لها مسألة الإنجاب؛ لأنّ المرأة تلد طالما فيها البويضات الّتي تكوِّن الجنين، فإذا ما انتهتْ هذه البويضات أصبحت عقيماً، وهذه البويضات في عنقود، ولها عدد مُحدَّد أشبه بعنقود البيض في الدّجاجة، فوُجِد

يحيى من غير الأسباب الكونيّة للميلاد؛ لأنّ المكوِّن ﷻ أراد ذلك، لكن، لماذا لم يقُلْ لزكريّا: أصلحناك؟ قال العلماء: لأنّ الرّجل صالح للإنجاب ما دام قادراً على العمليّة الجنسيّة، مهما بلغ من الكِبَر على خلاف المرأة، وأصحاب العُقْم وعدم الإنجاب نرى فيهم آيات من آيات الله ﷻ، فأحياناً نرى الزّوجين صحيحين، أجهزتُهما صالحة للإنجاب، ومع ذلك لا ينجبان، فإذا ما تزوّج كلّ منهما بزوج آخر ينجب؛ لأنّ المسألة ليست (آليّة)، بل وراء الأسباب الظّاهرة إرادة الله ﷻ ومشيئته، لذلك يقول ﷻ: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشّورى]، ثمّ تُوضِّح الآيات سبب وعِلّة إكرام الله ﷻ واستجابته لنبيّه زكريّا عليه السلام:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ﴾: هذه صفات ثلاث أهّلَتْ زكريّا وزوجته لهذا العطاء الإلهيّ، وعلينا أن نقف أمام هذه التّجربة لسيّدنا زكريّا، فهي أيضاً ليستْ خاصّة به إنّما بكلّ مؤمن يُقدِّم من نفسه هذه الصّفات، لذلك أقول لمن يُعاني من العقم وعدم الإنجاب وضاقتْ به أسباب الدّنيا، وطرق باب الأطبّاء أن يلجأ أيضاً إلى الله ﷻ بما لجأ به زكريّا عليه السلام وأهله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ خذوها (وصفة) ربّانيّة، ولن تتخلّف عنكم الاستجابة بإذن الله ﷻ، لكن، لماذا هذه الصّفة بالذّات: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾؟ قالوا: لأنّنا نلاحظ أنّ أصحاب العُقْم وعدم الإنجاب غالباً ما يكونون مُمْسِكين، فليس عندهم ما يُشجِّعهم على الإنفاق،

فيستكثرون أن يُخرجوا شيئاً لفقير؛ لأنّه ليس ولدهم، فإذا ما سارعوا إلى الإنفاق وسارعوا في الخيرات بشتّى أنواعها، فقد تحدَّوا الطّبيعة وساروا ضدّها في هذه المسألة، وربّما يميل هؤلاء الّذين ابتلاهم الله ﷻ بالعُقْم إلى الحقد على الآخرين، أو يحملون ضغينة لمن ينجب، فإذا نظروا إلى أولاد الآخرين على أنّهم أولادهم، فعطفوا عليهم وسارعوا في الخيرات، ثمّ توجَّهوا إلى الله ﷻ بالدّعاء رَغَباً ورَهَباً، فإنّ الله ﷻ وهو المكوِّن الأعلى يخرق لهم النّواميس والقوانين، ويرزقهم بإذنه ﷻ الولد من حيث لا يحتسبون.

﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾: يعني: راضين بقدرنا فيهم، راضين بالعُقْم على أنّه ابتلاء وقضاء، ولا يُرفع القضاء عن العبد حتّى يرضى به، فلا ينبغي للمؤمن أنْ يتمرَّد على قدر الله ﷻ، ومن الخشوع التّطامن لمقادير الخَلْق في النّاس.

(الآية ٩١) - ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾:

لماذا يأتي ذِكْر السّيّدة مريم ضمن مواكب النّبوّة؟ نقول: لأنّ النّبوّة اصطفاء الله ﷻ لنبيّ من بين خَلْقه ﷻ، وكوْنه يصطفي مريم من بين نساء العالمين لتلد من غير ذكورة، فهذا نوع من الاصطفاء، وهو اصطفاء خاصّ بمريم وحدها من بين نساء العالمين: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢﴾ [آل عمران]، ونلاحظ أنّ اصطفاء الله ﷻ للأنبياء يتكرَّر، ففي كلّ مرحلة نبيّ، أمّا اصطفاء مريم لهذه المسألة فلم يتكرّر في غيرها أبداً.

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾: يعني: عَفَّتْ وحفظتْ فَرْجها، فلم تمكِّن منها أحداً.

﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾: يعني: مسألة خاصّة به، خارجة على قانون الطّبيعة، فليس في الأمر ذكورة أو انتقاء، إنّما النّفخة الّتي نفخها الله عَزَّوَجَلَّ في آدم، فجاءت منها هذه الأرواح كلّها، هي الّتي نفخها في مريم، فجاءت منها روح واحدة هو المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالرّوح هي نفسها الّتي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: من الآية ٢٩].

﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾: يعني: شيئاً عجيباً في الكون، والعجيبة فيها أن تلدَ من غير ذكورة، والعجيبة فيه أن يُولَد بلا أب، فكلاهما آية لله جَلَّ جَلَالُهُ ومعجزة.

ثمّ يقول الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد سَرْد لقطات من موكب الأنبياء:

(الآية ٩٢) - ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢﴾:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾: الأمّة: الجماعة يجمعها رباط واحد من أرض أو دين أو لغة، كما جاء في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ [الزّخرف: من الآية ٢٢]، يعني: على دين، فالمراد: هذه أمّتكم أمّةٌ حال كَوْنها أمّةً واحدة، لا اختلافَ فيها والرّسل جميعاً إنّما جاؤوا ليتمّموا بناءً واحداً، كما قال ﷺ: «إنّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتاً فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ،

وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ»[1]، والمعنى أنّ به ﷺ تتمّ النّبوّة وتختم.

وتُطلَق الأمّة على الرّجل الّذي يجمع خصال الخير كلّها: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النّحل: من الآية ١٢٠]، فجمع من خصال الخير ما لا يوجد إلّا في أمّة، والله ﷻ بعثر خصال الخير في الخَلْق، فليس هناك مَنْ هو مَجْمع مواهب وفضائل، إنّما في كلٍّ منّا ميزةٌ وفضيلةٌ في جانب من الجوانب؛ ليتكامل النّاس ويحتاج بعضهم إلى بعض، ويحدث التّرابط بين عناصر المجتمع، هذا التّرابط يتمّ إمَّا بحاجات تطوُّعيّة، أو حاجات اضطراريّة، فلو تعلَّم النّاس جميعاً وتخرّجوا في الجامعة فَمنْ للمِهَن والحِرَف الأخرى؟ مَنْ سيقوم بكنس الشّوارع، وبناء الجدران، وإصلاح مجاري الصّرف الصّحّيّ؟ لا يمكن أن يكون النّاس كلّهم أطبّاء ومهندسون، أمّا المصالح العامّة فلا تقوم على التّطوّع، إنّما تقوم على الحاجة والاضطرار، ولولا هذه الحاجة لما خرجَ عامل الصّرف الصّحّيّ في الصّباح إلى هذا العمل الشّاقّ، لكنّه سُخِّر لهذا العمل، فينبغي لكلّ إنسان ألَّا يغترَّ بما عنده من مواهب ومميّزات، ولا يتعالى بها على خَلْق الله ﷿، وعليه أنْ يسأل عَمَّا عند الآخرين من مواهب يحتاجها، ولا يستطيع أن يؤدِّيها بنفسه، فالحاجة هي الرّابطة في المجتمع، ولو كانَ التّطوّع والتّفضّل فلن نحقّق شيئاً، فلو قلنا للعامل: تفضّل بكنس الشّارع لوجدَ أَلْفَ عذر يعتذر به، أمّا إنْ كان هذا عمله الّذي يقتات منه، فلا شكَّ أنّه سيُسرع ويُبادر إليه.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب المناقب، باب خاتم النّبيّين ﷺ، الحديث رقم (٣٥٣٥).

﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: أي: أنّ هناك دين من عند الله ﷻ كما قال ﷻ: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشّورى: من الآية ١٣]، فهذا هو الدّين الجامع لهذه الأمّة، إلهٌ واحد، وأمّةٌ واحدة لله ﷻ، والأمّة لا تكون واحدة، إلّا إذا صدر تكوينها المنهجيّ عن إله واحد، فلو كان تكوينها من متعدِّد لذهب كُلُّ إله بما خلق، ولَعلَا بعضهم على بعض، ولفسد الحال، كما قال ﷻ: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: من الآية ٧١]، فلا تكون الأمّة واحدة إلّا إذا استقبلت أوامرها من إله واحد وخضعت لمعبود واحد، فإنْ نسيتْ هذا الإله الواحد تضاربتْ وتشتّتتْ، وكأنّ الله ﷻ يقول: أنتم ستخضعون لتجربة من الله ﷻ هي الأمّة الواحدة الّتي تسودون بها الدّنيا، وستنطلق دعوتكم من أمّة أمّيّة لا تعرف علماً، قبليّة، لكلّ قبيلة قانونها وسيادتها وقيادتها، لتعلّم العالم الثّقافة، ولتصبح أمّة حضارة، وهذه الحضارة جاءت من لدن العلوم الّتي أنزلها الله ﷻ وحثّ عليها.

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾: أي: التزموا بمنهجي لتظلّوا أمّة واحدة، واختار صفة الرّبوبيّة، فلم يقُلْ: إلهكم؛ لأنّ الرّبّ هو الّذي خلق ورزق وربّى، أمّا الإله فهو الّذي يطلب التّكاليف، فالمعنى: ما دُمْتُ أنا ربّكم الّذي خلقكم من عَدَم، وأمدّكم من عُدْم، وأنا القيّوم على مصالحكم، أكلؤكم باللّيل والنّهار، وأرزق حتّى العاصي والكافر بي، فأنا أوْلَى بالعبادة، ولا يليق بكم إلّا أن تأخذوا بمنطق العقل السّليم، بأن تكون العبادة والطّاعة لله وحده ﷻ الّذي يملك صفات الكمال الأزليّ كلّها، قبل أنْ يخلق مَنْ يطيعه، فطاعتنا لن تزيده شيئاً

في مُلْكه، ومعصيتنا لن تنقص منه شيئاً، فالأمر راجع إلينا، وربّنا يُثيبنا على فعل هو في الحقيقة لمصلحتنا، لكن، مع الأسف النّاس لم يسمعوا هذا النّداء، ولم يعملوا بمقتضاه.

(الآية ٩٣) - ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣﴾:

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾: أي: صاروا شيعاً وأحزاباً وجماعات وطوائف، كما قال جلّ جلاله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥٩]، لماذا، لست منهم في شيء؟ لأنّهم يقضون على وحدة الأمّة، ولا يقضون على وحدة الأمّة إلّا إذا اختلفتْ، ولا تختلف الأمّة إلّا إذا تعدّدتْ مناهجها، هنا ينشأ الخلاف، أمّا إنْ صدروا جميعاً عن منهج واحد فلن يختلفوا، وما داموا قد تقطّعوا أمرهم بينهم، فقد صاروا قِطَعاً مختلفة، لكلّ قطعة منهج وقانون، ولكلّ قطعة تكاليف، ولكلّ قطعة راية، وكأنّ آلهتهم متعدّدة، فهل سيُتركون على هذا الحال، أو أنّهم سيعودون إلينا في النّهاية؟

﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾: فأنتم أمّة واحدة في الخَلْق من البداية، وأمّة واحدة في المرجع وفي النّهاية، فلماذا تختلفون في وسط الطّريق؟ فالاختلاف ناشيء من اختلاف المنهج، وقد جاء النّبيّ ﷺ خاتَماً للرّسالات، وجاءت شريعته جامعة لمزايا الشّرائع السّابقة كلّها، ومصدّقة بالشّرائع السّابقة كلّها، بل وتزيد عليها المزايا الّتي تتطلّبها العصور الّتي تلي بعثته ﷺ، فكان المفروض أن تجتمع الأمّة المؤمنة على ذلك المنهج الجامع المانع الشّامل، الّذي لا يمكن أن يُستدرك عليه، وبذلك تتحقّق وحدة الأمّة، وتصدر في تكليفاتها عن إله واحد، فلا يكون فيها مَدْخَل للأهواء ولا للسّلطات الزّمنيّة أو الأغراض الدّنيويّة،

لذلك إذا تعدّدت الجماعات الّتي تقول بالإسلام وتفرّقت مع أنّ الله ﷻ يطلب منهم أن يكونوا يداً واحدة، فالحقّ ﷻ يقول لنبيّه ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥٩]، لماذا؟ لأنّ الله ﷻ أمر بقوله ﷻ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: من الآية ١٠٣]، فالدّين يجمع ولا يُفرِّق، ولا يتفرّق الدّاعون لدعوة واحدة إلّا باتّباع الأهواء والأغراض، أمّا الدّين الحقّ فهو الّذي يأتي على هوى السّماء، موافقاً لما ارتضاه الله ﷻ لخَلْقه. وعندما انفضَّ المؤمنون عن الأمر الجامع الّذي يجمعهم بأمر الله ﷻ، انفضّت عنهم الوحدة، وتدابروا حتّى لم يَعُدْ يجمعهم حتّى قَوْلُ: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، وهذا ما نراه في الأمّة العربيّة والإسلاميّة المتشرذمة والمقطّعة، الّتي اتّبعت ما جاء به الغرب، ونقضت أوامر الله ﷻ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: من الآية ١٠٣]، والله ﷻ أمرنا أن نتمسّك بحبل الله الواحد، ولو تمسَّكنا به لَعُدْنا أمّة واحدة.

﴿إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾؛ أي: في الآخرة للحساب، على ما قدّم النّاس في هذه الحياة الدّنيا.

(الآية ٩٤) - ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ٩٤﴾:

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾: ربط العمل الصّالح بالإيمان؛ لأنّه مُنطلَق المؤمن في كُلِّ ما يأتي وما يدع؛ لينال بعمله سعادة الدّنيا وسعادة الآخرة، أمّا مَنْ يعمل الصّالح لذات الصّلاح ومن منطلق الإنسانيّة والمروءة

كما يقولون، فلا يخلو هذا كلّه عن أهواء وأغراض، ويمكن أن يأخذ نصيبه في الدّنيا، ويحظى فيها بالتّكريم والسُّمْعة، أمّا في الآخرة فلا ثواب له؛ لأنّ فَعَل الخير يجب أن يعمله الإنسان وفي باله الله جل جلاله، لا رياء ولا سمعة، والحقّ سبحانه وتعالى يعطينا مثالاً لذلك في قوله جل جلاله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النّور]؛ أي: فوجئ بوجود إله يحاسبه ويجازيه، وهذه مسألة لم تكُنْ على باله، فيقول له: عملتَ ليقال، وقد قيل، وانتهت المسألة؛ لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ﴾ [الشّورى: من الآية ٢٠]؛ أي: نعطيه أجره في عالم آخر لا نهاية له، ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشّورى: من الآية ٢٠]؛ لأنّه عَمِلَ للنّاس، فليأخذ أجره منهم.

﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾: يعني: لا نبخسه حقَّه، ولا نجحد سَعْيه أبداً.

﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾: نسجِّل له أعماله، ونحفظها، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار].

(الآية ٩٥) - ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

﴿وَحَرَامٌ﴾: يعني: ممتنع: لا يجب أن يكون.

﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾: أيّ قرية أهلكناها؛ لأنّها كذَّبَتْ الرّسل، ووقفتْ منهم موقف العناد والمعارضة، فأهلكها الله عز وجل بذنوبها في الدّنيا، أيُعقَلُ بعد هذا أن نتركها في الآخرة من غير أنْ نأخذها بذنوبها؟ فلا بُدَّ أن ترجع إلينا في الآخرة لنحاسبها الحساب الدّائم الخالد، فلا نكتفي بحساب الدّنيا المنتهي.

(الآية ٩٦) - ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦﴾:

وردتْ قصّة يأجوج ومأجوج في آخر سورة الكهف، حينما سُئِلَ النّبيّ ﷺ عن الرّجل الجوّال الّذي طاف الأرض، فنزلت: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ٨٣﴾ [الكهف]، وقد تكلّم العلماء في ذي القرنين، منهم مَنْ قال: هو قورش، ومنهم مَنْ قال: هو الإسكندر الأكبر، والقرآن الكريم لا يعنيه الشّخص وإلّا لَذكره باسمه، فالقرآن الكريم لا يُؤرّخ له، إنّما يريد التّركيز على الأوصاف الّتي تعني الحقّ وتعني الخَلْق، فيكفي أن نعلم أنّه إنسان مكَّنَه الله ﷻ في الأرض؛ يعني: أعطاه من أسباب القوّة وأسباب المهابة والسّيطرة والمال، وأعطاه من المُقوّمات كُلِّها: المال والعلم والجيوش، فلم يكتف بما أعطاه الله ﷻ، بل: ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٥﴾ [الكهف]، يعني: أخذ بالأسباب الّتي تؤدّي إلى الخير. وسبق أنْ تحدّثنا عن تشخيص الأبطال في القصص القرآنيّ، وقلنا: إنّ القرآن الكريم لا يُؤرّخ للشّخصيّة، ولا يُعطي لها خصوصيّة، وإنّما يريدها عامّة لتكون مثلاً يُحتذَى به، ويتمّ الاعتبار بها، وتُحدِث الأثر المراد من القصّة، فما يعنينا في قصّة ذي القرنين أنّه رجل مُكّن في الأرض، وكان من صفاته كذا وكذا، وما يعنينا من أهل الكهف -مثلاً- أنّهم فتية آمنوا بربّهم، وتمسَّكوا بدينهم وعقيدتهم، وضَحَّوْا في سبيلها، لا يهمّنا الأشخاص ولا الزّمان ولا المكان ولا العدد؛ لذلك أبهم القرآن الكريم هذه المسائل كلّها، كذلك لمّا أراد القرآن الكريم أنْ يضرب مثلاً للّذين كفروا ذكر امرأة نوح وامرأة لوط، ولم

يُعيِّنهما، وكذلك ضرب مثلاً للّذين آمنوا بامرأة فرعون، ولم يذكر مَنْ هي، فالغرض من ضَرْب هذه الأمثال ليس الأشخاص، إنّما لنعلم أنّ للمرأة حرّيّةَ العقيدة واستقلاليّةَ الرّأي، فليست هي تابعة لأحد، بدليل أنّ نوحاً ولوطاً لم يتمكَّن كلّ منهما من هداية امرأته، وفرعون الّذى ادَّعَى الألوهيّة، وكان أكبر جبّار في الأرض، لم يستطع أن يمنع زوجته من الإيمان، وهي قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١﴾ [التّحريم: من الآية ١١].

فما يعنينا في قصّة (ذي القرنين) أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مكَّن له في الأرض وأعطاه كُلَّ أسباب القوّة والسّيطرة؛ لذلك ائتمنه أنْ يكونَ ميزاناً للخير وللحقّ، وفوَّضَهُ أن يقضي في الخَلْق بما يراه من الحقّ والعدل، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٦﴾ [الكهف: من الآية ٨٦]؛ لأنّنا مكَّنّاه وفوَّضناه، فاستعمل التّمكين في موضعه، وأخذ الأمانة بحقِّها، فقال: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨٧﴾ [الكهف: من الآية ٨٧]؛ أي: نُعذِّبه على قَدْر مقدرتنا، ثمّ يُرَدُّ إلى ربّه فيُعذِّبه على قَدْر قدرته جَلَّ جَلَالُهُ، ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾ [الكهف]، وهكذا يكون دستور الحياة، دستور الثّواب والعقاب الّذي تستقيم به أمور العباد، يتابع المولى عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠﴾ [الكهف]، هذا كُلُّ ما أخْبَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به عن ذي القرنين، ويبدو أنّه وصل في تجواله العامّ إلى بلاد تظلّ الشّمس بها مشرقة ثلاثة أو ستّةَ أشهر لا تغرب؛ لذلك لم يجد لهم من دون

الشّمس ستْراً يسترها؛ أيْ: ظلمة، ويتابع المولى ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣﴾ [الكهف]، ومع ذلك احتال ذو القرنين أن يفهم منهم ويخاطبهم؛ لحرصه على نفعهم وما يصلحهم، ولو لم يكُنْ حريصاً على نفعهم لوجد العذر في كونه لا يفهم منهم ولا يفهمون منه، فلمّا توصّلوا إلى لغة مشتركة، ربّما هي لغة الإشارة: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤﴾ [الكهف]، ثمّ أمرهم أن يأتوا بقطَع الحديد، فأشعل فيها النّار حتّى احمرَّت، فقال: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦﴾ [الكهف: من الآية ٩٦]، وهكذا صنع لهم السّدَّ الّذي يحميهم من هؤلاء القوم، فلم يَقصُر نفعه لهم على هذه القضيّة ذاتها، إنّما نفعهم نَفْعاً يعطيهم الخير والقوّة في ألَّا يتعرّضوا لمثلها بعد ذلك، لذلك هو أشـركهم في العمل؛ ليشعروا بأهمّيّته ويتمسّكوا بالمحافظة عليه وصيانته، وهذا النّموذج الّذي تُقدِّمه قصّة ذي القرنين، هو نموذج صالح لكلّ زمان ومكان. وقد تضاربتْ الأقوال حول: مَنْ هم يأجوج ومأجوج، فمِنْ قائل: هم التّتار، وآخر قال: المغول..، ولو كان في تحديدهم فائدة لعيَّنهم القرآن الكريم، إنّما المهمّ من قصّتهم أنّهم قوْمٌ مفسدون في الأرض لا يتركون الصّالح على صلاحه، وفي بناء السّدّ دروس، منها أنّ ذي القرنين لم يقف عند طلبهم في بناء سدٍّ يمنع عنهم أذى عدوّهم يأجوج ومأجوج، إنّما اجتهد وترقّى بالمسألة إلى ما هو أفضل لهم، فالسّدُّ الأصمّ المتماسك كقطعة واحدة يسهل هَدْمه أو النّفاذ منه؛ لذلك قال: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥﴾ [الكهف: من الآية ٩٥]، لقد طلبوا سدّاً، وهو يقول: رَدْماً، لقد رقّى لهم الفكرة، وأراد أن يصنع لهم سدّاً على هيئة

خاصّة تمتصّ الصّدمات، ولا تؤثِّر في بنائه؛ لأنّه جعل بين الجانبين رَدْماً يُعطِي السّدّ نوعاً من المرونة، ولـمّا عرضوا عليه المال نظير عمله أبى، وقال: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: من الآية ٩٥]؛ أي: عندي المال الكثير من عطاء الله ﷻ لكن أعينوني بما لديكم من قوّة.

نعود إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾: فلها علاقة بقوله جلّ وعلا: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الأنبياء: من الآية ٩٣]، فتقطّع أهل الخير وتفرُّقهم يُجرِّئ عليهم أصحاب الفساد، وأقلّ ما يقولونه في حقِّهم: إنّهم لو كانوا على خير لنفعوا أنفسهم، فدعُوكم من كلامهم، وهكذا يفُتُّ أهل الباطل في عَضُدِ أهل الحقّ، ويصرفون النّاس عنهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾: يعني: جاءت عناصر الفساد والفتنة في الكون، وعناصر الفساد والفتنة لا تتمكّن ولا تجد الفرصة إلّا إذا غفل أهل الحقّ وتفرّقوا فلم يردّوهم، ويأخذوا على أيديهم، ويأجوج ومأجوج هم أهل الفساد في كلّ زمان ومكان.

﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾: الحدب: المكان المرتفع، نقول: فلان أحدب الظّهر يعني: في ظهره منطقة مرتفعة، وهؤلاء المفسدون أتوْا من أماكن مرتفعة من هضبة -كما قالوا- شمال الصّين.

﴿يَنسِلُونَ﴾: يعني: يسرعون، ومنه نقول: انسلَّ القماش؛ لأنّ القماش مُكوَّن من خيوط طوليّة وخيوط عرضيّة، تتداخل فتكوِّن القماش، فنسل القماش أن تنزع خيوط العرض وتفكّ تداخلها مع خيوط الطّول.

(الآية ٩٧) - ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾:

فأهل الفساد يأتون مُسْرِعين من كلّ حَدب وصَوْب إلّا أنّ فسادهم لن يطول، فقد اقتربت القيامة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١﴾ [القمر]، وقال جل جلاله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: من الآية ١]، وهذا تنبيه للغافل، وتحذير للباغي من أهل الفساد، وتطمين ورجاء للمظلومين المستضعفين المعتدَى عليهم: اطمئنوا فقد قرب وقت الجزاء.

﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾: الحقّ؛ أي: الصّادق الّذي يملك صاحبه أن يُنفّذه، فقد تَعِد وعداً ولا تملك تنفيذه فهو وَعْد، لكنّه وَعْد باطل، أمّا الوعد الحقّ فهو من الله سبحانه وتعالى، وحين يقول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾: فتنبّه، ولا تَقِسْ الدّنيا بعمرها الأساسيّ، إنّما قِسْ الدّنيا بعمرك فيها، فإذا مات الإنسان، فقد قامت قيامته، واقترب الوعد الحقّ بالنّسبة إليه، وكذلك مدّة مُكْث الإنسان في قبره إلى أن تقوم السّاعة ستمرّ عليه كساعة من نهار، كما قال جل جلاله: ﴿كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس: من الآية ٤٥]، ولو تنبّه كلّ مِنّا إلى إخفاء الله سبحانه وتعالى لأجله، لعلم أنّ في هذا الإخفاء أعظم البيان، فحين أخفاه ترقّبناه في كلّ طَرْفة عَيْن، وتنفُّس نَفَسٍ.

﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: وَعْد الله سبحانه وتعالى هنا هو القيامة، وهي تفاجئنا وتأتينا بغتة؛ لذلك نقول في: ﴿فَإِذَا﴾ أنّها الفجائيّة، كما تقول: خرجتُ فإذا كلبٌ بالباب، يعني: فوجئت به، وهكذا ساعةَ تقوم السّاعة

سوف تُفَاجِئ الجميع، لا يدري أحد ماذا يفعل؛ لذلك يقول جلّ جلاله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وشخوص البصر يأتي حين ترى شيئاً لا تتوقّعه، ولم تحسب حسابه، فتنظر مُنْدهِشاً يجمد جفنُك الأعلى الّذي يتحرّك على العين، فلا تستطيع حتّى أنْ ترمش أو تطرف، وفي آية أخرى يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: من الآية ٤٢]، وإذا أردتَ أن ترى شُخوص البصر فانظر إلى شخص يُفَاجأ بشيء لم يكُنْ في باله، فتراه -بلا شعور- شاخصَ البصر. ثمّ يقولون:

﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾: فلم يقتصر الموقف على شخوص البصر، إنّما تتحرّك أيضاً أدوات الإدراك، فيقول اللّسان: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وهذا نداء للويل؛ أي: جاء وقتُك، فلم يَعُدْ أمامهم إلّا أنْ يقولوا: يا عذاب هذا أوانك فاحضر، والويل: هو الهلاك السّريع ينادونه، فهل يطلب الإنسان الهلاكَ، ويدعو به لنفسه؟ نقول: نعم، حين يفعل الإنسان الفعلَ ويجد عواقبه السّيّئة، وتواجهه الحقيقة المرّة يقول: يا ويلتاه؛ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزّخرف]، فيُؤنِّب الإنسان نفسه، ويطلب لها العذاب، فهذه هي الموازين الحقيقيّة الّتي تقاس بها الأمور.

﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾: لم يكن هذا الموقف في بالنا، ولم نعمل له حساباً، والغفلة: أنْ تدرأ عن بالك ما يجب أن يكون على بالك دائماً، لكن أيّ غفلة هذه والله عزّ وجلّ يُذكِّرنا بهذا الموقف في كلّ وقت من ليل أو نهار، ألَا نرى أنّه سبحانه وتعالى سَمّى القرآن الكريم ذِكْراً: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: من الآية ٩]؛ ليزيح عنّا هذه الغفلة، فكلّما غفلنا ذكّرنا، وهزَّ مواجيدنا، وأثار عواطفنا،

فالمسألة ليست غفلة؛ لذلك نراهم يستدركون على كلامهم، فيقولون:

﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾: لأنّهم تذكَّروا أنّ الله ﷻ هَزَّ عواطفهم، وحرَّك مواجيدهم ناحية الإيمان، فلم يستجيبوا، فاعترفوا بظلمهم، ولم يستطيعوا إنكاره في مثل هذا الموقف، فلم يعُدْ الكذب مُجْدِياً، ولعلّهم يلتمسون بصدقهم هذا نوعاً من الرّحمة، ويظنّون أنّه نافعهم، لكن هيهات، وكأنّ الحقّ ﷻ يحكي عنهم هذه المواجهة حين تفاجئهم القيامة بأهوالها، فتشخص لها الأبصار، ويقول بعضهم: ﴿يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾، فيردّ عليهم إخوانهم: أيّ غفلة هذه، وقد كان الله ﷻ يُذكِّرنا بالقيامة وبهذا الموقف في كلّ وقت.

﴿بَلۡ﴾: حرف إضراب عن الكلام السّابق، وإثبات للكلام اللّاحق، وهكذا يُراجِعون أنفسهم، ويُواجِه بعضهم بعضاً، لكن بعد فوات الأوان.

وقد قلنا: بأنّ القرآن الكريم يُذكِّر، والسّنّة النّبويّة تذكّر دائماً، فلماذا هناك كثير من الآيات في القرآن الكريم تتعلّق بالموت؟ كقوله ﷻ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ [الزّمر]، وقوله ﷻ: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران]، وقوله ﷻ: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٨﴾ [الرّحمن]، لماذا قدّم الموت على الحياة عندما قال ﷻ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ [الملك]، أراد الله ﷻ ألّا تغيب فكرة الموت عن أذهان النّاس؛ لأنّ الموت هو بداية وضع القدم على طريق الحساب، وعلى طريق اليوم الآخر، وقد يُنكر بعض النّاس الغيبيّات،

فينكرون الآخرة وحياة البرزخ...، لكن هل يستطيع أحد أن يُنكر الموت؟ هل يستطيع أحد أن يدفع الموت عنه لحظة واحدة؟ قال ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٤٩﴾ [يونس: من الآية ٤٩]، فلا يستطيع أيّ إنسان أن يدفع عن نفسه الموت، بعضهم يقول: هذه هي الحياة، نناقش الآن عقليّاً، وليس فيما يتعلّق بالإيمان -الّذي نؤمن به قطعاً كرأي العين- هل يصحّ بالعقل الذّي وهبه الله ﷻ للإنسان أن يعيش الإنسان في هذه الحياة بلا هدف، رحلة وتنتهي، هذا تنتهي رحلته طفلاً، وهذا كهلاً، وهذا أكل أموال النّاس، وهذا ظلمهم، وهذا كان خيّراً معهم.. وبهذا تساوى الجميع بالموت؟! وانتهت الحياة؟! فمهما طالت: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾ [النّازعات: من الآية ٤٦]، منظر الموت ماثل لكلّ إنسان، مؤمن أو ملحد، من الأديان كلّها، ومن الفئات كلّها، ومن النّاس كلّهم، ما استطاع أحدٌ أبداً أن يردّ الموت، فهل يُعقل أن تنتهي القصّة هكذا؟! ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾ [المؤمنون]، تعالى الله ﷻ عن العبث، فالموت آت:

نسير إلى الآجال في كلّ لحظةٍ وأعمارنا تُطوى وهنّ مراحلُ

هذه حقيقة، لذلك سيّدنا عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول: "عجبت كيف يفرح بالدّنيا مَن يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره، كيف يفرح بالدّنيا مَن تقوده حياته إلى موته ويقوده عمره إلى أجلهَ؟"، فعلى أيّ أساس وأيّ منطق يعتقد بعضهم أنّ النّهاية هنا في الموت؟ إنّ البداية ستكون في الموت؛ لأنّها وضعت الموازين، قال ﷻ: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ

﴿ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء]، فالإنسان سيُحَاسب، وعندما يكون في قبره -ولو بلا زمن- يكون القبر: «رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ»(١)، فيكون الإنسان قد وضع قدمه على بداية طريق اليوم الآخر، لذلك نجد أنّ الله سبحانه وتعالى في كثير من الآيات القرآنيّة يتحدّث عن الإيمان بالله وباليوم الآخر، وهناك أناس يقولون: نحن نؤمن بالله عزّ وجلّ، الله سبحانه وتعالى محبّة ورحمة...، هذا كلام صحيح، لكنّ الله سبحانه وتعالى شديد العقاب أيضاً، وما خلقنا عبثاً، ومن غير المعقول أن يكون الخيّر والشّرير معاً، ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾﴾ [فاطر]، فالله سبحانه وتعالى خلقنا للاختبار في هذه الحياة الدّنيا، ولا شكّ بأنّ يوم الحساب قادم، وقد ذكره القرآن الكريم: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [آل عمران: من الآية ١١٤]، واليوم الآخر هو شرط وأساس فيما يتعلّق بالإيمان، حتّى تستقيم هذه الحياة، ولن تستقيم الحياة إلّا إذا علم الإنسان بأنّه محاسَب ومُجازى على كلّ ما يقوم به من عمل أو فعل في هذه الحياة الدّنيا، وهناك مَن يقول: إنّ هناك من يفعل الخير من غير إيمان، هؤلاء الّذين تتحدّثون عنهم بأنّهم يفعلون الخير، لو تعرّضوا لمصاب أو ضائقة هل يفعلون الخير؟ الخير والإيمان والاستقامة والأخلاق مربوطة ربطاً وثيقاً بالدّين، فكما قال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ مِنَ الإِيمَانِ حُسْنُ الخُلُقِ، وَأَفْضَلُكُمْ إِيمَاناً أَحْسَنُكُمْ خُلُقاً»(٢)، والأخلاق إنّما

---

(١) سنن التّرمذيّ: أبواب صفة القيامة والرّقائق والورع، باب ٢٦، الحديث رقم (٢٤٦٠).

(٢) المعجم الكبير: باب الصّاد، صدي بن العجلان أبو أمامة الباهليّ، الحديث رقم (٧٧٥٦).

ضامنها وأساسها هو الدّين، وهو الخوف من الله ﷻ، و: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»(١)، ونحن عندما نقول للنّاس: آمنوا بالله ﷻ، واعملوا صالحاً، فبماذا يأمر الدّين؟ لا يرون من الدّين إلّا الصّلاة والصّوم..، ولا يرون من الدّين قوله ﷻ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النّحل]، ولا يرون من الدّين قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ [الحجرات: من الآية ١٢]، ولا يرون من الدّين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ [فصّلت]، فالدّين ليس قوالب جامدة، وإنّما قيم ضابطة، تضبط المجتمعات وتضبط البشريّة وتضبط الإنسانيّة، وما جاءت إلّا لإسعاد النّاس، وسعادة البشر إنّما تتمّ عن طريق الرّسالات السّماويّة، وها هو السّيّد المسيح عليه السلام يقول: ماذا ينفع الإنسان إذا ربح الدّنيا وخسر الآخرة؟ فالأساس بالنّسبة إلى الإنسان ولعمله أن ينظر بمنظار الثّواب والعقاب الّذي ينتظره من جرّاء عمله، وهذا هو معنى هذه الآيات الكريمة، والله أعلم.

(الآية ٩٨) - ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨﴾:

فالّذين اتّخذتموهم آلهة من دون الله ﷻ من الأصنام والأوثان والشّمس

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب ٣٦، الحديث رقم (٥٠).

والقمر والأشجار سيسبقونكم إلى جهنّم، ولا يوجد لديكم أيّ أمل في النّجاة؛ لأنّهم حين يروْنَ العذاب ربّما تذكّروا هؤلاء، وفكّروا في اللّجوء إليهم والاستنجاد بهم؛ أي: الآلهة السّابقة، كما كانوا يقولون عنهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: من الآية ١٨]، وكانوا يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزّمر: من الآية ٣]، لذلك، يجمعهم الله جَلَّ جَلَالُهُ جميعاً في جهنّم ليقطع عنهم الآمال، ويبدو خجل المعبود وخيبة العابد.

﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾: الحصب: مثل: الحطب، وهو كلّ ما تُوقَد به النّار أيّاً كان خشباً أو قَشّاً أو بترولاً أو كهرباء، وفي آيةٍ أخرى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التّحريم: من الآية ٦]، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ٣٠﴾ [ق]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ [الملك: الآية ٧ – من الآية ٨].

﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾: الورود هنا بمعنى: الدّخول والمباشرة، لا كالورود في الآية الأخرى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم: من الآية ٧١]، فهنا الوضع مختلف، فهنا دخول مباشر إلى جهنّم.

(الآية ٩٩) - ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٩٩﴾:

﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾: فهم سيدخلون فيجدون آلهتهم أمامهم، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في شأن فرعون: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ [هود: من الآية ٩٨]، فهو قد سبقهم إلى النّار، ولو كان هؤلاء آلهة –كما تدّعون– ما وردوا النّار.

﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: لأنّ المعروف عن النّار أنّها تأكل ما فيها، ثمّ تنتهي، أمّا هذه النّار فلا نهايةَ لها، فكلّما نضجَتْ جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها، وهكذا تظلّ النّار مُتوقِّدة لا تنطفئ.

﴿وَكُلٌّ﴾: أي: العابد والمعبود.

(الآية ١٠٠) - ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠﴾:

﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ﴾: معلوم أنّ الزّفير هو الخارج من عمليّة التّنفّس، فالإنسان يأخذ في الشّهيق الأكسجين، ويُخرِج في الزّفير ثاني أكسيد الكربون، فنلحظ أنّ التّعبير هنا اقتصر على الزّفير دون الشّهيق؛ لأنّ الزّفير هو الهواء السّاخن الخارج.

﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ﴾: وهذه من الآيات الّتي توقّف عندها المستشرقون؛ لأنّ هناك آياتٍ أخرى تُثبت لهم في النّار سَمْعاً وكلاماً، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [الأعراف]، نعم، هم يسمعون، لكن لا يسمعون كلاماً يَسُرُّ، إنّما يسمعون تبكيتاً وتأنيباً، كما في قوله جلّ جلاله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾ [الأعراف].

(الآية ١٠١) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾:

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى جزاء الكافرين في النّار ذكر المقابل، وذِكْر المقابل

يوضِّح المعنى، نقرأ قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤﴾ [الانفطار]، ويقول: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ [التّوبة: من الآية ٨٢]، لذلك تظلّ المقارنة حيَّة في الذِّهْن.

﴿سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾: الحُسْنى: مؤنّث الأحسن، تقول: هذا حَسَن، وهذه حسنة، فإنْ أردتَ المبالغة تقول: هذا أحسن، وهذه حُسْنى، مثل: أكبر وكُبْرى، ومعنى: ﴿سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ أنّهم من أهل الطّاعة، ومن أهل الجنّة، هكذا حُكْم الله ﷻ لهم، فالله ﷻ علم مسبقاً من اختيارهم ماذا سيختارون، أمّا هم فسيحاسبون على اختيارهم، وليس على علم الله ﷻ المسبق، فـ ﴿سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾؛ أي: علم الله ﷻ منهم الحسنى، فالله ﷻ علم ما سيقومون به.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾: أي: مبعدون عن النّار.

(الآية ١٠٢) - ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢﴾:

﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾: حسيس النّار: أزيزها، وما ينبعث منها من أصوات أوّل ما تشتعل.

﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾: فلم يقُلْ مثلاً: (وهم بما اشتهتْ أنفسهم)، إنّما: ﴿فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾، كأنّهم غارقون في النّعيم ممّا اشتهتْ أنفسهم، كأنّ شهوات أنفسهم ظرف يحتويهم ويشملهم، وهذا يُشوِّق أهل الخير والصّلاح للجنّة ونعيمها حتّى يعملوا لها، ويُعِدّوا العُدَّة لهذا النّعيم.

وسبق أن قلنا: إنّ الإنسان يتعب في أوّل حياته، ويتعلّم صنعة، أو يأخذ شهادة لينتفع بها فيما بعد ويرتاح في مستقبل حياته، وعلى قَدْر التّعب والجهد تكون الرّاحة، فكلّ ثمرة لا بُدَّ لها من حَرْث ومجهود، والله عَزَّ وَجَلَّ لا يُضيع أجرَ مَنْ أحسن عملاً.

(الآية ١٠٣) - ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾:

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾: ذلك لأنّهم في نعيم دائم لا ينقطع، وعطاء غير مجذوذ، لا يفوتهم بالفقر ولا يفوتونه بالموت؛ لذلك: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾، وأيُّ فزع مع هذه النّعمة الباقية؟ أو بمعنى: لا يحزنهم فزع القيامة وأهوالها.

﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾: فقد صَدَقكم الله جَلَّ جَلَالُهُ وَعْده، وأنجزَ لكم ما وعدكم به من نعيم الآخرة.

(الآية ١٠٤) - ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾:

أي: ما يحدث من عذاب للمشركين وتنعيم المؤمنين سيكون ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾.

﴿يَوْمَ﴾: زمن وظَرْف للأحداث، فكأنّ ما يحدث للكافرين من العذاب والتّنكيل، وما يحدث للمؤمنين من الخلود في النّعيم يتمّ في هذا اليوم.

﴿ٱلسِّجِلِّ﴾: هو القرطاس، والورق الّذي نكتب فيه يُسمَّى سجلاً؛

ولذلك يقول النّاس: نسجّل كذا؛ أي: نكتبه في ورقة حتّى يكون محفوظاً، والكتاب: هو المكتوب. والحقّ ﷻ يقول في آية أخرى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦٓۚ﴾ [الزّمر: من الآية ٦٧]، يطويها بقدرته؛ لأنّ اليمين عندنا هي الفاعلة في الأشياء، ولكن لا نأخذ الطّيّ أنّه الطّيّ المعروف، بل نأخذه في إطار: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ﴾ [الشّورى: من الآية ١١].

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ﴾: يدلّنا على أنّ الحقّ ﷻ يتكلّم عن الخَلْق الأوّل.

﴿نُّعِيدُهُۥۚ﴾: تدلّ على وجود خَلْق ثان، فقوله ﷻ في موضع آخر: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨﴾ [إبراهيم]، دليل على أنّ الخَلْق الأوّل خَلْق فيه الأسباب وفيه المسبّب، فالحقّ ﷻ أعطانا في الدّنيا مُقوِّمات الحياة من: الشّمس والقمر والمطر والأرض والماء ... إلخ، وهذه أمور لا دَخْل لنا فيها، وعلينا فقط أنْ نستخدمَ العقول الّتي خلقها الله ﷻ فينا للتّرقّي بهذه الأشياء، أمّا في الخلق الثّاني فأنت فقط تستقبل النّعيم من الله ﷻ من غير أَخْذ بالأسباب الّتي تعرفها في الدّنيا الّتي مرّت؛ لأنّ الآخرة لا تقوم بالأسباب إنّما بالمسبِّب ﷻ، وحين نرى في الجنّة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر نعلم أنّ فِعْل الله ﷻ لنا أعظم ممّا فعلناه لأنفسنا في الحياة الدّنيا، ومهما ارتقتْ أسباب التّرف في الدّنيا، ومهما تفنَّن الخَلْق في أسباب الرّاحة والخدمة الرّاقية، فقصارى ما عندهم أن تضغط على زِرٍّ يفتح لك الباب، أو يُحضِر لك الطّعام أو القهوة، لكن مهما تقدّم العلم لا يمكن أن يُقدّم للإنسان ما يخطر بباله من طعام أو شراب بمجرّد الخاطر، فيراه أمامه دون أنْ يتكلّم، أو دون أن يمسّ أيّ زر.

﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾: فالمعنى ليستْ مجرّد إعادته كما كان، إنّما نعيده على أَرْقى وأفضل ممّا كان، بحيث يصل بنا النّعيم أنْ يَخطرَ الشّيء ببالنا فنجده بين أيدينا، بل إنَّ المؤمن في الجنّة يتناول الصّنف من الفاكهة فيقول: لقد أكلْتُ مثل هذا من قبل، فيُقال له: ليس كذلك بل هو أفضل ممّا أكلْتَ، وأهنأ ممّا تذوّقتَ، فاختلفت المعايير بشكلٍ كامل. وكأنّ الحقّ سبحانه وتعالى يلفت عباده إلى أنّ عنايته بهم أفضل من عنايتهم بأنفسهم؛ لأنّه سبحانه وتعالى أوْلَى بنا من أنفسنا.

﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾: أي: لا يُخرِجنا شيء عمّا وعدنا به، ولا يستطيع أحد أن يخالفنا أبداً، فطالما وعدنا فإنّ الفعل قد حدث، فالفعل مرهون بالوعد، ولا يمكن أن ينفكّ الفعل عن الوعد.

(الآية ١٠٥) - ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾:

﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا﴾: الكَتْب: التّسجيل، لكنّ علم المولى سبحانه وتعالى أزليٌّ لا يحتاج إلى تسجيل، إنّما التّسجيل من أجلنا نحن حتّى نطمئنّ، كما لو أخذتَ من صاحبك قَرْضاً وبينكما ثقة، ويأمن بعضكم بعضاً، لكن مع هذا نكتب القَرْض ونُسجِّله حتّى تطمئنّ النّفس.

﴿فِي ٱلزَّبُورِ﴾: الزّبور: الكتاب الّذي أُنزِل على نبيّ الله داود عليه السلام، ومعنى الزّبور: الشّيء المكتوب، فإنْ أطلقتَها على عمومها تُطلَق على كلّ كتاب أنزله الله عز وجل.

﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾: الذِّكْر: يُطلَق مرّة على القرآن الكريم، ومرّة على

الكتب السّابقة، وما دام الزَّبور يُطلَق على كلّ كتاب أنزله الله ﷻ، فلا بُدَّ أنّ للذِّكر معنى أوسع؛ لذلك يُطلَق الذِّكر على اللّوح المحفوظ؛ لأنّه ذكْر الذِّكْر، وفيه كلّ شيء.

﴿كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾: أي: في الكتب الّتي أُنزلَتْ على الأنبياء ما كتبناه في اللّوح المحفوظ، أو ما كتبناه في الزّبور، الّذي أعطاه الله ﷻ لداود عليه السلام.

﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾: هذه تدلّ على أنّ واحداً أسبق من الآخر، نقول: القرآن الكريم هو كلام الله ﷻ القديم، ليس في الكتب السّماويّة أقدم منه، والمراد هنا: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ بعديّة ذِكْريّة، لا بعديّة زمنيّة. فما الّذي كتبه الله ﷻ لداود عليه السلام في الزّبور؟ كتب له:

﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾: كلمة الأرض إذا أُطلقَتْ عموماً يُراد بها الكرة الأرضيّة كلّها، وقد تُقيَّد بوصف معين، كما في: ﴿ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: من الآية ٢١]، وفي: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [يوسف: من الاية ٨٠]؛ أي: الّتي كان بها، وهنا يقول ﷻ: ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ أي: الأرض عموماً.

﴿يَرِثُهَا﴾: أي: تكون حقّاً رسميّاً لعبادي الصّالحين.

فأيُّ أرض هذه؟ أهي الأرض الّتي نحن عليها الآن؟ أم الأرض المبدلة؟ ما دُمْنَا نتكلّم عن بَدْء الخَلْق وإعادته، فيكون المراد الأرض المبدلَة المعادة في الآخرة، الّتي يرثها عباد الله الصّالحون، والإرْث هنا كما في قوله ﷻ: ﴿تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأعراف: من الآية ٤٣]، فعن مَنْ ورثوا هذه الأرض؟ الحقّ ﷻ حينما خلق الخَلْق أعدَّ الجنّة لِتسعَ بني آدم كلّهم إنْ آمنوا، وأعدَّ النّار لتسع بني آدم كُلّهم إنْ كفروا، فليس في المسألة زحام على أيّ

حال، فإذا ما دخل أهلُ الجنّةِ الجنّةَ، ودخل أهلُ النّارِ النّارَ ظلَّتْ أماكن أهل النّار في الجنّة خالية فيُورثها الله ﷻ لأهل الجنّة ويُقسِّمها بينهم، ويُفسح لهم أماكنهم الّتي حُرِم منها أهل الكفر.

أو نقول: الأرض يُراد بها أرض الدّنيا، ويكون المعنى أنّ الله سبحانه وتعالى يُمكِّن الصّالح من الأرض، الصّالح الّذي يَعْمُرها ولو كان كافراً؛ لأنّ الله جل جلاله لا يحرم الإنسان ثمار عمله، حتّى وإنْ كان كافراً، يقول سبحانه وتعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾ [الشّورى]، لكن عمارة الكفّار للأرض وتمكينهم للحضارة سَرْعان ما تُنزِل بهم النّكبات، وتنقلب عليهم حضارتهم، وها نحن نرى نكبات الأمم وما تعانيه من أمراض اجتماعيّة مستعصية، فليست عمارة الأرض اقتصاداً وطعاماً وشراباً وترفاً فقط، فهناك أخلاق واجتماعيّات، ففي السّويد -مثلاً- وهي من أعلى دول العالم دَخْلاً ومع ذلك فيها أعلى نسبة انتحار، وأعلى نسبة شذوذ، وهذه هي المعيشة الضَّنْك الّتي تحدَّث عنها القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه]، فالضَّنْك لا يعني فقط الفقر والحاجة، إنّما له صور أخرى كثيرة، الأب والأمّ لا يريان أولادهما، الأمّ والأب في دار العجزة، لا حياة اجتماعيّة، لا طهارة، لا تواصل بين الأسر، لا زواج على أسس متينة، حتّى ظهر فيهم الشّذوذ والمثليّة، فلا تَقِسْ مستوى التّحضُّر بالمادّيّات فحسب، إنّما يجب أن تقيس أيضاً النّواحي الأخرى، فمَنْ أتقن النّواحي المادّيّة الدّنيويّة أخذها وترف بها في الدّينا، أمّا الصّلاح الدّينيّ والخُلقيّ والقِيَميّ فهو سبيل لترف الدّنيا ونعيم الآخرة.

وهكذا تشمل الآية: ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ الصّلاح المادّيّ الدّنيويّ، والصّلاح المعنويّ الأخرويّ، فإنْ أخذنا الصّلاح مُطلقاً بلا إيمان، فإنّنا سنجد ثمرته إلى حين، ثمّ ينقلب علينا، فأين أصحاب الحضارات القديمة من عاد وثمود والفراعنة؟ إنّ هذه الحضارات كُلَّها مع ما وصلتْ إليه ما أمكنها أن تحتفظ لنفسها بالدّوام، فزالتْ وبادتْ، يقول سُبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر]، إنّها حضارات راقية دُفِنَتْ تحت أطباق التّراب، لا نعرف حتّى أماكنها، أمّا إنْ أخذنا الصّلاح المعنويّ، الصّلاح المنهجيّ من الله عزّ وجلّ فسوف يحوز به الإنسان الدّنيا والآخرة؛ ذلك لأنّ حركة الحياة تحتاج إلى منهج يُنظِّمها: افعل كذا ولا تفعل كذا، هذا حلال وهذا حرام، وهذا لا يقوم إلّا بمنهج الله سُبحانه وتعالى وحده.

(الآية ١٠٦) - ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ۝١٠٦﴾:

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا﴾: البلاغ: رسالة عامّة للنّاس جميعاً، وعندما يقول المولى سُبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ وكأنّ المبلَّغ عن المبلِّغ سُبحانه وتعالى يجب أن يكون عابداً حتّى يفهم معنى هذا البلاغ، وحتّى يؤتي هذا البلاغ الثّمرة المطلوبة منه، ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا﴾: أي: بكلّ ما ورد سابقاً: بأنّ الأرض يرثها عبادي الصّالحون.

والبلاغ: الشّيء المهمّ الّذي يجب أن يعلمه النّاس؛ لذلك حين ينشغل النّاس بالحرب، وينتظرون أخبارها تأتيهم على صورة بلاغات، يقولون: بلاغ

رقم واحد؛ لأنّه أمرٌ مهمّ، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا﴾: ما جاء به القرآن الكريم هو البلاغ الحقّ، والبلاغ الأعلى الّذي لم يترك لكم عذراً، ولا لغفلتكم مجالاً، ولا لمستدرك أنْ يستدرك عليه في شيء، فهو مُنتْهى ما يمكن أنْ أخبركم به، وهو بلاغ:

﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾: يتلقّفون مُرادَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لينفّذوه، سواء أكان أمراً أمْ نَهياً.

(الآية ١٠٧) - ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾:

النّبيّ ﷺ خاتَم الرّسل، وبعثتُه للنّاس كافّة، وللزّمن كلّه إلى أنْ تقوم السّاعة، وقد جاء الرّسل السّابقون عليه لفترة زمنيّة محدّدة، ولقوم بعينهم، أمّا رسالة النّبيّ محمّد ﷺ فجاءتْ رحمةً للعالمين جميعاً؛ لذلك لا بُدَّ لها أنْ تتّسعَ لأقضية الحياة كلّها الّتي تعاصرها أنت وأنا ومن خَلَفُنا ومن أمامنا إلى يوم القيامة، فهي رحمة وعطاء عامّ وخير شامل.

ومعنى: العالمين، كُلُّ ما سوى الله عَزَّ وَجَلَّ: عالم الملائكة، وعالم الجنّ، وعالم الإنس، وعالم الجماد، وعالم الحيوان، وعالم النّبات، فرسالة محمّد ﷺ رحمةً لهم جميعاً، كيف؟ قالوا: نعم، رحمة للملائكة، فجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يخشى العاقبة حتّى نزل على محمّد ﷺ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠﴾ [التّكوير]، فاطمأنّ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وأَمِن، ورسول الله ﷺ رحمة للجماد؛ لأنّه أمرنا بإماطة الأذى عن الطّريق، وهو رحمة بالحيوان، وفي الحديث الشّريف: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْساً، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعاً، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ

لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ»(١)، وحديث المرأة الّتي دخلتْ النّار في هِرَّة حبستْها، فلا هي أطعمتْها وسقتْها، ولا هي تركتها تأكل من خَشَاش الأرض، وحديث الرّجل الّذي دخل الجنّة؛ لأنّه سقى كلباً كان يلهث يأكل الثّرى من شدّة العطش، فنزل الرّجل البئر وملأ خُفَّه فسقى الكلب، فشكر الله له وغفر له؛ لأنّه نزل البئر وليس معه إناء يملأ به الماء، فاحتال للأمر، واجتهد ليسقي الكلب، وهكذا نالتْ رحمة الإسلام الحيوان والطّير والإنسان، ففي الدّين مبدأ ومنهج يُنظِّم كلّ شيء ولا يترك صغيرة ولا كبيرة في حياة النّاس؛ لذلك فهو رحمة للعالمين، فقوله سُبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾: يعني أنّ كلّ ما يجيء به الإسلام داخل في عناصر الرّحمة.

(الآية ١٠٨) - ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨﴾:

﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾: فالوحدانيّة هي أوّل رحمة بنا، أن نكون كلّنا سواء، ليس لنا إلّا إله واحد، هذه من أعظم رحمات الله جل جلاله أن نعبده وحده لا شريكَ له، فعبادته تُغنينا عن عبادة غيره، ولو كانت آلهةً متعدّدة لأصابتنا الحيرة بين إله يأمر، وإله ينهى، أو بين آلهة البشر الّذين يتحكّمون بالبشر، لذلك؛ نحن نعتزّ ونفخَر بهذه الوحدانيّة، وبهذه الألوهيّة، وفي هذا يقول الشّاعر الإسلاميّ محمّد إقبال:

والسُّــجودُ الّذي تَجْتَويهِ مِنْ أُلُوفِ السُّجودِ فِيهِ نَجَاةُ

(١) صحيح البخاريّ: كتاب المزارعة، باب فضل الزّرع والغرس إذا أُكِلَ منه، الحديث رقم (٢٣٢٠).

فسجودك لله جَلَّ جَلَالُهُ وتعفير وجهك له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحميك من السّجود لغيره، ولولا سجود الإنسان لله عَزَّ وَجَلَّ لَسجد لكلّ مَنْ هو أقوى منه، فعلينا أن نعتزّ بعبوديّتنا لله جَلَّ جَلَالُهُ؛ لأنّها قمّة الحرّيّة، فعبوديّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تغنينا عن عبوديّة البشر، وترفعنا إلى مصافّ: «أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ»[1].

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾: السّؤال هنا؛ يعني أنّ الإنسان يجب أن يفهم أنّه بمجرد أنّ الله جَلَّ جَلَالُهُ إله واحد فيجب عليه أن يُسلم له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما تحثّ ولدك المتكاسل أن يكون مثلَ زميله الّذي تفوّق، وأخذ المركز الأوّل، فتقول له: ألا تذاكر وتجتهد حتّى تكون مثله؟ وهكذا في: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾؛ أي: مسلمون لله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنّ مصلحتكم في الإسلام وعزّكم في عبوديّتكم لله جَلَّ جَلَالُهُ، كما قال سيّدنا عمر بن الخطّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "نحن قوم أعزّنا الله بالإسلام، فإذا ابتغينا العزّة في غيره أذلّنا الله".

(الآية ١٠٩) - ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾:

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾: أعرضوا وانصرفوا.

﴿فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ﴾: مادّة: أذن ومنها الأذان؛ تعني: الإعلام بالشّيء، والأصل في الإعلام كان في الأذُن بالكلام، حيث لم يكُنْ عندهم قراءة وكتابة، فاعتمد الإعلام على الكلام، والسّماع بالأُذُن، فمعنى: ﴿ءَاذَنتُكُمۡ﴾: أعلمتُكم وأخبرتُكم.

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب في التّفاخر بالأحساب، الحديث رقم (٥١١٦).

﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾: يعني: جاء الإعلام لكم جميعاً، لم أخصّ أحداً دون الآخر، فأنتم في الإعلام سواء، لا يتميّز منكم أحد على أحد؛ لذلك كان النّبيّ ﷺ يحرص على إبلاغ الجميع، فيقول: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا ثُمَّ بَلَّغَهَا، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»(١)، وهكذا يشيع الخيْر ويتداول بين الجميع.

﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾: فلم أُعْلِم قوماً دون قوم، ولم أُسْمِع أُذُناً دون أُذن، ثم يُنبِّههم إلى أمر السّاعة:

﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾: فانتبهوا، واحتاطوا، فلا أدري لعلَّ السّاعةَ تكون قريباً، ولعلّها تفاجئكم قبل أنْ أُنهي كلامي معكم، لذلك؛ لمّا سألوا أحد الصّالحين: فِيمَ أفنيتَ عمرك؟ قال: "أفنيت عمري في أربعة أشياء: علمت أنّي لا أخلو من نظر الله ﷻ طَرْفة عين فاستحييتُ أنْ أعصيه، وعلمتُ أنّ لي رزْقاً لا يتجاوزني قد ضمنه الله لي فقنعتُ به، وعلمتُ أنّ عليَّ دَيْناً لا يؤدّيه عنّي غيري فاشتغلتُ به، وعلمتُ أنّ لي أَجَلاً يبادرني فبادرتُه".

فالمراد: استعدّوا لهذه المسألة قبل أن تفاجئكم.

(الآية ١١٠) - ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ١١٠﴾:

ما دام ربّك ﷻ يعلم الجهر ويعلم السّرَّ وأخْفى، فإيّاك أنْ تنافق، فالله سبحانه وتعالى ينهاك عن النّفاق مع البشر، فمن باب أَوْلى أن ينهاك عن النّفاق مع الله سبحانه وتعالى الّذي يعلم السّرَّ، ويعلم ما هو أخفى من السّرّ.

(١) المعجم الأوسط للطّبرانيّ: باب الميم، من اسمه محمّد، الحديث رقم (٥٢٩٢).

(الآية ١١١) - ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١﴾:

﴿لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ﴾: لعلّه اختبار لكم.

﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ﴾: أي: لعلّ الإمهال وبقاءكم دون عذاب وتباطؤ السّاعة عنكم فتنةٌ واختبار، يا ترى أتُوفَّقون وتفوزون في هذا الاختبار، أم لا؟

(الآية ١١٢) - ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾:

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾: كما دعا بذلك الرّسل السّابقون عليهم السّلام: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ [الأعراف: من الآية ٨٩]. وهل يحكم الله ﷻ إلّا بالحقّ؟ قال العلماء: الحقّ ﷻ يُبيّن لنا؛ لأنّنا عِشْنا في الدّنيا ورأينا كثيراً من الباطل، فكأنّنا لأوّل مرّة نسمع الحكم بالحقّ.

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾: أي: المستعان على ما تُجرمون فيه، وما تقومون به.

ونلاحظ أنّ الله ﷻ في آيات سورة الأنبياء تكلّم عن طَيِّ السّماء كطيِّ السّجل للكتب، ثمّ قال: ﴿لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١﴾[الأنبياء: ١١١]، ثمّ قال: ﴿رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾: هذا كلّه ليُقرّب لنا مسألة السّاعة وقيامها، ويُعِدُّنا لاستقبال سورة (الحجّ).

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: صفة الرّحمة الّتي تشمل العالم جميعاً، رحمن الدّنيا ورحيم الآخرة.

﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾: من شرككم وكفركم وتأليهكم لما دون الله ﷻ.

❀ ❀ ❀

سُورَةُ (الحجّ)

الآيات: (١-٧٨)

سورة الحجّ

سورة الحجّ ترتيبها (٢٢) في المصحف الشّريف، عدد آياتها (٧٨) آية، فيها آيات مكّيّة وآيات مدنيّة، وهي من أعاجيب السّور، نزلت ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، مكّيّاً ومدنيّاً، ناسخاً ومنسوخاً، مُحكماً ومتشابهاً، سمّيت سورة الحجّ؛ لأنّ فيها قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ الأذان الأوّل لسيّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام في الحجّ، ومنها سمّيت سورة الحجّ.

(الآية ١) - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾:

الخطاب هنا عامّ للنّاس جميعاً، وعادةً ما يأتي الخطاب الّذي يطلب الإيمان عامّاً لكلّ النّاس؛ لذلك يقول هنا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، يريد أنْ يلفتهم إلى قوّة الإيمان، أمّا عندما يتطلّب تنفيذ حكم شرعيّ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾: التّقوى: أنْ تجعل بينك وبين عذاب الله ﷻ وقايةً؛ أي: شيئاً يقيك العذاب الّذي لا طاقةَ لك به.

ونلحظ أنّ الله ﷻ يقول مرّة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: من الآية ١٩٤]، ومرّة يقول: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: من الآية ٢٤]، ومرّة يقول: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، والمعنى ينتهي إلى شيء واحد، معنى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: من الآية ٢٤]؛ أي: اجعلوا

بينكم وبينها وقاية تحميكم منها، ويكون هذا بفِعْل أمر الله سُبحانَهُ وتَعالى وتَرْك النّهي، وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: من الآية ١٩٤]؛ لأنّ لله سُبحانَهُ وتَعالى صفات جمال، وصفات جلال، صفات الجمال: كالرّحمن، والرّحيم، والباسط، والسّتّار، وصفات الجلال: كالقهّار والجبّار.. وغيرها ممّا نخاف منه، فلنجعل بيننا وبين صفات الجلال وقايةً، فليستْ بنا طاقة لقاهريّته وبطشه سُبحانَهُ وتَعالى، والنّار من جنود الله عَزَّ وَجَلَّ ومن مظاهر قَهْره، فكما نقول: اتقِّ الله، نقول: اتَّقِ النّار، واتّقوا ربّكم الّذي أمدّكم بالنِّعم.

واختار في هذا الأمر صفة الرّبوبيّة، فقال: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾، ولم يقُلْ: اتّقوا الله؛ لأنّ الرّبّ هو المتولِّي للرّعاية والتّربية، فالرّبوبيّة عطاء: إيجاد من عَدم وإمداد من عُدم، فأولْى بنا أن نتّقيه، أمّا صفة الألوهيّة فتعني التّكاليف والعبادة بـ (افْعل ولا تفعل)، (هذا حلال وهذا حرام)، فالله سُبحانَهُ وتَعالى معبود ومُطَاع فيما أمر، وفيما نَهَى عنه وزجر.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾: الزّلزلة: هي الحركة العنيفة الشّديدة الّتي تُخرِج الأشياء عن ثباتها، كما لو أردتَ أنْ تخلعَ وتداً من الأرض، فعليك أوّلاً أنْ تهزّه وتخلخله من مكانه، حتّى تجعل له مجالاً في الأرض يخرج منه، بينما لو حاولت جذْبه بدايةً فسوف تجد مجهوداً ومشقّة في خَلْعه، فمعنى الزّلزلة: الحركة الشّديدة الّتي تزيل الأشياء عن أماكنها، والحقّ سُبحانَهُ وتَعالى تكلّم عن هذه الحركة كثيراً، فقال: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ [الواقعة]، ويقول سُبحانَهُ وتَعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزّلزلة]، فالزّلزال هنا ليس زلزالاً كالّذي

نراه من هزّات أرضيّة تهدم بعض البيوت، أو تبتلع بعض القرى، فهذه مجرّد آيات كونيّة تثبت صدْق البلاغ عن الله ﷻ، وتنبّهنا إلى الزّلزال الكبير في الآخرة، إنّها صورة مصغّرة لما سيحدث في الآخرة، حتّى لا نغترّ بسيادتنا في الدّنيا الّتي هي هبة لنا من الله ﷻ، وعندما حدث زلزال (أغادير) لاحظوا أنّ الحيوانات ثارتْ وهاجتْ قبل الزّلزال بدقائق، ومنها ما خرج إلى الخلاء، فأيُّ إعلام هذا؟ وأيُّ استشعار لديها، وهي بهائم في نظرنا لا تفهم ولا تعي؟ إنّ في ذلك إشارة للإنسان الّذي يعدّ نفسه سيّد هذا الكون: فليتنبّه، فلولا أنّ الله سبحانه وتعالى سَيَّدَه لوكزتْه هذه البهائم فقضت عليه.

فهذا ليس زلزالاً عامّاً، إنّما هو زلزال مخصوص منسوب إلى الأرض بوحي من الله سبحانه وتعالى وبأمر منه جل جلاله، لذلك وصفه سبحانه وتعالى بأنّه شيء عظيم: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾، فحين يقول الإنسان: هذا شيء عظيم، فهو عظيم بمقياسه، أمّا العظيم هنا فعظيم بمقاييس الحقّ سبحانه وتعالى، فلنا أن نتصوَّر فظاعة زلزال وصفه الله جل جلاله بأنّه عظيم.

لقد افتُتِحَتْ هذه السورة بزلزلة القيامة؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى سبق أنْ قال: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأنبياء: من الآية ٩٧]، فلا بُدَّ أنْ يعطينا هنا صورة لهذا الوعد، ونُبْذة عمّا سيحدث فيه، وصورة مُصغَّرة تدلّ على قدرته سبحانه وتعالى على زلزال الآخرة، وأنّ الأرض ليس لها قوام بذاتها، إنّما قوامها بأمر ربّها وقدرته، فإذا أراد لها أنْ تزول زالتْ، وكذلك في قوله ﷻ: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢﴾ [الزّلزلة]، فَمَا نراه من براكين وثروات في باطن الأرض وعجائب يقع تحت هذه الآية؛ لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ

﴿ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ [طه]، ما دام الله سبحانه وتعالى يمتنُّ بملكيّة ما تحت الثَّرى، فلا بُدَّ أنّ تحت الثّرى ثروات وأشياء نفيسة، ونحن الآن نُخرِج معظم الثّروات من باطن الأرض، ومعظم الأمم الغنيّة تعتمد على الثّروات المدفونة من بترول ومعادن ومناجم وذهب..، وسبق أن ذكرنا أنّ الحقّ سبحانه وتعالى بعثَر الخيرات في كونه، وجعل لكلّ منها وقته المناسب، فالرّزق له ميلاد يظهر فيه: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعۡلُومٍ ۝٢١﴾ [الحجر: من الآية ٢١].

(الآية ٢) - ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾:

﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا﴾: الرّؤية: قلنا قد تكون رؤية علميّة أو رؤية بصريّة، والشّيء الّذي نعلمه إمّا: علمَ اليقين، وإمّا عين اليقين، وإمّا حقيقة اليقين.

علم اليقين: أنْ يخبر مَنْ تثق به بشيء، كما تواترت الأخبار عن الرّحّالة بوجود قارّة بها كذا وكذا، فهذا نسمّيه: (علم يقين)، فإذا ركبت الطّائرة إلى بلد فرأيتها وشاهدت ما بها فهذا: (عين اليقين)، فإذا نزلتَ بها وتجوّلتَ بين شوارعها ومبانيها فهذا نسمّيه: (حقّ اليقين)؛ لذلك حين يخبر الله سبحانه وتعالى الكافرين بأنّ هناك عذاباً في النّار فهذا الإخبار صادق من الله عزّ وجلّ فعِلْمنا به (علم يقين)، فإذا رأيناها فهذا: (عين اليقين)، كما قال جلّ جلاله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧﴾ [التّكاثر]، فإذا ما باشرها أهلها، وذاقوا حرّها ولظاها -وهذا مقصور على أهل النّار- فقد علموها حَقَّ اليقين، لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢

﴿فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٩٥ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٩٦﴾ [الواقعة].

﴿تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾: الذّهول: هو انصراف حاجة عن مهمّتها الحقيقيّة لهوْلٍ رأتْه، فتنشغل بما رأته عن تأديةِ وظيفتها، كما يذهل الخادم حين يرى شخصاً مهيباً أو عظيماً، فيسقط ما بيده مثلاً، فالذّهول سلوك لا إراديّ، قد يكون ذهولاً عن شيء تفرضه العاطفة، أو عن شيء تفرضه الغريزة، فالعاطفة كالأمّ الّتي تذهَلُ عن ولدها، فعاطفة الأمومة تتناسب مع حاجة الولد، ففي مرحلة الحمل مثلاً تجد الأمّ تحتاط في مشيتها، وفي حركاتها، خوفاً على الجنين في بطنها، وهذه العاطفة من الله عزَّ وجلَّ جعلها في قلب الأمّ للحفاظ على وليدها، وإلّا تعرّض لما يؤذيه أو يُودِي بحياته. ولمّا سألوا المرأة العربيّة عن أحبّ أبنائها، قالت: الصّغير حتّى يكبر، والغائب حتّى يعود، والمريض حتّى يُشْفَى، فحسب الحاجة يعطي الله سبحانه وتعالى العاطفة، فالحامل عاطفتها نحو ولدها قويّة، وهي كذلك في مرحلة الرّضاعة، فلننظر إلى المرضعة، وكيف تذهل عن رضيعها وتنصرف عنه، وأيُّ هول هذا الّذي يشغلها، ويُعطِّل عندها عاطفة الأمومة والحنان، ويُعطِّل حتّى الغريزة؟ وقد أعطانا القرآن الكريم صورة أخرى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦﴾ [عبس]، ومن عظمة الأسلوب القرآنيّ أنّه يذكر هنا الأخ قبل الأب والأمّ، قالوا: لأنّ الوالدين قد يُوجدان في وقت لا يرى أنّهما في حاجة إليه، ولا هو في حاجة إليهما؛ لأنّه كبر، أمّا الأخ ففيه طمع المعونة والمساعدة.

﴿كُلُّ مُرۡضِعَةٍ﴾: والمرضعة تأتي بفتح الضّاد وكَسْرها: مُرضَعة (بالفتح)

هي الّتي من شأنها أن ترضع وتصلح لهذه العمليّة، أمّا مُرضِعة (بالكسر) فهي الّتي تُرضع فعلاً، فانظر إلى مدى الذّهول والانشغال في مثل هذه الحالة.

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾: بعد أنْ تكلّم عن المرضع رقّى المسألة إلى الحامل، ومعلوم أنّ الاستمساك بالحمل غريزة قويّة لدى الأمّ حتّى في تكوينها الجسمانيّ، فالرّحم بمجرّد وصول البويضة المخصّبة إليه، ينغلق عليها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحجّ: من الآية ٥]، فإذا ما جاء وقت الميلاد انفتح له بقدرة الله عزّ وجلّ، فهذه مسألة غريزيّة فوق قدرة الأمّ ودون إرادتها، فوَضْع هذا الحمل دليل هَوْل كبير وأمر عظيم يحدث.

والحَمْل نوعان: ثقَل تحمله وهو غيرك، وثقل تحمله في ذاتك، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ١٠١﴾ [طه: من الآية ١٠١]، والحِمْل (بكسر الحاء): هو الشّيء الثّقيل الّذي لا يُطيقه ظهرك، أمّا الحَمْل (بالفتح) فهو: الشّيء اليسير تحمله في نفسك.

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾: سكارى؛ أي: يتمايلون مضطربين، مثل السّكارى حين تلعب بهم الخمر، وتطوح بهم يميناً وشمالاً، وتُلقِي بهم على الأرض، وكلّما زاد سُكْرهم وخروجهم عن طبيعتهم كان النّوع شديداً!! وهكذا سيكون الحال في موقف القيامة لا من سُكْر، ولكن من خوف وهَوْل وفزع: ﴿وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾، لكن، من أين يأتي اضطراب الحركة؟ قالوا: لأنّ الله سبحانه وتعالى خلق الجوارح، وخلق في كلّ جارحة غريزة الانضباط والتّوازن، وعلماء التّشريح يُحدِّدون في الجسم أعضاء ومناطق معيّنة مسؤولة عن حِفْظ التّوازن للجسم، فإذا ما تأثّرتْ هذه الغدد

والأعضاء يشعر الإنسان بالدُّوار، ويفقد توازنه، كأنْ تنظر من مكان مرتفع، أو تسافر في البحر مثلاً، فهذا الاضطراب ليس من سُكْر، ولكن من هَوْل ما يرونه يوم القيامة، فيُحدث لديهم تغييراً في الغُدد والخلايا المسؤولة عن التّوازن، فيتمايلون، كمن اغتالتْه الخمر.

﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾: إنّهم لم يَرَوْا العذاب بَعْد، بل مجرّد قيام السّاعة وأهوالها أفقدهم التّوازن؛ لأنّ الّذي يَصْدُق في أنّ القيامة تقوم بهذه الصّورة يَصْدُق في أنّ بعدها عذاباً في جهنّم، فانتهت المسألة، وما كانوا يكذّبون به ها هو ماثلٌ أمام أعينهم.

(الآية ٣) - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣﴾:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾: الجدل: هو المحاورة بين اثنين، يريد كلّ منهما أنْ يؤيّد رأيه، ويدحضَ رأْيَ الآخر، ومنه: جَدْل الخوص أو الحبل؛ أي: فَتْله واحدة على الأخرى.

ولو تأمّلنا عمليّة غَزْل الصّوف أو القطن لوجدناه عبارة عن شعيرات قصيرة لا تتجاوز عدّة سنتيمترات، ومع ذلك يصنعون منه حَبْلاً طويلاً؛ لأنّهم يداخلون هذه الشّعيرات بعضها في بعض، بحيث يكون طرف الشّعرة في منتصف الأخرى، وهكذا يتمّ فَتْله وغَزْله، فإذا أردتَ تقوية هذه الفَتْلة تجدِلُها مع فتلة أخرى، وهكذا يكون الجدل في الأفكار، فكلّ صاحب فكرة يحاول أنْ يُقوِّي رأيه وحجّته؛ ليدحض حجّة الآخرين.

فكيف يكون الجدل في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ يكون الجدل في الله عَزَّ وَجَلَّ وجوداً، كالملحد الّذي لا يعترف بوجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو يكون الجدل في الوحدانيّة، كمن يشرك بالله جَلَّ جَلَالُهُ إلهاً آخر، أو يكون الجدل في إخبار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بشيء غيبيّ، كأمر السّاعة الّذي ينكره بعض النّاس ولا يُصدِّقون به، هذا كلّه جدل في الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾: فالجدل في ذاته مُبَاح مشروع، شريطة أن يصدر عن علم وفقه، كما جاء في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: من الآية ١٢٥]، فالحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يمنع الجدل، ولا يمنع الحوار، ولكن يريد الحوار بالطّريقة الحسنة والأسلوب اللّيّن، وكما يقولون: النّصح ثقيل، فلا تجعله جَدَلاً، ولا ترسله جبلاً، ولا تُخرِجِ الإنسان ممّا يألف بما يكره، واقرأ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: من الآية ١٢٥]، وقوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: من الآية ٤٦]، والقرآن الكريم يعلّم الرّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْناً من الجدل في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥﴾ [سبأ]، فانظر إلى هذا الجدَل الرّاقي والأسلوب العالي: ففي خطابهم يقول: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾ [سبأ: من الآية ٢٥] وينسب الإجرام إلى نفسه، وحين يتكلّم عن نفسه يقول: ﴿وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [سبأ: من الآية ٢٥]، ولم يقُلْ هنا: (عمّا تجرمون)، لتكون مقابلة بين الحالين، وهذا الأسلوب اللّطيف والعظيم فيه جذب القلوب وتحنينها لتقبُّل الحقّ، فأين القسوة والتّطرّف والإرهاب؟ إنّه اللّطف بدل العنف، ولمّا اتّهموا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجنون ردَّ عليهم القرآن الكريم بالعقل وبالمنطق، فسألهم: ما

الجنون؟ الجنون أنْ تصدر الأفعال الحركيّة عن غير بدائل اختياريّة من المخّ، فهل جرَّبْتُم على محمّد شيئاً من هذا؟ وما هو الخُلق؟ الخُلق: استقامة المنهج والسّلوك على طريق الكمال والخير، فهل رأيتُم على محمّد ﷺ خلاف هذا؟ لذلك يقول سبحانه وتعالى في الرّدّ عليهم: ﴿۞قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ [سبأ: من الآية ٤٦]. وكيف يكون صاحب هذا الخلُق القويم والسّلوك المنضبط في الخير مجنوناً؟ ولمّا قالوا: كذّاب، جادلهم القرآن الكريم: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦﴾ [يونس: من الآية ١٦]، لقد أتتْه الرّسالة بعد الأربعين، فهل سمعتم عنه خطيباً أو شاعراً؟ هل قال خطبة أو قصيدة؟ وقالوا: إنّها عبقريّة كانت عند محمّد، فأيُّ عبقريّة هذه الّتي تتفجَّر بعد الأربعين، فالدّين هو أمر حوار وجدل وموعظة حسنة وحكمة، وليس بالتّطرّف ولا الإرهاب. ولمّا ذهب الشَّعْبيّ لملك الرّوم قال له الملك: عندكم في الإسلام أمور لا يُصدِّقها العقل، فقال الشَّعْبيّ: ما الّذي في الإسلام يخالف العقل؟ قال: تقولون إنّ في الجنّة طعاماً لا ينفد أبداً، ونحن نعلم أنّ كلّ ما أُخذ منه مرّة بعد مرّة لا بُدَّ أنْ ينفد -انظر إلى الجدل في هذه المسألة كيف يكون- قال الشَّعْبي: أرأيتَ لو أنّ عندك مصباحاً، وجاءت الدّنيا كلّها فقبستْ من ضوئه، أينقص من ضوء المصباح شيء؟ فهذا جدل راقٍ وعلى أعلى مستوى، ويستمرّ ملك الرّوم فيقول: كيف نأكل في الجنّة كُلَّ ما نشتهي دون أن نتغوّط، أو تكون لنا فضلات؟ قال: أرأيتم الجنين في بطن الأمّ، أينمو أم لا؟ إنّه ينمو يوماً بعد يوم، وهذا دليل على أنّه يتغذّى، فهل له فضلات؟ لو كان للجنين فضلات ولو تغوّط في مشيمته لمات، يتغذّى الجنين غذاءً على

قَدْر حاجة نموّه، بحيث لا يتبقّى من غذائه شيء، ثمّ قال: أين تذهب الأرواح بعد أنْ تفارق الأجساد؟ أجاب الرّجل إجمالاً: تذهب حيث كانت قبل أنْ تحلَّ فيها، وأمامك المصباح وفيه ضوء، ثمّ نفخ المصباح فانطفأ، فقال له: أين ذهب الضّوء؟

وقد نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في النّضر ابن الحارث، وكان يجادل عن غير علم في الوجود، وفي الوحدانيّة، وفي البعث.. إلخ، والآية لا تخصّ النّضر وحده، وإنّما تعمّ كلّ مَنْ فعل فِعْله، ولَفَّ لفَّه من الجدل.

﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾: أي: أنّ هذا الجدل قد يكون ذاتيّاً من عنده، أو بوسوسة الشّيطان له بما يخالف منهج الله عز وجل، سواء أكان شيطانَ الإنس أم شيطانَ الجنّ، فالسّيّئات والانحرافات والخروج عن منهج الله سبحانه وتعالى لا تكون فقط بوسوسة، فإمّا أن تكون من النّفس الّتي لا تنتهي عن مخالفة، وإمّا من الشّيطان الّذي يُلِحُّ عليها إلى أنْ يوقِع بها في شِرَاكه، وسبق أنْ قُلْنا: إذا كان الشّيطان هو الّذي يوسوس بالشّرّ، فمَنِ الّذي وسوس له أوّلاً؟ وكما قال الشّاعر:

إِبْلِيسُ لَمَّا غَوَى مَنْ كَانَ إبليسُه؟

وفَرْق بين المعصية من طريق النّفس، والمعصية من طريق الشّيطان، فالشّيطان يريدك عاصياً على أيّ وجه من الوجوه، أمّا النّفس فتريدك عاصياً من وجه واحد لا تحيد عنه، فإذا صرفتَها إلى غيره لا تنصرف وتأبى عليك، إلى أنْ تُوقعك في هذا الشّيء بالذّات، وهذا بخلاف الشّيطان إذا تأبّيْتَ عليه

ولم تُطِعْهُ في معصية، صرفكَ إلى معصية أخرى، أيّاً كانت، المهمّ أن تعصي، وهكذا يمكنك أنْ تُفرّق بين المعصية من نفسك، أو من الشّيطان، ولمّا سُئل أحد العلماء: كيف أعرف: أأنا من أهل الدّنيا أمْ من أهل الآخرة؟ قال: هذه مسألة ليستْ عند العلماء، إنّما عندك أنت، قال: كيف؟ قال: انظر في نفسك، فإنْ كان الّذي يأخذ منك الصّدقة أحبّ إليك ممَّنْ يعطيك هديّة، فاعلم أنّك من أهل الآخرة، وإنْ كانت الهديّة أحبَّ إليك من الصّدقة فأنت من أهل الدّنيا؛ ذلك لأنّ الإنسان يحبّ من يُعطيه، فالّذي يعطيك يعمّر لك الدّنيا الّتي تحبّها فأنت تحبّه، وكذلك الّذي يأخذ منك يعمّر لك الآخرة الّتي تحبّها فأنت تحبّه، فهذه مسألة لا دَخْل للشّيطان فيها.

﴿مَّرِيدٍ﴾: من مَرَدَ أو مَرُدَ يمرد كنثر ينثُر، والمرود: العُتوُّ وبلوغ الغاية من الفساد، ومنها مارد ومريد ومتمرّد، والمارد: هو المستعلي.

(الآية ٤) - ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤﴾:

﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾: أي: كتب الله ﷻ على هذا الشّيطان المريد، وحكم عليه حُكماً ظاهراً.

﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾: أي: تابعه وسار خلفه.

﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾: يضلّه ويهديه ضِدّان، فكيف نجمع بينهما؟ المراد: يُضِلُّه عن طريق الحقّ والخير، ويهديه؛ أي: للشّرّ؛ لأنّ معنى الهداية: الدّلالة مُطْلقاً، فإن دلّتَ على خير فهي هداية، وإن دللتَ

على شرّ فهي أيضاً هداية، ولكن بطريق آخر، ولنقرأ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصّافات]؛ أي: دُلُّوهم، وخُذوا بأيديهم إلى جهنّم.

﴿ٱلسَّعِيرِ﴾: هي النّار المتوهّجة الّتي لا تخمد ولا تنطفئ.

(الآية ٥) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾: الرّيب: الشّكّ.

فالمعنى: إنْ كنتم شاكّين في مسألة البعث، فإليكم الدّليل على صِدْقه.

﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾: أي: الخَلْق الأوّل، وهو آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أمّا جمهرة النّاس بعد آدم فخُلِقوا من نطفة حيّة من إنسان حيّ.

والمتتبّع لآيات القرآن الكريم يجد الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول مرّة في خَلْق الإنسان: ﴿مِّن تُرَابٖ﴾، ومرّة: ﴿مِن مَّآءٖ﴾ [الطّارق: من الآية ٦]، و﴿مِّن طِينٖ﴾ [الأنعام: من الآية ٢]، و﴿مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦﴾ [الحجر: من الآية ٢٦]، و﴿مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤﴾ [الرّحمن: من الآية ١٤]، وهذه الّتي دعتْ المستشرقين إلى الاعتراض على أسلوب القرآن الكريم،

يقولون: من أيِّ هذه الأشياء خُلِقْتم؟ وهذا الاعتراض ناشئ من عدم فَهْم لغة القرآن الكريم، فالتّراب والماء والطّين والحمأ المسنون والصّلصال، كلّها مراحل متعدّدة للشّيء الواحد، فإذا وضعتَ الماء على التّراب صار طيناً، فإنْ تركتَ الطّين حتّى يتخمّر، ويتداخل بعضه في بعض حتّى لا تستطيع أنْ تُميِّز عنصراً فيه عن الآخر، إلى أن يعطَن وتتغيّر رائحته يكون هو الحمأ المسنون، فإنْ جَفَّ فهو صلصال كالفخّار، ومنه خلق اللهُ ﷻ الإنسانَ وصوَّره، ونفخ فيه من روحه، فهذه مراحل للشّيء الواحد، ومرور الشّيء بمراحل مختلفة لا يُغيِّره.

ثمّ تكلّم الحقّ ﷻ عن الخَلْق الثّاني بعد آدم ﵇، وهم ذرّيّته، فقال:

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾: والنّطفة في الأصل هي قطرة الماء العَذْب، ولا تظهر زُرْقة الماء إلّا إذا كان صافياً لا يشوبه شيء، وكذلك النّطفة هي خلاصة الخلاصة؛ لأنّ جسم الإنسان تحدث فيه عمليّة الأيض؛ أي: الهدم والبناء بصفة مستمرّة، وينتج عنها خروج الفضلات المختلفة من الجسم: فالبول، والغائط، والعرق، والدّموع، وصَمْغ الأذن، كلّها فضلات ناتجة عن احتراق الطّعام بداخل الجسم، حيث يمتصّ الجسم خلاصة الغذاء، وينقلها إلى الدّم، ومن هذه الخلاصة يُستخلص منيُّ الإنسان الّذي تؤخذ منه النّطفة، فهو خلاصة الخلاصة في الإنسان، ومنه يحدث الحمل، ويتكَّون الجنين، وكأنّ الخالق ﷯ قد صَفَّاها هذه التّصفية، ونقَّاها هذا النّقاء كلّه؛ لأنّها ستكون أصْلاً لأكرم مخلوقاته، وهو الإنسان، وهذه النّطفة لا تنزل من الإنسان إلّا في عمليّة الجماع، وهي ألذُّ متعة في وجود الإنسان الحيِّ، لماذا؟ لو تأمّلنا متعة الإنسان ولذّاته الأخرى مثل: لذّة التّذوّق، أو الشّمّ، أو اللّمس، فهي لذّاتٌ

معروفة محدّدة بحاسَّة معيّنة من حواسّ الإنسان، أمّا هذه اللّذّة المصاحبة للعمليّة الجنسيّة فهي شاملة للجسد كلّه، ولا يستطيع الإنسان أنْ يُحدِّد فيها منطقة الإحساس، بل تكون بكلّ ذرّة من ذرّات الجسم، لذلك أمرنا ربّنا ﷻ أن نغتسل بعد هذه العمليّة، وربّما لا تغفل عن الله سبحانه وتعالى إلّا في هذه اللّحظة؛ لذلك كان الأمر بالاغتسال بعدها، وأهل المعرفة عن الله سبحانه وتعالى وأهل الفيوضات يقولون: إنّ الله ﷻ خلق آدم من طين، وجعل نَسْله من هذه النّطفة الحيّة الّتي وضعها في حوّاء، ثمّ أتى منها الخَلْق كلّهم بعده، فكأنّ في كلّ واحد منّا ذرّة من أبيه آدم؛ لأنّه لو طرأ على هذه الذّرّة موت ما كان نَسْلٌ بعد آدم، فهذه الذّرّة موجودة فيك في النّطفة الّتي يلقيها الإنسان ويأتي منها الولد، وهي أصْفى شيء فيه، فهي الذّرّة الّتي شهدتْ الخَلْق الأوّل، خَلْق أبينا آدم عليه السلام، وقد قرّبنا هذه المسألة وقلنا: لو أنّنا أخذنا سنتيمتراً من مادّة ملوّنة، ووضعناه في قارورة ماء، ثمّ رجّينا القارورة حتّى اختلط الماء بالمادّة الملوّنة، فإنّ كلّ قطرة من الماء بها ذرّة من هذه المادّة، وهكذا لو ألقينا القارورة في برميل.. إلخ، فكلّ إنسان مِنّا فيه ذرّة من أبيه آدم عليه السلام، هذه الذّرّة شهدتْ خَلْق آدم عليه السلام، وشهدتْ العهد الأوّل الّذي أخذه الله جل جلاله على عباده في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: من الآية ١٧٢]؛ لذلك يُسمِّي الله سبحانه وتعالى إرسال الرّسل بَعْثاً، فيقول: ﴿بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ٤١﴾ [الفرقان: من الآية ٤١]، بعثه: كأنّه كان موجوداً وله أَصْل في رسالة مباشرة من الله سبحانه وتعالى حين أخذ العهد على عباده، وهم في ظَهْر آدم عليه السلام، كما يخاطب الرّسول ﷺ بقوله: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١﴾ [الغاشية]؛ أي: مُذكِّر بالعهد القديم عهد

الفطرة؛ لذلك اقرأ الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ﴾ [الأعراف: من الآية ١٧٢]، هذا في مرحلة الذّرِّ قبل أنْ يأتي الهوى في النّفوس: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: من الآية ١٧٢- الآية ١٧٣]، فبعث الله سبحانه وتعالى الرّسل لتُذكِّر بالعهد الأوّل، حتّى لا تحدث الغفلة.

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾: سمّيت النّطفة علقة؛ لأنّها تعلَقُ بالرّحم، يقول سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [القيامة]، فالمنيُّ هو السّائل الّذي يحمل النّطفة، وهي الخلاصة الّتي يتكوَّن منها الجنين، والعَلَقة هنا هي البُويْضَة المخصَّبة، فبعد أنْ كان للبويضة تعلُّق بالأمّ، وللحيوان المنويّ (النّطفة) تعلُّق بالأب، اجتمعا في تعلُّق جديد والتقيَا ليتشبَّثا بجدار الرّحم، وكأنّ فيها ذاتيّة تجعلها تعلَق بنفسها.

﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾: والمضغة: هي قطعة لحم صغيرة قَدْر ما يُمضغ من الطّعام، وهو خليط من عِدَّة أشياء؛ ذلك لأنّ جسم الإنسان لا يتكَّون من عنصر واحد، بل من ستّة عشر عنصراً، وهذه المضغة:

﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾: معنى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾: أي: تخلَّقتْ على هيئة الإنسان، يظهر عليها هيكل الجسم، وتتشكَّل على صورته، فهذه للرّأس، وهذه للذّراع، وهذه للرِّجْل وغيرها.

﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾: عرفنا مؤخّراً أنّها الخلايا الّتي تُعوِّض الجسم وتُرقِّعه إذا أصابه عَطَب، فهي بمثابة (احتياطي) لإعادة تركيب ما تلف من أنسجة الجسم

وترميمها، كما يحدث مثلاً في حالة الجُرْح فإنْ تركتَه لطبيعة الجسم يندمل شيئاً فشيئاً، دون أنْ يتركَ أثراً، أمّا إذا تدخَّلنا في الجُرْح بمواد كيماويّة أو خياطة أو خلافه، فلا بُدَّ أن يترك أثراً؛ لأنّ هذه الموادّ أتلفت مسامّ الجسم، فهناك فرق بين صنعة الله ﷻ وبين ما يقوم به البشر.

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾: أي: نُوضِّح لكم ما يتعلَّق بهذه المسألة.

﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: وهي المضْغة الّتي قُدِّر لها أنْ تكون جنيناً يكتمل إلى أنْ يولد؛ لذلك قال ﷻ: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أو نسقطه ميتاً قبل ولادته، فإنْ قلتَ: وما الحكمة من خَلْقه وتصويره، إنْ كان قد قُدِّر له أنْ يموت جنيناً؟ نقول: لنعرف أنّ الموت أمر مُطْلق لا رابطَ له ولا سِنّ، فالموت يكون للشّيخ كما يكون للجنين في بطن أمّه، ففي أيِّ وقت ينتهي الأجل.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾: قال: ﴿نُخْرِجُكُمْ﴾ بصيغة الجمع، ولم يقُلْ: (أطفالاً) إنّما: ﴿طِفْلًا﴾ بصيغة المفرد، لماذا؟ قال العلماء: في اللّغة ألفاظ يستوي فيها المفرد والجمع، فطفل هنا بمعنى أطفال، وقد وردتْ أطفال في موضع آخر في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ [النور: من الآية ٥٩]، وكما تقول هذا رجل عَدْل، ورجال عَدْل، وفي قصّة سيّدنا إبراهيم عليه السلام يتكلّم عن الأصنام فيقول: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشّعراء: من الآية ٧٧]، ولم يقُلْ: (أعداء)، وحينما تكلّم سيّدنا لوط عليه السلام عن ضَيْفه قال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ [الحجر: من الآية ٦٨]، ولم يقل: (ضيوفي)، فالمفرد هنا يُؤدِّي معنى الجمع.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾: وسبق أنْ تحدَّثنا عن مراحل عمر الإنسان، وأنّه يمرّ بمرحلة الرُّشْد: رُشْد البنية حين يصبح قادراً على إنجاب مثله، ورُشْد

العقل حين يصبح قادراً على التّصرّف السّليم، ويُحسن الاختيار بين البدائل، ثمّ تأتي مرحلة الأشدّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأحقاف: من الآية ١٥]، يعني: نضج نُضْجاً من حوادث الحياة أيضاً.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾: وأرذل العمر يعني رديئه، حين تظهر على الإنسان علامات الخَوَر والضّعف.

﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾: لأنّه ينسى، وعندها يعرف أنّ صحّته وقوّته وسلطانه ليست ذاتيّة فيه، إنّما موهوبة له من الله ﷻ، وإذا بلغ الرّجل أرذلَ العمر يعود من جديد إلى مرحلة الطّفولة تدريجيّاً، فيحتاج لِمَنْ يأخذ بيده ليقوم أو ليمشي، كما تأخذ بيد الطّفل الصّغير، فإذا تكلّم يتهته ويتلعثم كالطّفل الّذي يتعلّم الكلام، وهكذا في جميع شؤونه، لذلك يقولون: الزّواج المبكّر أقرب طريق لإنجاب (والد) يعولُك في طفولة شيخوختك، ولم يقُلْ: ولداً؛ لأنّه سيقوم معك فيما بعد بدوْر الوالد، لكن، لماذا يُرَدُّ بعضنا إلى أرذل العمر دون بعض؟ الحقّ ﷻ جعلها نماذج حتّى لا نقول: يا ليت أعمارنا تطول؛ لأنّ أعمار الجميع لو طالتْ إلى أرذَلِ العمر لأصبح الأمر صعباً علينا، فمن رحمة الله ﷻ بنا أنْ خلق الموت.

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾: أي: كما كان خَلْق الإنسان من تراب، ثمّ من نطفة، ثمّ من علقة، ثمّ من مُضْغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة، ثمّ أخرجه طفلاً، وبلغ أَشُدَّهُ، ومنهم مَنْ مات، ومنهم مَنْ يُرَدُّ إلى أرذَل العمر، كذلك الحال في الأرض.

﴿هَامِدَةً﴾: ساكنة.

﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾: أي: تحرّكتْ ذرّاتُها بالنّبات بعد سكونها، والاهتزاز: تحرُّك ما كنّا نظنّه ثابتاً، وليس ما كان ثابتاً في الواقع؛ لأنّ لكلّ كائن حركة في ذاته، حتّى قطعة الحديد الجامدة لها حركة بين ذرّاتها، لكن ليس لدينا من وسائل الإدراك ما نُدرك به هذه الحركة، ولو تأمّلنا المغناطيس لأدركنا هذه الحركة بين ذرّاته، فحين نُدلِّك القضيب الممغنط، ونُمرِّره على قضيب آخر غير مُمغنط في اتّجاه واحد، فإنّه يكتسب منه المغناطيسيّة، وتمرير المغناطيس في اتّجاه واحد معناه تعديل للذّرّات لتحمل شحنة واحدة سالبة أو موجبة، فإن اختلف اتّجاه الدَّلْك فإنّ الذّرّات أيضاً تختلف، ففي الحديد -رمز الصّلابة والجمود- حركة وحياة تناسبه، وإنْ خُيِّل إلينا أنّه أصمُّ جامد في ظاهره، لذلك نقول: ﴿هَامِدَةً﴾: يعني: ساكنة في رَأْي العلم، حيث لا نباتَ فيها، ثمّ: ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ يعني: زادتْ وربَتْ وتحرّكتْ لإخراج النّبات، إنّما هي في الحقيقة لم تكُنْ ساكنة مُطْلقاً؛ لأنّ فيها حركة ذاتيّة بين ذرّاتها.

﴿وَرَبَتْ﴾: أي: زادت عن حجمها، كما تزيد حبّة الفول مثلاً حين تُوضَع في الماء، وتأخذ حظّها من الرّطوبة، وكذلك في البقوليّات جميعها، وهذه الزّيادة في حجم الحبّة هي الّتي تفلقها إلى فلقتين في عمليّة الإنبات، ويخرج منها برعم طرفيّ يتّجه إلى أعلى فيكوّن السّاق الّذي يبحث عن الهواء، وجذير يتّجه إلى أسفل فيكوّن الجذر الّذي يبحث عن الماء، وتظلّ الفلقتان مصدرَ غذاءٍ للنّبتة حتّى تقوى، وتستطيع أنْ تمتصَّ غذاءها من التّربة، فإذا أدَّتْ هاتان الفلقتان مهمّتهما في تغذية النّبتة تحوَّلَتا إلى ورقتين، وهما أوّل ورقتين في تكوين النّبتة. كذلك نلاحظ في تغذية النّبات أنّه لا يأخذ غذاءه

كُلَّه من التّربة، إنّما يتغذّى بنسبة ربّما تسعين بالمئة من الهواء، ونستطيع أن نلاحظ هذه الظّاهرة إذا نظرنا إلى أصيص به زرع، فسوف نجد ما نقص من التّربة كمّيّة لا تُذكَر بالنّسبة إلى حجم النّبات الّذي خرج منها، وحين نتأمّل جذر النّبات نجد فيه آية من آيات الله ﷻ، فالجذر يمتدّ إلى أن يصل إلى الرّطوبة أو الماء، حتّى إذا وصل إلى مصدر غذائه توقَّف، ولنا أن ننظر مثلاً إلى (كوز الحلبة) فسوف نجد الجذور غير متساوية في الطّول، بحسب بُعد الحبّة عن مصدر الرّطوبة.

﴿وَأَنۢبَتَتۡ﴾: هذه صورة حيَّة واقعيّة نلاحظها جميعاً عياناً: الأرض تكون جرداء ساكنة، لا حركةَ فيها، فإذا ما نزل عليها الماء تغيّرتْ وتحرّكتْ ذرّاتها وتشقّقتْ عن النّبات، ولو حتّى بالمطر الصّناعيّ، كما نرى في عرفة مثلاً ينزل عليها المطر الصّناعيّ فيخضرُّ الوادي، لكن حينما ينقطع الماء يعود كما كان لعدم موالاة الماء، ولو والينا عليها بالماء لصارت غابات وأحراشاً وبساتين، والمطر لا يحتاج أنْ نُسوِّي له الأرض؛ لأنّه يسْقِي المرتفع والمنخفض على السّواء، على خلاف الأرض الّتي نسقيها نحن لا بُدَّ أن نُسوِّيها للماء حتّى يصل إليها جميعاً، فإذا أنزل الله ﷻ المطر على الأرض الجدباء الجرداء نراها تتفتّق بالنّبات، فمن أين جاءت هذه البذور؟ وكيف لم يُصِبْها العطب، وهي في الأرض طوال هذه الفترات؟ الأرض هي الّتي تحفظها من العطب إلى أن تجد البيئة المناسبة للإنبات، أمّا عن نَقْل هذه البذور في الصّحراء وفي الوديان، فهي تنتقل بواسطة الرّيح، أو مع رَوَث الحيوانات.

﴿مِن كُلِّ زَوۡجٍ﴾: الزّوج: بعضهم يظنّ أنّ الزّوج يعني الاثنين، إنّما الزّوج كلمة مفردة تدلّ على واحد مفرد معه مِثْله من جنسه، ففي قوله ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النّجم]، فكلّ منهما زوج، وكما نقول: زوج أحذية يعني فردة حذاء معها فردة أخرى مثلها، ومثلها كلمة توأم يعني مولود معه مثله، فكلّ واحد منهما يسمّى: (توأم)، وهما معاً (توأمان)، ولا نقول: هما توأم.

وهنا مظهر من مظاهر دِقَّة الأداء القرآنيّ: ﴿مِن كُلِّ زَوۡجٍ﴾؛ لأنّ كلّ المخلوقات، سواء أكانت جماداً أم نباتاً أم حيواناً، لا بُدَّ فيها من ذكر وأنثى، هذه الزّوجيّة قال الله ﷻ فيها: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ [الذّاريات: من الآية ٤٩]، حتّى في الجماد الّذي نظنّه جماداً لا حركةَ فيه، يتكّون من زوجين: سالب وموجب في الكهرباء، وفي الذّرّة، وفي المغناطيس، فكلُّ شيء يعطي أعلى منه، فلا بُدَّ فيه من زوجيْن، لذلك، فالحقّ ﷻ حينما عالج هذه المسألة عالجها برصيد احتياطيّ في القرآن الكريم، يقول ﷻ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يس]، فقوله ﷻ: ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: من الآية ٣٦]، رصيد عالٍ لما سيأتي به العلم من اكتشافات تثبت صِدْق القرآن الكريم على مَرِّ الأيّام، ففي الماضي عرفنا الكهرباء، وأنّها سالب وموجب، فقلنا: هذه ممّا لا نعلم، وفي الماضي القريب عرفنا الذّرّة، فقلنا: هذه ممّا لا نعلم، وهذا وجه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، فخُذْها قضيّة عامّة: كلّ شيء يتكاثر إلى أعلى منه، فلا بُدَّ أنّ فيه زوجيّة، فالزّوج من النّبات مفرد معه مثله، وهذا واضح في لقاح الذّكر والأنثى،

هذا اللّقاح قد يكون في الذّكر وحده، أو في الأنثى وحدها كما في النّخل مثلاً، وقد يكون العنصران معاً في النّبات الواحد كما في سنبلة القمح أو كوز الذّرة، ولو تأمّلنا نبات الذّرة لوجدنا له في أعلاه (شوشة) بها حبيبات دقيقة تحمل لقاح الذّكورة، وفي منتصف العود يخرج الكوز، وبه شعيرات تصل كلّ شعرة منها إلى حبّة من حبّات الذّرة المصطفّة على الكوز، وهذه تحمل لقاح الأنوثة، فإذا هبَّتْ الرّيح هزَّتْ أعلى العود فتساقطت لقاحات الذّكورة على هذه الشّعيرات فلقّحتها؛ لذلك نرى الحبّة الّتي لا يخرج منها شعرة إلى خارج الغلاف تضمر وتموت؛ لأنّها لم تأخذ حظّها من اللّقاح.

﴿بَهِيجٍ﴾: من البهجة، فالمراد: الشّيء حسن المنظر والجميل الّذي يجذب الأنظار إليه، وبهجة النّظر إلى النّبات شائعة لا تقتصر على مَنْ يملكه بخلاف الأكل منه، فحين تمرّ ببستان أو حديقة تتمتّع بمنظرها وجمال ألوانها وتُسَرُّ برائحتها وإن لم تكن لك، وفي النّفس الإنسانيّة ملكات تتغذّى على هذه الخضرة، وعلى هذه الألوان وتسعد بهذا الجمال، لذلك ينبّهنا الحقّ سبحانه وتعالى إلى هذه المسألة في قوله جل جلاله: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾ [الأنعام: من الآية ٩٩]؛ أي: أنّ النّظر مشاع للجميع، ثمّ بعد ذلك اتركوا الخصوصيّات لأصحابها، تمتّعوا بما خلق الله عزّ وجلّ، ففي النّفس ملكَات أخرى غير الطّعام، ولنقرأ أيضاً قوله سبحانه وتعالى في الخيل: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾ [النّحل]، فليست الخيل لحمل الأثقال فقط، وإنّما فيها جمال، يُرضِي شيئاً في النّفوس، ويُشْبع ملكَة من ملكاتها.

(الآية ٦) – ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾: أي: أنّ ما حدث في خَلْق الإنسان تكويناً، وما حدث في إنبات الزّرع تكويناً ونماءً، يردُّ هذا كلّه إلى أنّ الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، فلماذا أتى بالحقّ ولم يقُلْ: الخالق؟ قال العلماء: لأنّ الخالق قد يخلق شيئاً ثمّ يتخلّى عنه، أمّا الله سبحانه وتعالى فهو الخالق الحقّ، ومعنى الحقّ؛ أي: الثّابت الّذي لا يتغيّر، كذلك عطاؤه لا يتغيّر، وهو عطاء دائم لا ينفد، وإذا نظرنا إلى الوجود كلّه لوجدناه دورة مكرّرة، فالله عز وجل قد خلق الأرض وقدّر فيها أقواتها، فمثلاً كمّيّة الماء الّتي خلقها سبحانه وتعالى في الكون ثابتة لم تَزِدْ ولم تنقص، وكلّ ما في الوجود له دورة يدور فيها، وهذا معنى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ [فصّلت: من الآية ١٠].

﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾: كما قُلْنا في الآية السّابقة: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ﴾ [الحجّ: من الآية ٥]؛ أي: ساكنة لا حياةَ فيها، والله سبحانه وتعالى وحده القادر على إحيائها؛ لذلك نجد علماء الفقه يُسمُّون الأرض الّتي نصلحها للزّراعة (إحياء الموات) فالله سبحانه وتعالى هو القادر وحده على إحياء كلّ ميت؛ لذلك يقول بعدها:

﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾: وما دام الأمر كذلك، وما دُمْتم تشاهدون آية إحياء الموات في الأرض الميّتة، فلا تنكروا البعث وإعادتكم بعد الموت.

(الآية ٧) – ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧﴾:

وقد سبق أن أنكروا البعث بعد الموت، وقالوا: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ١٧﴾ [الصّافّات]، فيردُّ عليهم الحقّ سبحانه وتعالى: نعم،

سنعيدكم بعد الموت، والّذي خلقكم من لا شيءَ قادرٌ على إعادتكم من باب أَوْلَى؛ لذلك يقول جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ [الرّوم: من الآية ٢٧]، والحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا يخاطبنا على قَدْر عقولنا؛ لأنّنا نفهم أنّ الخَلْق من موجود أهون من الخَلْق من عدم، أمّا بالنّسبة إلى الخالق عَزَّ وَجَلَّ فليس هناك سَهْل وأسهل، ولا هَيِّن وأهْون.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾: كأنّ عمليّة إحياء الموتى ليست مُنْتهى قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ، إنّما في قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كثير من الآيات والعجائب.

﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾: أي: لا شَكَّ فيها.

والسّاعة: أي: زمن القيامة وموعدها، لكنّ القيامة ستكون للحساب والفَصْل بين النّاس، فلا بُدَّ من بَعْثهم من القبور؛ لذلك يقول بعدها:

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾: فكُلُّ ما تقدّم ناشئ من أنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الحقّ؛ ولأنّه جَلَّ جَلَالُهُ الحقّ، فهو يُحيي الموتى، وهو على كلّ شيء قدير، والسّاعة آتية لا رَيْبَ فيها، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبعث مَنْ في القبور.

(الآية ٨) - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: تكلّمنا في أوّل السّورة عن الجدل بالعلم والموعظة الحسنة، وقلنا: إنّ العلم إمّا علم بَدْهيّ أو علم استدلاليّ عقليّ، أو علم بالوحي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أمّا هؤلاء الّذين يجادلون في الله عَزَّ وَجَلَّ بغير علم بدهيّ، ﴿وَلَا هُدًى﴾: يعني: علم استدلاليّ عقليّ، ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾: يعني: وحي من الله عَزَّ وَجَلَّ، فهؤلاء أهل سفسطة وجدل عقيم لا فائدة منه، وعلى

العاقل حين يصادف مثل هذا النّوع من الجدال ألّا يجاريه في سفسطته؛ لأنّه لن يصل معه إلى مفيد، إنّما عليه أنْ ينقله إلى مجال لا يحتمل السّفسطة، ولنا في هذه المسألة مثَلٌ وقُدْوة بسيّدنا إبراهيم عليه السلام حينما جادل النّمرود، ولنقرأ قول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٨]، لقد اتّبع النّمرودُ أسلوب السَّفْسَطة حين قال: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٨]؛ لأنّه ما فعل حقيقةَ الموت، ولا حقيقة الحياة، فأراد إبراهيم عليه السلام أن يُلجئه إلى مجال لا سفسطة فيه؛ لينهي هذا الموقف ويسدّ على خَصْمه باب اللّدد والتّهريج، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٨]، وكانت النّتيجة أنْ حَارَ عدوّ الله جواباً: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٨]؛ أي: دُهِش وتحيَّر.

(الآية ٩) - ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾:

﴿ثَانِىَ﴾: ثَنَى الشّيء، يعني: لَواه.

﴿عِطْفِهِۦ﴾: جَنْبه.

والإنسان في تكوينه العامّ له رأس ورقبة وكتفان، وله جانبان وظَهْر، وهذه الأعضاء تُؤَدّي دَوْراً في حياته وحركته، وتدلّ على تصرّفاته، فالّذي يجادل في الله سبحانه وتعالى عن غير علم ولا هدى ولا كتاب منير يَثْني عنك جانبه، ويَلْوي رأسه، ليس لأنّ كلامك باطل، وإنّما لأنّه أفلس وليست لديه الحجّة

الّتي يواجه بها، فلا يملك إلّا هذه الحركة؛ لذلك يُسمَّى هذا الجدل: (مراءً)، ومنه قوله ﷻ: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾ [النّجم]، يعني: أتجادلون رسول الله ﷺ في أمرٍ رآه؟ والمراء: هو الجَدل العنيف، كذلك المجادل بالباطل، أو المجادل بلا علم ولا حجّة تراه يكابر ليأخذ آخر ما عند خَصْمه، وهذا لجج أو مكابرة، والقرآن الكريم يعطينا صورة لهذا الجدل والإعراض عن الحقّ، فيقول ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ۝٥﴾ [المنافقون].

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾: هذه عِلَّة ثَنْي جانبه؛ لأنّه يريد أنْ يُضلّ مَنِ اهتدى، ولا يقبل الدّلائل الّتي يقدّمها الإنسان الصّحيح.

﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾: والخِزْي: الهوان والذِّلَّة، هذا جزاء الدّنيا قبل جزاء الآخرة، وقد حدث للكفّار هذا الخزي يوم بدر.

﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾: فهذا الخِزْيُ الّذي رَأَوْه في الدّنيا لن يُفلتهم من خِزْي وعذاب الآخرة.

﴿ٱلۡحَرِيقِ﴾: هو الّذي يحرق غيره من شِدتّه، والمراد به عذاب جهنّم.

(الآية ١٠) - ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝١٠﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: يعني خِزْي الدّنيا وعذاب الحريق في الآخرة بما قدَّمتْ، وبما اقترفت يد الإنسان، لا ظُلْماً من الله ﷻ ولا اعتداء، فالإنسان هو الّذي ظلم نفسه، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝١١٨﴾ [النّحل: من الآية ١١٨]، ولم يأخذهم الله ﷻ دون إنذار، ودون أن يُجرِّم الفعل، فالله ﷻ أرسل لهم الرّسل وأرسل لهم الكتب، ولكنّهم عصوا وأبوا وتكبّروا.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾: ظلَّام: صيغة مبالغة من الظّلم، تقول: ظالم، فإنْ أردتَ المبالغة تقول: ظلَّام، كما تقول: فلان آكل وفلان أكُول، فالفعل واحد، لكن ما ينشأ عنه مختلف، والمبالغة في الفعل قد تكون في الفعل نفسه أو في تكراره، فمثلاً قد تأكل في الوجبة الواحدة رغيفاً واحداً، وقد تأكل خمسة أرغفة هذه مبالغة في الوجبة الواحدة، فأنت تأكل ثلاث وجبات، لكن تبالغ في الوجبة الواحدة، وقد تكون المبالغة في عدد الوجبات فتأكل في الوجبة رغيفاً واحداً، لكن تأكل خمس وجبات، فهذه مبالغة بتكرار الحدث، وصيغة المبالغة لها معنى في الإثبات ولها معنى في النّفي: إذا قُلْتَ: فلان أكول، وأثبتَّ له المبالغة فقد أثبتَّ له أصل الفعل من باب أَوْلَى فهو آكل، وإذا نفيتَ المبالغة فنَفْي المبالغة لا ينفي الأصل، تقول: فلان ليس أكولاً، فهذا لا ينفي أنّه آكل، فإذا طبَّقنا هذه القاعدة على قوله جل جلاله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾، فهل هذا يعني أنّه سبحانه وتعالى (ظالم) حاشا لله؟ وهنا نقول: هناك آيات أخرى تنفي الفعل، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف: من الآية ٤٩]، وقوله جل جلاله: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦﴾ [الزّخرف]، كما أنّ صيغة المبالغة هنا جاءت مضافة للعبيد، فعلى فرض المبالغة تكون مبالغة في تكرار الحدث ﴿بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾، ظلم هذا، وظلم هذا، فالمظلوم عبيد، وليس عبداً واحداً، والظّلم في حقيقته أن يأخذ القويُّ حَقَّ الضّعيف، ويكون الظّلم على قَدْر قوّة الظّالم وقدرته، وعلى هذا إنْ جاء الظّلم من الله سبحانه وتعالى وعلى قَدْر قوّته وقدرته فلا شكَّ أنّه سيكون ظُلْماً شديداً لا يتحمّله أحد، فلا نقول: ظالم بل ظلّام، وهكذا يتمشّى المعنى مع صيغة المبالغة، فالحقّ سبحانه وتعالى ليس بظلّام للعبيد؛ لأنّه

بيَّن الحلال والحرام، وبيَّن الجريمة ووضع لها العقوبة، وقد بلَّغَتْ الرّسل من بداية الأمر، فلا حُجَّةَ لأحد.

(الآية ١١) - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾: العبادة: أنْ تطيع الله سبحانه وتعالى فيما أمر فتنفّذه، وتطيعه فيما نهى فتجتنبه، بعض النّاس يعبد الله عز وجل هذه العبادة طالما هو في خير دائم وسرور مستمرّ، فإذا أصابه شَرٌّ أو وقع به مكروه ينقلب على وجهه:

﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾: والحقّ سبحانه يريد من عبده أنْ يُقبل على عبادته في ثبات إيمان، لا تزعزعه الأحداث، ولا تهزّ إيمانه فيتراجع، ربّنا يريدنا عباداً له في الخير والشّرّ، في السّرّاء والضّرّاء، فكلاهما فتنة واختبار، وما آمنّا بالله سبحانه وتعالى إلّا لأنّنا علمنا أنّه إله حكيم عادل قادر، ولا بدّ أنْ نأخذ ما يجري علينا من أحداث في ضوء هذه الصّفات، فإنْ أثقلتْنا الحياة فلنعلم أنّ وراء هذه حكمة، ولنقرأ قول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العلق]، وقوله عز وجل: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥﴾ [الأنبياء: من الآية ٣٥]، لا بُدَّ أنْ نعرف هذه الحقائق، وأنْ نؤمن بحكمة الله جل جلاله في كلّ ما يُجريه علينا، سواء أكان نعيماً أم بُؤْساً، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: من الآية ٢١٦]، فالابتلاءات لها

مغانم، ومن ورائها حِكَم؛ لأنّها ناشئة وجارية علينا بحكمة ربّنا وخالقنا، وليست من سَعْينا ولا من عمل أيدينا، فلنعبد الله بإخلاص وإيمان ثابت في الخير والشّرّ.

ومعنى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾: الحرف: هو طرف الشّيء، فمَنْ يعبد الله سبحانه وتعالى على حرف، يعني: لم يتمكّن الإيمان من قلبه، وسرعان ما يُخرِجه الابتلاء عن الإيمان؛ لأنّه عبد الله عبادةً غير متمكّنة باليقين الّذي يصدر عن المؤمن بإله حكيم فيما يُجريه على عبده، والآية لم تترك شيئاً من هواجس النّفس البشريّة سواء في الخير أم الشّرّ.

ولنتأمّل قول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ﴾: وكذلك: ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾: فأنت لا تقول: أصبتُ الخيرَ، إنّما الخير هو الّذي أصابك وأتاك إلى بابك، فأنت لا تبحث عن رزقك بقدر ما يبحث هو عنك؛ لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطّلاق: من الآيتين ٢-٣]، ويقول أهل المعرفة: "رِزْقك أعلم بمكانك منك بمكانه"، يعني يعرف عنوانك، أمّا أنت فلا تعرف عنوانه، بدليل أنّك قد تطلب الرّزق في مكان فلا تُرزَق منه بشيء.

كذلك نلحظ في هذه الآية: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾، ولم يقابل الخير بالشّرّ، إنّما سمّاها: ﴿فِتۡنَةٌ﴾؛ أي: اختبار وابتلاء؛ لأنّه قد ينجح في هذا الاختبار فلا يكون شرّاً في حَقِّه.

﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾: يعني: عكس الأمر، فبعد أنْ كان عابداً طائعاً انقلب إلى الضِّدِّ فصار عاصياً.

﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾: وخسْران الإنسان لعبادته خسران كبيرٌ لا يُجْبَر ولا يُعوِّضه شيء؛ لذلك يقول بعدها:

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾: فهل هناك خُسْران مبين، وخسران غير مبين؟ نعم: الخسران هو الخسارة الّتي تُعوَّض، أمّا الخسارة الّتي لا عِوضَ لها فهذا هو الخسران المبين الّذي يُلازم الإنسان ولا ينفكُّ عنه، وهو خُسْران لا يقتصر على الدّنيا فقط، فيمكن أنْ تُعوِّضه أو تصبر عليه، إنّما يمتدّ للآخرة حيث لا عِوضَ لخسارتها ولا صَبْر على شِدَّتها، فالخسران المبين؛ أي: المحيط الّذي يُطوِّق صاحبه، وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «عَجَباً لِأَمْرِ المُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ»(١)، والصّبر عند البلاء، والشّكر عند الرّخاء مرتبة من مراتب الإيمان، ومرحلة من مراحل اليقين في نفس المؤمن، وهي بداية وعَتَبة تتلوها مراحل أخرى، حَسْب قوّة الإيمان، فلنسمع إلى هذا الحوار الّذي دار بين أهل المعرفة من الزُّهَّاد، وكيف كانوا يتباروْنَ في الوصول إلى المراقي الإيمانيّة، ويتنافسون فيها، لا عن مُبَاهاة ومفاخرة، إنّما عن نيّة خالصة في الرُّقيّ الإيمانيّ، يسأل أحد هؤلاء المتمكّنين صاحبه: كيف حال الزّهّاد في بلادكم؟ فقال: إن أصابنا خير شكرنا، وإن أصابنا شَرٌّ صبرنا، فضحك الشّيخ وقال: "وما في ذلك؟! أمّا عندنا: فإنْ أصابنا خير آثرنا، وإنْ أصابنا شَرٌّ شكرنا"، وهذه ليست مباهاة إنّما تنافس، فكلا الرّجلين زاهد سالك لطريق الله ﷻ، يرى نفسه محسوباً على هذا الطَّريق، فيحاول أنْ يرتقيَ فيه إلى أعلى مراتبه، فإيّاك أنْ تظنّ أنّ الغاية عند الصّبر

---

(١) صحيح مسلم: كِتَابُ الزّهد والرّقائق، بَابُ المُؤْمِنُ أَمرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، الحديث رقم (٢٩٩٩).

على البلاء والشُّكْر على العطاء، فهذه البداية وبعدها منازل أعْلَى ومَراقٍ أسمى لمن طلبَ العُلَا، وشمَّر عن ساعد الجدّ في عبادة الله سبحانه وتعالى.

ثمّ يقول الحقّ سبحانه وتعالى عن هذا الّذي يعبد الله على حرف:

(الآية ١٢) - ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥٓ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ١٢﴾:

﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾: هل الصّنم الّذي يعبده الكافر من غير الله عزّ وجلّ يمكن أن يضرّه؟ لا، الصّنم لا يضرّ، إنّما الّذي يضرّه حقيقة مَنْ عانده وانصرف عن عبادته، تضرّه الرّبوبيّة الّتي يعاندها، فما معنى: ﴿يَضُرُّهُۥ﴾ هنا؟ المعنى: لا يضرّه إن انصرف عنه ولم يعبده، ولا ينفعه إنْ عبده.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾: نعم ضلال؛ لأنّ الإنسان يعبد ويطيع مَنْ يرجو نفعه في أيِّ شيء، أو يخشى ضرّه في أيِّ شيء، وقد ذكرنا سابقاً قول بعض العارفين: "واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه"، ولو قلنا هذه المقولة لأبنائنا في الكتب الدّراسيّة، واهتمَّ بها القائمون على التّربية لما أغرى الأولاد بعضهم بعضاً بالفساد، ولوقفَ الولد يفكّر مرّة وألف مرّة في توجيهات ربّه، ونصائح أبيه وأمّه، وكيف أنّه سيترك كلّ سوء من أجل أن يأخذ بهذه التّوجيهات والمبادئ السّامية، لا بُدَّ أنْ نُطعِّم أبناءنا بمبادئ الإسلام وأخلاقه وقيمه، ولنلحظ في هذه الآية أنّ الضّرّ سابق للنّفع: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥٓ﴾؛ لأنّ دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة؛ لأنّ المفسدة خروج الشّيء عن استقامة تكوينه، والنّفع يزيدنا ويضيف إلينا، أمّا الضّرّ فينقصنا،

لذلك خَيْر لنا أنْ نظلّ كما نحن لا ننقص ولا نزيد، فإذا وقف الإنسان أمام أمرين: أحدهما يجلب خيراً، والآخر يدفع شرّاً، فلا شَكَّ أنّه سيختار دَفْع الشّرّ أوّلاً، ويشتغل بدَرْءِ المفسدة قبل جَلْب المصلحة، وضربنا لذلك مثلاً: هَبْ أنّ إنساناً سيرمي لك بتفاحة، وآخر سيرميك بحجر في الوقت نفسه، فماذا تفعل؟ تأخذ التّفاحة، أو تتّقي أَذى الحجر؟ هذا هو معنى: دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة.

(الآية ١٣) - ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ۝١٣﴾:

﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾: الآية السّابقة تُثبت أنّه يدعو مَا لا يضُرُّه ومَا لا ينفعه، وهذه الآية تُثبت أنّه يدعو مَنْ ضَرره أقرب من نَفْعه، صيغة أفعل التّفضيل، ﴿أَقۡرَبُ﴾ تدلّ على أنّ شيئين اشتركا في صفة واحدة، إلّا أنّ أحدهما زاد عن الآخر في هذه الصّفة، فلو قُلْتَ: فلان أحسن من فلان، فهذا يعني أنّ كلاهما حَسَن، لكن زاد أحدهما عن الآخر في الحُسْن. فهناك نَفْع وهو قريب، لكنّ الضّرّ أقرب منه، فهذه الآية في ظاهرها تُناقِض الآية السّابقة، والحقيقة ليس هناك تناقض، ولا بُدَّ أنْ نفهمَ هذه المسألة في ضوء قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ۝٨٢﴾ [النّساء: من الآية ٨٢]، فالأوثان الّتي كانوا يعبدونها كان لها سَدَنة يتحكّمون فيها وفي عابديها، فإذا أرادوا من الآلهة شيئاً، قالوا للسّدنة: ادعوا الآلهة لنا بكذا وكذا، فكان لهم نفوذ وسُلْطة زمنيّة، وكانوا هم الواسطة بين الأوثان وعُبَّادها، وهذه

الواسطة كانت تُدِرُّ عليهم كثيراً من الخيرات وتعطيهم كثيراً من المنافع، فيأخذون ما يُهْدَى للأوثان كلّه، لكنّ هذا النّفع في الدّنيا فقط، ثمّ يتركونه بالموت، فمدّة النّفع قصيرة، وربّما أتاه الموت قبل أنْ يستفيد ممّا أخذه، وإنْ جاء الموت فلا إيمانَ ولا عملَ ولا توبةَ، وهذا معنى: ﴿ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾؛ لذلك يقول ﷻ بعدها:

﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾: كلمة (بئس) تُقَال للذّمّ، وهي بمعنى: ساء وقَبُح.

﴿ٱلْمَوْلَىٰ﴾: الّذي يليك ويقرُب منك، ويُراد به النّافع لك؛ لأنّك لا تقرِّب إلّا النّافع لك، إمّا لأنّه يعينك وقت الشّدّة، ويساعدك وقت الضّيق، وينصرك إذا احتجتَ لِنُصْرته، وهذا هو الوليُّ، وإمّا أنْ تُقرِّبه منك؛ لأنّه يُسليك ويجالسك وتأنس به، لكنّه ضعيف لا يقوى على نُصْرتك، وهذا هو العشير، والأصنام الّتي يعبدونها بئست المولى؛ لأنّها لا تنصرهم وقت الشّدّة، وبئست العشير؛ لأنّها لا تُسليهم، ولا يأنسون بها في غير الشّدّة.

(الآية ١٤) - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾:

بعد أن تكلّم الله ﷻ عن الكفّار وأهل النّار ومَنْ يعبدون الله ﷻ على حَرْف، كان لا بُدَّ أنْ يأتِيَ بالمقابل؛ لأنّ النّفس عندها استعداد للمقارنة والتّأمّل في أسباب دخول النّار، وفي أسباب دخول الجنّة، وهذا أَجْدى في إيقاع الحجّة، ومن ذلك أيضاً قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي

جَحِيمٖ ١٤﴾ [الانفطار]، وقوله ﷻ: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ [التوبة: من الآية ٨٢]، فذِكْر النّعمة وحدها دون أنْ تقابلها النِّقْمة لا تُؤتِي الأثر المطلوب، لكن حينما تقابل النّعمة بالنّقمة، وَسَلْب الضّرّ بإيجاب النّفع فإنَّ كلاهما يُظهر الآخر، والضّدّ يُظهر حسنه الضّدّ؛ لذلك يقول ﷻ: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: من الآية ١٨٥]، فإنْ آمنتَ لا تُزَحْزح عن النّار فقط -مع أنّ هذه في حَدِّ ذاتها نعمة- لكن تُزَحْزح عن النّار وتدخل الجنّة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: الإيمان: عمل قلبيّ ومواجيد تطمئنّ بها النّفس، لكنّ الإيمان له مطلوب: فأنت آمنتَ بالله ﷻ، واطمأنَّ قلبك إلى أنّ الله ﷻ هو الخالق الرّازق واجب الوجود.. إلخ، فما مطلوب هذا الإيمان؟ مطلوب الإيمان أنْ تستمع لأوامره؛ لأنّه حكيم، وتثق في قدرته؛ لأنّه قادر، وتخاف من بطشه؛ لأنّه جبّار، ولا تيأس من بَسْطه؛ لأنّه باسط، ولا تأمن قبضه؛ لأنّه قابض، لقد آمنتَ بهذه القضايا كلّها، فحين يأمرك بأمر فعليك أنْ تستحضر حيثيّات هذا الأمر، وأنت واثق أنّ ربك ﷻ لم يأمرك ولم يَنْهَكَ من فراغ، إنّما من خلال صفات الكمال فيه ﷻ، أو صفات الجلال والجبروت، فاستحضر في أعمالك كُلِّها، وفي كُلِّ ما تأتي أو تدع هذه الصّفات، لذلك جمعت الآية بين الإيمان والعمل الصّالح: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾، وفي سورة العصر: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر]، فالتّواصي بالحقّ والصّبر على الشّدائد من الاستجابة لداعي الإيمان وثمرة من ثماره؛ لأنّ المؤمن سيتعرَّض في رحلة الحياة لفِتَن كثيرة قد تزلزله، وسيواجه سُخْرية

واستهزاءً، وربما تعرَّض لألوان العذاب، فعليه أنْ يتمسَّك بالحقّ ويتواصى به مع أخيه، وعليه أن يصبر، وأنْ يتواصى بالصّبر مع إخوانه ومجتمعه؛ ذلك لأنّ الإنسان قد تعرض له فترات ضَعف وخَوَر، فعلى القويّ في وقت الفتنة أنْ ينصحَ الضّعيف، وربّما تبدَّل هذا الحال في موقف آخر وأمام فتنة أخرى، فَمنْ أوصيْتَه اليوم بالصّبر ربّما يوصيك غداً، وهكذا يُثمِر في المجتمع الإيمانيّ التّواصي بالحقّ والتّواصي بالصّبر، فتواصَوْا؛ لأنّكم ستتعرّضون لِهزّات ليست هزّات شاملة جامعة، إنّما هزّات يتعرّض لها بعضكم دون الآخر، فإنْ ضعُفْتَ وجدتَ من مجتمعك مَنْ يُواسيك: اصبر، تجلّد، احتسب، وإيّاك أنْ تُزحزحك الفتنة عن الحقّ، أو تخرج عن الصّبر، وهذه هي عناصر النّجاة الّتي ينبغي للمؤمنين التّمسّك بها: إيمان، وعمل صالح، وتواصٍ بالحقّ، وتواصٍ بالصّبر.

﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾: الجنّات: هي الحدائق والبساتين المليئة بأنواع المتع: الزّرع، والخضرة، والنّضارة، والزّهور، والرّائحة الطّيّبة، وهذه كلّها بنات الماء؛ لذلك قال ﷻ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾، ومعنى: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾: أنّ الماء ذاتيٌّ فيها، لا يأتيها من مكان آخر قد ينقطع عنها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾: لأنّه ﷻ لا يُعْجِزه شيء، ولا يعالج أفعاله كما يعالج البشر أفعالهم: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس]، ولو تأمّلنا هذه الآية لوجدنا الشّيء الّذي يريده الله ﷻ، ويأمر بكونه موجوداً في الحقيقة، بدليل أنّ الله ﷻ يخاطبه: ﴿يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: من الآية ٨٢]، فهو كائن فعلاً، وموجود حقيقةً، والأمر هنا إنّما هو لإظهاره في عالم المشاهدة.

(الآية ١٥) - ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾:

﴿يَظُنُّ﴾: تفيد عِلْماً غير يقينيّ وغير مُتأكّد، وسبق أنْ تكلَّمنا في نسبة القضايا، فهناك حكم محكوم به ومحكوم عليه، تقول: زيد مجتهد، فأنت تعتقد في نِسْبة الاجتهاد لزيد، فإنْ كان اعتقادك صحيحاً فتستطيع أنْ تُقدِّم الدّليل على صحّته فتقول: بدليل أنّه ينجح كلّ عام بتفوّق، أمّا إذا اعتقد هذه القضيّة، ولم يُقدِّم عليها دليلاً كأنْ سمع النّاسَ يقولون: زيد مجتهد، فقال مثلهم، لكن لا دليلَ عنده على صِدْق هذه المقولة، تماماً كالطّفل الّذي نُلقّنه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص]، هذه قضّية واقعيّة يعتقدها الولد، لكن لا يستطيع أنْ يُقدِّم الدّليل عليها إلّا عندما يكْبر ويستوي تفكيره، وقد أخذها من أبيه أو أستاذه ثمّ قلَّده، فهذه القضيّة الواقعة، الّتي لا نستطيع أنْ نقيم الدّليل عليها هي تقليد، فإن أقمْنا الدّليل عليها، فهذا أسمْى مراتب العلم، أمّا إنِ اعتقدنا قضيّةً غير واقعيّةٍ، فهذا جهل، فالجاهل: مَنْ يعتقد شيئاً غير واقع، وهذا الّذي يُتعِب الدّنيا كلّها، ويُشقي من حوله؛ لأنّ الجاهل الأمّيّ الّذي لا يعلم شيئاً، وليست لديه فكرة يعتقدها، هو صفحة بيضاء، تستطيع أنْ تقنعه بالحقيقة ويقبلها منك؛ لأنّه خالي الذّهن ولا يعارضك، فإنْ تشكّكتَ في النّسبة بحيث استوت عندك نسبة الخطأ مع نسبة الصّواب، فهذا هو الشَّكُّ، فلا تستطيع أنْ تجزم باجتهاد زيد، ولا بعدم اجتهاده، فإنْ غلب الاجتهاد فهو ظَنٌّ، فإنْ غلب عدم الاجتهاد فهو وَهْم، فنسبة القضايا إمّا علم تعتقده: وهو واقع،

وتستطيع أنْ تقيمَ الدّليل عليه، أو تقليد: وهو ما تعتقده وهو واقع، لكن لا تقدر على إقامة الدّليل عليه، أو جهل: حين تعتقد شيئاً غير واقع، أو شكّ: حين لا تجزم بالشّيء، ويستوي عندك النّفي والإثبات، أو ظنّ: حين تُرجِّح الإثبات، أو وهم: حين تُرجِّح النّفي، فالظّنّ في قوله ﷻ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يمرُّ بخاطره مجرّد مرور أنّ الله ﷻ لن ينصر محمّداً، أو يتوهّم ذلك -ولا يتوهّم ذلك إلّا الكفّار؛ لأنّهم يأملون ذلك في معركة الإيمان والكفر- فعليه أنْ ينتهيَ عنه؛ لأنّه أمر بعيد، لن يحدث ولن يكون، وقد ظَنَّ الكفّار هذا الظّنّ حين رَأَوْا بوادر نصر الإيمان وعلامات فوزه، فاغتاظوا لذلك، ولم يجدوا شيئاً يريح خاطرهم إلّا هذا الظّنّ؛ لذلك يردُّ الله ﷻ غيظهم عليهم، فيقول لهم:

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾: ستظلّون بغيظكم؛ لأنّ النّصر للإيمان ولجنوده مستمرّ، فليس أمامك إلّا أنْ تجعل حبلاً في السّماء، وتربط عنقك به، تشنق نفسك حتّى تقع، فإنْ كان هذا الكيد لنفسك يُنجيك من الغيظ فافعل، لكن ما الغيظ؟ الغيظ: نوع من الغضب مصحوب ومشُوب بحزن وأَسَىً وحَسْرة حينما ترى واقعاً يحدث أمام عينيك ولا يرضيك، وفي الوقت نفسه لا تستطيع أن تفعل شيئاً تمنع به مَا لا يُرضيك، وهذه المادة (غيظ) موجودة في مواضع أخرى من كتاب الله ﷻ، وقد استُعْملَتْ حتّى للجمادات الّتي لا تُحِسُّ، فلنقرأ قول الله ﷻ عن النّار: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: من الآية ٨]، وقال: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان]، فكأنّ النّار مغتاظة من هؤلاء، تتأهّب لهم وتنتظرهم،

والغَيْظ يقع للمؤمن والكافر، فحين نرى عناد الكفّار وسُخريتهم واستهزاءهم بالإيمان نغتاظ، لكن يُذهب الله ﷿ غيْظ قلوبنا، كما قال ﷻ: ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ [التّوبة: من الآية ١٥]، أمّا غيْظ الكفّار من نصْر الإيمان فسوف يَبْقى في قلوبهم، فربُّنا ﷻ يقول لهم: ثقُوا تماماً أنّ الله ﷻ لم يرسل رسولاً إلّا وهو ضامن أنْ ينصره، فإنْ خطر ببالكم خلافُ ذلك، فلن يُريحكم ويَشْفي غيظكم إلّا أنْ تشنقوا أنفسكم؛ لذلك خاطبهم الله ﷻ في آية أخرى فقال: ﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: من الآية ١١٩].

﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾: من مدَّ الشّيء، يعني: أطاله بعد أنْ كان مجتمعاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ [الحجر: من الآية ١٩]، عندما تسير تجد أرضاً ممتدّة ليس لها نهاية.

﴿بِسَبَبٍ﴾: السّبب: الحبل، يُخرجون به الماء من البئر، لكن هل يستطيع أحد أنْ يربط حبلاً في السّماء؟ لقد علَّق المسألة على محال، وكأنّه يقول لهم: حتّى إنْ أردتم شَنْق أنفسكم فلن تستطيعوا، وسوف تظلُّون هكذا بغيظكم.

أو: يكون المعنى: ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، يعني: سماء البيت وسقفه، كمَنْ يشنق نفسه في سَقْف البيت، ويمكن أن نفهم (السّبب) على أنّه أيّ شيء يُوصِلك إلى السّماء، وأيّ وسيلة للصّعود، فيكون المعنى: خذوا أيّ طريقة تُوصِلكم إلى السّماء لتمنعوا عن محمّد ﷺ أسباب النّصر؛ لأنّ نَصْر محمّد ﷺ يأتي من السّماء فامنعوه، وهذه أيضاً لا يقدرون عليها، ونلحظ أنّنا نتكلّم عن محمّد ﷺ، مع أنّ الآية لم تذكر شيئاً عنه، وكلّ ما جاء في الآية ضمير الغائب المفرد في قوله ﷻ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾، والحديث مُوجَّه للكفّار المغتاظين من

بوادر النّصر لركْب الإيمان، فقوله: ﴿يَنصُرَهُ﴾، ينصر مَنْ؟ لا بُدَّ أنّه محمّد ﷺ، لماذا؟ قالوا: لأنّ الأسماء حينما تُطلَق تدلُّ على مَعَانٍ، فعندما تقول: (سماء)، نفهم المراد، وعندما تقول: (قلب)، نعرف المراد، والأسماء إمّا اسم ظاهر، مثل: محمّد وعليّ وعمر وأرض وسماء، وإمّا ضمائر، مثل: أنا، أنت، هو، هم، والضّمير مُبْهم لا يُعيّنه إلّا التّكلُّم، فأنت تقول: أنا، وكذلك غيرك يقول: أنا أو نحن، فالّذي يُعيِّن الضّمير المتكلّم به حال الخطاب، فعُمدْة الفهم في الضّمائر ذات المتكلّم وذات المخاطب، فالمقام مُتعيّن أنّه لا يعود الضّمير إلّا على رسول الله ﷺ.

(الآية ١٦) - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ۝١٦﴾:

﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾: أي: القرآن الكريم؛ لأنّ الضّمير هنا كما ذكرنا مرجعه مُتعيّن، وما دام مرجعه مُتعيّناً فلا يحتاج إلى ذكر سابق، والإنزال يحمل معنى العلوّ، فإنْ رأيتَ في هذا التّشريع الّذي جاءك في القرآن الكريم ما يشقُّ عليك أو يحولُ بينك وبين ما تشتهيه نفسك، فاعلم أنّه من أَعْلى منك، من الله جل جلاله، وليس من مُسَاوٍ لك، يمكن أنْ تستدرك عليه أو تناقشه: لماذا هذا الأمر؟ ولماذا هذا النّهي؟ طالما أنّ الأمر يأتيك من الله عز وجل، فلا بُدَّ أن تسمع وتطيع، ولنا أُسْوة في هذا التّسليم بسيّدنا أبي بكر رضي الله عنه لـمّا قالوا له: إنّ صاحبك يقول: إنّه أُسْرِي به اللّيلة من مكّة إلى بيت المقدس، ثمّ عُرِج به إلى السّماء، فما كان من الصِّديّق إلّا أنْ قال: إنْ كان قال فقد صدق، هكذا دون مناقشة.

﴿ءَايَـٰتٍۭ﴾: أي: معجزات.

﴿بَيِّنَـٰتٍ﴾: واضحات.

وسبق أنْ ذكرنا أنّ كلمة الآيات تُطلَق على معَانٍ ثلاثة: الآيات الكونيّة الّتي تُثبِت قدرة الله ﷻ، وبها يستقرّ الإيمان في النّفوس، ومنها اللّيل والنّهار والشّمس والقمر، والآيات بمعنى المعجزات المصاحبة للرّسل لإثبات صِدْق بلاغهم عن الله سبحانه وتعالى، والآيات الّتي يتكوّن منها القرآن الكريم، وتُسمَّى: (حاملة الأحكام)، فالمعنى هنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ تحمل كلمة الآيات هذه المعاني كُلّها، فآيات القرآن الكريم فيها الآيات الكونيّة، وفيها المعجزة، وهي ذاتها آيات الأحكام.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾: وهذه من المسائل الّتي وقف النّاس حولها طويلاً: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النّحل: من الآية ٩٣]، فبعض النّاس الّذين يحبّون المجادلة، يقولون: لم يُرِدِ الله سبحانه وتعالى لنا الهداية، فماذا نفعل؟ وما ذنبنا؟ وهذه وقفة عقليّة خاطئة؛ لأنّ الوَقْفة العقليّة تقتضي أنْ تذكر الشّيء ومقابله، أمّا هؤلاء فقد نبّهوا العقل للتّناقض في واحدة وتركوا الأخرى، فهي وَقْفة تبريريّة، فالضّالّ الّذي يقول: لقد كتب الله سبحانه وتعالى عليَّ الضّلال، فما ذنبي؟ لماذا لم يَقُلْ: الطّائع الّذي كتب الله سبحانه وتعالى له الهداية، لماذا يثيبه؟! فلماذا تركتم الخير وناقشتم في الشّرّ؟ والمتأمّل في الآيات الّتي تتحدّث عن مشيئة الله ﷻ في الإضلال والهداية يجد أنّه سبحانه وتعالى قد بيّن مَنْ شاء أنْ يُضلّه، وبيّن مَنْ شاء أنْ يهديه، نقرأ قول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: من الآية ٦٧]، فكُفْره

سابق لعدم هدايته، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٦﴾ [المنافقون: من الآية ٦]، وقوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠﴾ [القصص: من الآية ٥٠]، إنّما يهدي مَنْ آمن به، أمّا هؤلاء الّذين اختاروا الكفر والفسوق والظّلم واطمأنّوا إليه وركنوا، فإنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يختم على قلوبهم، فلا يدخلها الإيمان، ولا يخرج منها الكفر؛ لأنّهم أحبُّوه فزادهم منه كما زاد المؤمنين إيماناً: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمّد: من الآية ١٧]، والهداية هنا بمعنى الدّلالة على الخير، وسبق أنْ ضربنا لها مثلاً، ولله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المثَل الأعلى: هَبْ أنّك تسلك طريقاً لا تعرفه، فتوقّفتَ عند شرطي المرور وسألته عن وجهتك فدلَّكَ عليها، ووصف لك الطّريق الموصِل إليها، لكن هل دلالته لك تُلزمك أنْ تسلك الطّريق الّذي وُصِف لك؟ بالتّأكيد أنت حُرٌّ تسير فيه أو في غيره، فإذا ما حفظتَ لرجل المرور جميلَهُ وشكرته عليه، ولمس هو فيك الخير، فإنّه يُعينك بنفسه على عقبات الطّريق، وربّما ركب معك ليجتاز بك منطقة خطرة، وربّما دلّك على استراحة على الطّريق، هذا معنى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمّد]، أمّا لو تعاليتَ على هذا الرّجل، أو اتّهمته بعدم المعرفة بمسالك الطّرق، فإنّه يدعُكَ وشأنك، ويضِنُّ عليك بمجرّد النّصيحة التّالية، وهكذا.. فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دَلَّ المؤمن ودَلَّ الكافر على الخير، المؤمن رضي بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقَبِل أمره ونَهْيه، وحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذه النّعمة، فزاده إيماناً وأعانه على مشقّة العبادة، وجعل له نوراً يسير على هَدْيه، أمّا الكافر فقد تركه يتخبّط في ظلمات كفره، ويتردّد في متاهات العمى والضّلال.

(الآية ١٧) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾:

هذه فئات ستّ أخبر الله ﷻ عنها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾، ومعنى الفصل بينهم أنّ بينهم خلافاً ومعركة، ولو تتبّعتَ الآيات الّتي ذكرت هذه الفئات تجد أنّ هناك آيتين، واحدة في البقرة وواحدة في المائدة، يقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [البقرة]، وفي المائدة يُقدِّم الصّابئين على النّصارى، يقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾ [المائدة].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي: بمحمّد ﷺ.

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: أي: اليهود، ثمّ النّصارى وهما قبل الإسلام.

﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: الصّابئون: جماعة كانوا على دين إبراهيم ؈، ثمّ عبدوا الكواكب فَسُمُّوا الصّابئة لخروجهم عن الدّين الحقّ.

﴿وَٱلۡمَجُوسَ﴾: هم عبدة النّار.

﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾: هم المشركون عَبَدة الأصنام والأوثان.

أمّا التّقديم والتّأخير بين النّصارى والصّابئين، قال العلماء: لأنّ النّصارى فرقة كبيرة معروفة ولهم نبيّ، أمّا الصّابئة فكانوا جماعة خرجوا على نبيّهم

وخالفوه، وأتَوْا بعقيدة غير عقيدته، فهم قلَّة، لكن سبقوا النّصارى في التّرتيب الزّمنيّ؛ لذلك حين يراعي السَّبْقَ الزّمنيّ يقول كما في هذه الآية: ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾، وحين يراعي الكثرة والشّهرة، يقول: ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ [البقرة: من الآية ٦٢]، فكلٌّ من التّقديم أو التّأخير مُراد لمعنى مُعيَّن، أمّا قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة: من الآية ٦٩]، بالرّفع على خلاف القاعدة في العطف، حيث عطفت على منصوب، والمعطوف تابع للمعطوف عليه في إعرابه، فلماذا وسَّط مرفوعاً بين منصوبات؟ قال العلماء: لا يتمّ الرّفع بين المنصوبات إلّا بعد تمام الجملة، فكأنّه قال: (إنّ الّذين آمنوا والّذين هادوا والنّصارى، والصّابئون كذلك)، فعطف هنا جملة تامّة، فهي مُؤخَّرة في المعنى، مُقدَّمة في اللّفظ، وهكذا تشمل الآية التّقديم والتّأخير السّابق، لكن، كيف ينشأ الخلاف بين الأديان؟ ينشأ الخلاف من أنّ قوماً يؤمنون بإله ويؤمنون بالنّبيّ المبلِّغ عن هذا الإله، لكنّهم يختلفون على أشياء فيما بينهم، كما نرى الخلاف مثلاً بين المعتزلة وأهل السُّنّة، أو الجبريّة والقدريّة، فجماعة تثبت الصّفات، وآخرون يُنكرونها، جماعة يقولون: الإنسان مُجبَر في تصرّفاته، وآخرون يقولون: بل هو مختار، وقد ينشأ الخلاف بين الأديان للاختلاف في النّبوّات، فأهل الدّيانات يؤمنون بالإله الفاعل المختار، لكن يختلفون في الأنبياء.. وهكذا، والله ﷻ يقول: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشّورى: من الآية ١٣].

فهذه ستّة أمور مختلفة ذكرتهم الآية، فما حكم هؤلاء جميعاً بعد بعثة النّبيّ محمّد عليه الصّلاة والسّلام؟ نقول: أمّا المشركون الّذين عبدوا الأصنام،

وكذلك الّذين عبدوا الشّمس والقمر، فهؤلاء كفّار ضائعون، أمّا أهل الكتاب الّذين يؤمنون بإله فاعل مختار، ويؤمنون بنبوّة صادقة، فشأنهم بعد ظهور الإسلام، أنّ الله ﷻ أقام لهم حكم أهل الكتاب، فهذه الأمور يجب أن نفرّق فيها وتكون واضحة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾: فالله ﷻ هو الّذي يتولّى الأمر، وهو الّذي يفصل بين الخلافات الّتي وردت، والفَصْل أن نعرف مَنِ المحقُّ ومَنِ المبطل، وهكذا جمعتْ الآيات بين حالة الاتّفاق وحالة الاختلاف وبيَّنَتْ أنّ الجزاء يكون من الله ﷻ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾: لأنّ الله ﷻ هو الحكَم الّذي يفصل بين عباده، والحكم يحتاج إمّا إلى بيّنة أو شهود، والشّهود لا بُدَّ أن يكونوا عُدولاً، ولا يتحقّق العدل في الشّهادة إلّا بدِين يمنع الإنسان أنْ يميل عن الحقّ، فإن كان الحكم هو الله ﷻ فلا حاجة لبيّنة، ولا حاجةَ لشهود؛ لأنّه سبحانه يحيط علمه بكلّ شيء، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في السّموات ولا في الأرض، ومن العجيب أنّ الحُكْم والفَصْل من الحقّ ﷻ يشمل السلطات كلّها: التّشريعيّة والقضائيّة والتّنفيذيّة، فحُكْمه ﷻ لا يُؤجَّل ولا يُتحّايل عليه، ولا تضيع فيه الحقوق كما تضيع في سراديب وأدراج المكاتب، أمّا حُكْم البشر فينفصل فيه التّشريع عن القضاء عن التّنفيذ، فربّما صدر الحكم وتعطَّل تنفيذه، أمّا حكم الله ﷻ فنافذ لا يُؤجِّله شيء، فالمسألة لن تمرَّ هكذا، بل هي محسوبة لنا أو علينا.

(الآية ١٨) - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: يعني: ألم تعلم؟ فالرّؤية إمّا أن تكون رؤيا بصريّة أو رؤيا علميّة، وهنا الأمر يتعلّق بالسّجود، فهل السُّجود الّذي ذُكِر في الآية سجود على حقيقته كما نعلمه في السّجود من أنفسنا، أم لكلّ جنس من أجناس الكون سجود يناسبه؟ وسبق أن تحدّثنا عن أجناس الكون وهي أربعة: أدناها الجماد، ثمّ يليه النّبات، حيث يزيد عليه خاصّيّة النّمو وخاصّيّة الحركة، ثمّ يليه الحيوان الّذي يزيد خاصّيّة الإحساس، ثمّ يليه الإنسان ويزيد عليه خاصّيّة الفكر والاختيار بين البدائل بالعقل، وكلّ جنس من هذه الأجناس يخدم ما هو أعلى منه، حيث تنتهي هذه الدّائرة بأنّ كلّ مَا في كون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُسخَّر لخدمة الإنسان، وفي الخبر: «يا ابن آدم خلقتُ الأشياء من أجلك، وخلقتُكَ من أجلي، فلا تشتغل بما هو لك عَمَّنْ أنت له»[1]، فكان على الإنسان أن يفكّر في هذه المِيْزة الّتي منحه ربّه إيّاها، ويعلم أنّ كلّ شيء في الوجود مهما صَغُر فله مهمّة يؤدّيها، ودَوْر يقوم به، فأَوْلَى بهذا الإنسان وهو سيّد هذا الكون أن يكون له مهمّة، وأن يكون له دور في الحياة، فهو ليس بأقلّ من هذه المخلوقات الّتي سخّرها الله عَزَّ وَجَلَّ له، وهذه المخلوقات كلّها أعطاها الله عَزَّ وَجَلَّ

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير: ج ٥، حرف اللّام، الحديث رقم (٧٦٠٣).

هذه المهامّ من أجل أن تخدم هذا الإنسان، وأعطي هذا الإنسان هذه النّعم والعطاءات كلّها، فإذا جاءك رسول من أعلى منك ليُنبِّهك إلى هذه المهمّة كان عليك أن تشكره، وكان عليك أن تؤمن به، والرّسول من الله ﷻ لا يصحّ لأحد أن ينصرف عنه وعن ما أمر به وما نهى عنه؛ لأنّه يُوضِّح لنا مسائل كثيرة، وكان على العقل البشريّ أن يفكّر في هذه الأمور كلّها، الشّمس والقمر وغيرهما، هذه الأشياء في خدمتها لك لم تتأبَّ عليك، ولم تتخلّف يوماً عن خدمتك، يقول بعضهم عن سجود هذه المخلوقات: إنّه سجود دلالة، وليس سجوداً على حقيقته، لكنّ هذا القول يعارضه قول الله ﷻ: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النّور: من الآية ٤١]، فلكلّ مخلوق مهما صَغُر أو كبر، صلاة وتسبيح وسجود يتناسب وطبيعته، والإنسان يسجد بجبهته على الأرض، وهذا السّجود هو السّجود الصّحيح الّذي علّمنا إيّاه النّبيّ ﷺ، لكن إذا كان الإنسان مريضاً فهو يسجد وهو على الفراش، أو جالس على مقعد، وربّما يشير بعينه، أو أصبعه للدّلالة على السّجود، فإن لم يستطع أجرى السّجود على خاطره، فإذا كان السّجود يختلف بهذه الصّورة في الجنس الواحد حَسْب حالته وقدرته وطاقته، فحتماً هو يختلف بين تلك الأجناس المتعدّدة، وإذا كان هذا حال السّجود في الإنسان، فهل ننتظر مثلاً أن نرى سجود الشّمس أو سجود القمر؟! ما دام الله ﷻ قال: إنّها تسجد، فلا بُدَّ أن نؤمن بسجودها، لكن على هيئة لا يعلمها إلّا خالقها ﷻ، ومن معاني السّجود: الخضوع والطّاعة، فمَنْ يستبعد أن يكون سجود هذه المخلوقات سجوداً على الحقيقة، فليعدّ السّجود هنا للخضوع والانقياد والطّاعة، كما تقول على إنسان متكبّر:

جاء ساجداً، يعني: خاضعاً ذليلاً، ومنه قوله سُبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فصّلت]، فلنا أن نفهم السّجود على أيِّ هذه المعاني نحبّ، فلن تخرج عن مراده سُبحانه وتعالى، ومن رحمة الله عزّ وجلّ أنْ جعل هذه المخلوقات خاضعة لإرادته، لا تنحلّ عنها أبداً ولا تتخلّف، كما قال سُبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾ [الأحزاب]، والحقّ سُبحانه وتعالى حين قال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، معلوم أنّ مَنْ في السّموات هم الملائكة ولسنْا منهم، لكن نحن من أهل الأرض ويشملنا حكم السّجود وندخل في مدلوله، فلماذا قال بعدها: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾؟ هذا القول يُبيّن أنّ لنا قهريّةً وتسخيراً وسجوداً كباقي أجناس الكون، ولنا أيضاً منطقة اختيار، فالكافر الّذي يتعوّد التّمرُّد على خالقه: يأمره بالإيمان فيكفر، ويأمره بالطّاعة فيعصي، فلماذا لا يتمرّد على طول الخطّ؟ لماذا لا يرفض المرض إنْ أمرضه الله سُبحانه وتعالى؟ ولماذا لا يرفض الموت إنْ حَلَّ به؟ فالإنسان مُؤتمِر بأمر الله عزّ وجلّ مثل الشّجر والحجر والحيوان والسّموات والأرض، ومنطقة الاختيار هي الّتي نشأ عنها هذا الانقسام: كثير آمن، وكثير حَقَّ عليه العذاب، لكن لماذا لم يجعل الله سُبحانه وتعالى الخَلْق جميعاً مُسخَّرين؟ قالوا: لأنّ صفة التّسخير وعدم الخروج عن مرادات الله عزّ وجلّ تثبت لله سُبحانه وتعالى صفة القدرة على الكلّ، إنّما لا تُثبت لله جلّ جلاله المحبوبيّة، المحبوبيّة لا تكون إلّا مع الاختيار: أن تكون حُرّاً مختاراً في أنْ تُؤمنَ أو تكفر فتختار الإيمان، وأنْ تكون حُرّاً وقادراً على المعصية، لكنّك تطيع، وضربنا لذلك مثلاً

-ولله المثل الأعلى-: هَبْ أنّ للإنسان خادمين، تربط أحدهما إليك في سلسلة مثلاً، وتترك الآخر حُرّاً، فإن ناديتَ عليهما أجاباك، فأيّهما يكون أطْوعَ لك: المقهور المجبر، أم الحرّ الطّليق؟ إذن: التّسخير والقهر يُثبت القدرة، والاختيار يُثبت المحبّة، والخلاف الّذي حدث من النّاس، فكثير منهم آمن، وكثير منهم حَقَّ عليه العذاب، من أين هذا الاختلاف يا ربّ؟ من الاختيار الّذي خلقه الله ﷻ في الإنسان، فمَنْ شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، فكأنّ كفر الكافر واختياره؛ لأنّ الله ﷻ سَخَّره للاختيار، فهو حتّى في اختياره مُسخَّر.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾: أي: باختياراتهم، وبعضهم يقول: كان المفروض أن يقول في مقابلها: وقليل، لكنّ هؤلاء كثير، وهؤلاء كثير أيضاً.

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾: حقَّ: يعني ثبتَ، فهذا أمر لا بُدَّ منه، حتّى لا يستوي المؤمن والكافر: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ٣٥﴾ [القلم]، فلا بُدَّ أنْ يعاقب هؤلاء، والحقّ يقتضي ذلك.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾: لأنّ أحقيَّة العذاب من مُساوٍ لك قد يأتي مَنْ هو أقوى منه فيمنعه، أو يأتي شافع يشفع له، وكأنّ الحقّ ﷻ يُيَئِّسُ هؤلاء من النّجاة من عذابه، فلن يمنعهم أحد، فمَنْ أراد الله ﷻ إهانته فلن يُكرمه أحد، لا بنُصْرته ولا بالشّفاعة له، فالمعنى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: بالعذاب الّذي حَقَّ عليه.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾: يعني: يكرمه ويُخلّصه من هذا العذاب، كذلك لا يوجد مَنْ يُعِزّه؛ لأنّ عِزَّته لا تكون إلّا قَهْراً عن الله ﷻ، وهذا مُحال؛ لذلك نقول: إنّ الحقّ ﷻ يُجير على خَلْقه ولا يُجار عليه، يعني: لا أحد يقول لله ﷻ: هذا في جواري؛ لذلك ذيَّلَ الآية بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩﴾.

(الآية ١٩) - ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾:

﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ﴾: كلمة خَصْم من الألفاظ الّتي يستوي فيها المفرد والمثنّى والجمع، وكذلك المذكّر والمؤنّث كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١﴾ [ص]، ويقول جل جلاله: ﴿خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [ص: من الآية ٢٢]، والمراد بقوله: ﴿خَصۡمَانِ﴾ هنا هو قوله جل جلاله: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾، والخصومة تحتاج إلى فَصْل بين المتخاصمين، والفَصْل يحتاج إلى شهود، لكن إنْ جاء الفَصْل من الله سبحانه وتعالى فلن يحتاج إلى شهود، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩﴾ [النّساء: من الآية ٧٩]، وإنْ جاء عليهم بشهود من أنفسهم، فإنّما لإقامة الحجّة ولتقريعهم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فصّلت: من الآية ٢١]، والحقّ سبحانه وتعالى هو الّذي يفصل بين هذيْن الخصميْن، كما قال جل جلاله في آيةٍ أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [الحجّ: من الآية ١٧].

﴿ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾: أي: بسبب اختلافهم في ربّهم، ففريقٌ يؤمن بوجود إله، وفريقٌ يُنكره، فريق يُثبت له الصّفات، وفريق ينفي عنه هذه الصّفات، يعني: انقسموا بين إيمان وكفر، ثمّ يُفصِّل القول:

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾: كأنّ النّار تفصيل على قَدْر جسومهم إحكاماً للعذاب، ومبالغةً فيه، فليس فيها اتّساع يمكن أنْ يُقلِّل من شِدَّتها، وليست فضفاضة عليهم.

﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾: والحميم: الماء الّذي بلغ منتهى الحرارة، حتّى صار هو نفسه مُحْرِقاً من شِدَّة حرّه، ولكَ أنْ تتصوّر ماءً يَغلي من قبل الله ﷻ! وهكذا يجمع الله ﷻ عليهم ألوان العذاب؛ لأنّ الثّياب يرتديها الإنسان لتستر عورته، وتقيه الحرّ والبرد، ففيها شمول لمنفعة الجسم، يقول ﷻ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ [النّحل]، فالإذاقة ليستْ في اللّباس، إنّما بشيء آخر، واللّباس يعطي الإحاطة والشّمول، لتعمّ الإذاقة أطراف البدن كُلَّها.

(الآية ٢٠) - ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠﴾:

قلنا: إنّ هذا الماء بلغ من الحرارة منتهاها، فلم يغْلِ عند درجة الحرارة الّتي نعرفها، إنّما يُغليه ربّه ﷻ الّذي لا يُطيق عذابه أحدٌ، هذا الماء حين يُصَبُّ عليهم فإنّه يصهر ما في بطونهم أوّلاً، ثمّ جلودهم بعد ذلك، فاللّهمّ قِنا عذابك يوم تبعث عبادك.

(الآية ٢١) - ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١﴾:

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ﴾: المقامع: هي السّياط الّتي تقمع بها الدّابّة، وتَرْدعها لتطاوعك، أو الإنسان حين تعاقبه، لكنّها سياط من حديد، ففيها دلالة على الذِّلَّة والانكسار، فضلاً عن العذاب، ثمّ يُبيِّن الحقّ ﷻ مهمّة هذه المقامع فيقول:

(الآية ٢٢) - ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾:

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾: يُصوّر الحقّ ﷻ حال

أهل النّار، وما هم فيه من العذاب واليأس في أن يُخفّف عنهم، فإذا ما حاولوا الخروج من غَمِّ العذاب جاءتهم هذه السّياط فأعادتهم حيث كانوا، وهذا هو عذاب جهنّم، وبئس المصير.

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾: الحريق: الشّيء الّذي يحرق غيره لشدّته.

وبعد أن تحدّثتْ الآياتُ عن الكافرين، وما حاق بهم من العذاب كان لا بُدَّ أنْ تتحدَّث عن المقابل، عن المؤمنين ليُجري العقلُ مقارنةً بين هذا وذاك، فيزداد المؤمن تشبُّثاً بالإيمان ونُفْرةً من الكفر، وكذلك الكافر ينتبه لعاقبة كُفْره فيزهد فيه ويرجع إلى الإيمان، وهكذا ينتفع الجميع بهذه المقابلة، وكأنّ الحقّ تبارك وتعالى يعطينا في آيات القرآن الكريم وفي المقابلات وسائل النّجاة والرّحمة.

(الآية ٢٣) - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾:

يُبيِّن الله سبحانه وتعالى مَا أعدّه لعباده المؤمنين، حيث السّكن: ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، والزّينة: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾، واللّباس: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾، فجمع لهم نعيم السَّكَن والزّينة واللّباس، وفي الآخرة يُنعَّم الرّجال بالحرير وبالذّهب الذّي حُرِّم عليهم في الدّنيا، وهذا الحرير والذّهب في الآخرة يكون حلالاً طيّباً لا يُنغِّصه شيء من المكدِّرات الّتي في الدّنيا.

(الآية ٢٤) - ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾:

﴿وَهُدُوٓاْ﴾: هداهم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فالّذي دلّهم على وسائل دخول الجنّة والتّمتّع فيها بالسّكن والزّينة واللّباس كذلك يهديهم الآن في الجنّة ويدلّهم على كيفيّة شُكر المنعم على هذه النّعمة، هذا معنى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾، هذا القول الطّيّب لخّصته آيات أخرى، ومنها قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ [الزّمر: من الآية ٧٤]، وقوله جَلَّ جَلَالُهُۥ: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾ [فاطر]، فحين يدخل أهل الجنّةِ الجنّةَ، ويباشرون النّعيم المقيم لا يملكون إلّا أنْ يقولوا: الحمد لله ربّ العالمين، كما يقول الحقّ تبارك وتعالى عنهم: ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [يونس: من الآية ١٠].

﴿ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾: قيل: هو كلمة التّوحيد: لا إله إلّا الله، فهذه الكلمة هي المعشوقة الّتي أتتْ بنا إلى الجنّة، والمعنى يسَع كلّ كلام طيّب، كما قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤﴾ [إبراهيم].

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾: أي: هداهم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إلى طريق الجنّة، أو إلى الجنّة ذاتها، كما قال في آية أخرى عن الكافرين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٦٩﴾ [النّساء].

(الآية ٢٥) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾:

انتقلتْ بنا الآيات إلى موضوع جديد:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: بصيغة الماضي؛ لأنّ الكفر وقع منهم فعلاً.

﴿وَيَصُدُّونَ﴾: بصيغة المضارع، والقياس أن نقول: كفروا وصَدُّوا، لكنّ المسألة ليست قاعدة ولا هي عمليّة آليّة؛ لأنّ الصّدَّ عن سبيل الله سبحانه وتعالى ناشئ عن الكفر وما يزال صدُّهم مستمرّاً.

﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: عن الجهاد.

﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾: وصدّهم عن المسجد الحرام؛ لأنّهم منعوا المسلمين من دخوله، وكان في قبضتهم وتحت سيطرتهم، وهذا ما حدث فعلاً في الحديبية حينما اشتاق صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أداء العمرة والطّواف بالبيت الّذي طالت مدّة حرمانهم منه، فلمّا ذهبوا منعهم كفّار مكّة، وصدُّوهم عن دخوله.

وكلمة (حرام) يُستفاد منها أنّه مُحرَّم أنْ تفعل فيه خطأ، أو تعتدي فيه، وكلمة (الحَرَام) وصف بها بعض المكان وبعض الزّمان، وهي خمسة أشياء: نقول: البيت الحرام وهو الكعبة، والمسجد الحرام، والبلد الحرام (مكّة)، ثمّ المشعر الحرام (المزدلفة)، وهذه عبارة عن دوائر مركز الكعبة، هذه أماكن، ثمّ الخامس، وهو زمن: الشّهر الحرام الّذي قال الله سبحانه وتعالى فيه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢١٧]، وحُرْمة الزّمان والمكان هنا لحكمة أرادها

الخالق ﷻ؛ لأنّه رَبٌّ رحيم بخَلْقه يريد أن يجعل لهم فرصة لِسِتْر كبريائهم، والحدّ من غرورهم، فقد كانت تنتشر بين القوم الحروب والصّراعات الّتي كانت تُذْكي نارها عادات قبليّة وسعار الحرب، حتّى أنّ كِلَا الفريقين يريد أنْ يُفني الآخر، وربّما استمرّوا في الحرب وهم كارهون لها، لكن يمنعهم كبرياؤهم من التّراجع والانسحاب، لذلك جعل الله ﷻ لهذه الأماكن والأزمنة حُرْمة لتكون ستاراً لهذا الكبرياء الزّائف، ولهذه العزّة البغيضة، وكلّ حَدَث يحتاج إلى زمان وإلى مكان، فحرَّم الله ﷻ القتال في الأشهر الحرم، حتّى إذا ما استعرت بينهم حرب جاء شهر حرام، فأنقذ الضّعيف من قبضة القويّ دون أنْ يجرح كبرياءه، فهذه رحمة من الله ﷻ بعباده، وستار يحميهم من شرور أنفسهم ونزواتها ويَحْقِن دماءهم، وكذلك جعل في المكان محرّماً؛ لأنّ الزّمن الحرام الّذي حُرِم فيه القتال أربعة أشهر: ثلاثة سرد وواحد فرد، الفرد هو رجب، والسّرد هي: ذو القعدة، وذو الحجّة، والمحرّم، فحرَّم أيضاً القتال في هذه الأماكن ليعصم دماء الخَلْق أنْ تُراقَ بسبب تناحر القبائل بالغِلّ والحِقْد والكبرياء والغرور، يقول ﷻ: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١﴾ [البقرة: من الآية ١٩١].

﴿ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً﴾: جعل الله ﷻ المسجد الحرام، هذه البقعة من الأرض للنّاس جميعهم، لذلك عندما جاء سيّدنا إبراهيم عليه السلام بهاجر والطّفل إسماعيل قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم]، فالمسجد الحرام للنّاس كلّهم، قال ﷻ: ﴿وَأَذِّن

فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ [الحجّ].

﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ﴾: العاكف فيه: يعني: المقيم.

﴿وَٱلْبَادِ﴾: القادم إليه من خارج مكّة.

﴿سَوَآءً﴾: يعني: هذان النّوعان متساويان تماماً.

لذلك نقول للّذين يحجزون الأماكن لحسابهم في بيت الله الحرام خاصّة، وفي بيوت الله عامّة: أريحوا أنفسكم، فالمكان محجوز عند الله عزّ وجلّ لمن سبق، لا لمن وضع سجادته، وشغل بها المكان.

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾: الإلحاد قد يكون في الحقّ الأعلى، وهو الإلحاد في الله عزّ وجلّ، أمّا هنا فيُراد بالإلحاد: الميْل عن طريق الحقّ.

﴿بِظُلْمٍ﴾: الظّلم في شيء لا يسمو إلى درجة الكفر، والإلحاد بظلم إنْ حدث في بيت الله سبحانه وتعالى فهو أمر عظيم؛ لأنّك في بيت ربّك (الكعبة)، وكان يجب عليك أن تستحي من مجرّد حديث النّفس بمعصية، مجرّد الإرادة هنا تُعَدُّ ذنباً؛ لأنّ الإنسان في مقام يجب أنْ يستشعر فيه الجلال والمهابة، فكما أعطى الله سبحانه وتعالى لبيته ميْزة في مضاعفة الحسنات، كذلك عظَّم أمر المعصية والإنسان في رحاب بيته، فلينتبه لهذه المسألة، فللمكان حُرْمة بحُرمة صاحب البيت وهو الله سبحانه وتعالى، فإذا كان للمكان حُرْمة بحُرْمة صاحبه، والبيت منسوب إلى الله جلّ جلاله، فالّذي يعصي الله عزّ وجلّ في عُقْر داره، فهذه جرأة وما أعظمها من جرأة؟ وهذه خاصّيّة للمسجد الحرام، فكُلُّ المساجد في أيّ مكان بيوت الله عزّ وجلّ، لكن

هناك فَرْق بين بيت الله باختيار الله ﷻ، وبيت الله باختيار عباد الله؛ لذلك جُعل بيتُ الله ﷻ باختيار الله ﷻ (البيت الحرام) هو القِبْلة الّتي تتّجه إليها بيوت الله كلّها في الأرض، فما عاقبة الإلحاد في بيت الله ﷻ؟

﴿نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾: إنّهم سيذوقون العذاب بأمرٍ من الله ﷻ دائماً وأبداً، والإذاقة أشدّ الإدراكات تأثيراً، وذلك هو العذاب المهين.

(الآية ٢٦) - ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦﴾:

الكلام السّابق كان حول البيت الحرام، فجاء الكلام الآن عن بناء البيت الحرام وما يتعلّق به.

﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ﴾: معنى بَوَّأه؛ أي: جعله مَباءةً، يبوء إليه ويعود، كالبيت للإنسان يرجع إليه، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: من الآية ٦١]؛ أي: رجعوا بغضب من الله ﷻ.

﴿وَإِذۡ﴾: ظرف زمان لحدث يأتي بعده الإخبار بهذا الحدث، والمعنى خطاب لرسول الله ﷺ: اذكر يا محمّد الوقت الّذي قيل فيه لإبراهيم كذا وكذا، وهكذا في آيات القرآن الكريم كلّها تأتي (إذ) في خطاب لرسول الله ﷺ بحدث وقع في ذلك الظّرف، لكن ما علاقة المباءة أو المكان المتبوّأ بمسألة البيت؟ قالوا: لأنّ المكان المتبوّأ بقعة من الأرض يختارها الإنسان؛ ليرجع إليها من متاعب حياته، ولا يختار الإنسان مثل هذا المكان إلّا إذا توفّرتْ فيه مُقوِّمات الحياة كلّها، لذلك يقول ﷻ في قصّة يوسف ؈: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا

لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾ [يوسف: من الآية ٥٦]، وقال في شأن بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾ [يونس: من الآية ٩٣]، فمعنى: ﴿بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ﴾؛ أي: جعلناه مبَاءة له، يرجع إليه من حركة حياته بعد أنْ أعلمنَاهُ، ودَلَلْناه على مكانه.

وقلنا سابقاً: إنّ المكان غير المكين، المكان هو البقعة الّتي يقع فيه ويحلُّ بها المكين، فأرض هذا المسجد مكان، والبناء القائم على هذه الأرض يُسمَّى: (مكين في هذا المكان)، وعلى هذا فقد دَلَّ الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام على المكان الّذي سيأمره بإقامة البيت عليه، وقد كان للعلماء كلام طويل حول هذه المسألة: فبعضهم يذهب إلى أنّ إبراهيم عليه السلام هو أوّل مَنْ بنى البيت، ولكن لمّا بوَّأ الحقّ جل جلاله لإبراهيم مكان البيت، يعني: بيَّنه له؛ كأنّ البيت كان موجوداً، بدليل أنّ الله سبحانه وتعالى يقول في القصّة على لسان إبراهيم: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٧]، وفي قوله جل جلاله: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: من الآية ١٢٧]، ومعلوم أنّ إسماعيل قد شارك أباه وساعده في البناء لمّا شَبَّ، وأصبح لديه القدرة على معاونة أبيه، أمّا مسألة السّكن فكانت وإسماعيل ما يزال رضيعاً، وقوله جل جلاله: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٧]، يدلّ على أنّ العِنْديّة موجودة قبل أنْ يبلغَ إسماعيل أنْ يساعد أباه في بناء البيت، فهذا دليل على أنّ البيت كان موجوداً قبل إبراهيم عليه السلام، وقد أوضح الله سبحانه وتعالى هذه المسألة في قوله جل جلاله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦﴾ [آل عمران]، وحتّى نتّفق على فَهْم الآية نسأل: مَنْ هُم النّاس؟ النّاس

هم آدم عليه السلام وذرّيّته إلى أن تقوم السّاعة، فآدم من النّاس، فلماذا لا يشمله عموم الآية، فالبيت وُضِع للنّاس، وآدم من النّاس، فلا بُدَّ أن يكون وُضِع لآدم أيضاً، فيمكننا القول بأنّ البيت وُضِع حتّى قبل آدم؛ لذلك نُصدِّق بالرّأي الّذي يقول: إنّ الملائكة هي الّتي وضعتْ البيت أوّلاً، ثمّ طمسَ طوفانُ نوح عليه السلام معالم البيت، فدلَّ الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام بوحي منه على مكان البيت، وأمره أنْ يرفعه من جديد في هذا الوادي، ويُقال: إنّ الله سبحانه وتعالى أرسل إلى إبراهيم سحابة دَلَّتْه على المكان، ونطقتْ: يا إبراهيم خُذْ على قدري؛ أي: البناء، وعندما نتدبّر قول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [البقرة: من الآية ١٢٧]، الرَّفْع يعني: الارتفاع، وهو البعد الثّالث، فكأنّ القواعد كان لها طُول وعَرْض موجود فعلاً، وعلى إبراهيم عليه السلام أنْ يرفعها، لكن لماذا بوَّأ الله سبحانه وتعالى لإبراهيم عليه السلام مكان البيت؟ لمّا أسكن إبراهيم عليه السلام ذرّيّته عند البيت قال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٧]، كأنّ المسألة من بدايتها مسألة عبادة وإقامة للصّلاة، الصّلاة للإله الحقّ والربِّ الصِّدْق؛ لذلك أمره أوّلاً:

﴿أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا﴾: والمراد: طَهِّر هذا المكان من كلّ ما له علاقة بالشّرك، فهذه هي البداية الصّحيحة لإقامة بيت الله سبحانه وتعالى.

وهل كان يُعقل أنْ يدخل إبراهيم عليه السلام في الشّرك؟ بالتّأكيد لا، وما أبعدَ إبراهيمَ عليه السلام عن الشّرك، لكن حين يُرسِل الله سبحانه وتعالى رسولاً، فإنّه أوّل مَنْ يتلقّى عن الله عز وجل الأوامر ليُبلِّغ أمّته، فهو أوّل مَنْ يتلقّى، وأوّل مَنْ يُنفّذ ليكون قدوةً لقومه فيُصدِّقوه ويثقوا به؛ لأنّه أمرهم بأمرٍ هو ليس بنَجْوة عنه، ألا ترى قوله سبحانه وتعالى لنبيّه محمّد صلى الله عليه وسلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: من الآية ١]،

وهل خرج محمّد ﷺ عن تقوى الله ﷻ؟ إنّما الأمر للأمّة في شخص رسولها، حتّى يسهُلَ علينا الأمر حين يأمرنا ربّنا بتقواه، ولا نرى غضاضةً في هذا الأمر الّذي سبقنا إليه رسول الله ﷺ، فقوله ﷻ لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا﴾، لا تعني تصوُّر حدوث الشّرك من إبراهيم عليه السلام.

﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ﴾: التّطهير يعني: الطّهارة المعنويّة بإزالة أسباب الشّرك، وإخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى وحده لا شريكَ له، وطهارة حِسّية ممّا أصابه بمرور الزّمن وحدوث الطّوفان، فقد يكون به شيء من القاذورات مثلاً.

﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾: الّذين يطوفون بالبيت.

﴿وَٱلۡقَآئِمِينَ﴾: المقيمين المعتكفين فيه للعبادة.

﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾: الّذين يذهبون إليه في أوقات الصّلوات لأداء الصّلاة، عبَّر عن الصّلاة بالرّكوع والسّجود؛ لأنّهما أظهر أعمال الصّلاة.

(الآية ٢٧) - ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾:

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾: أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه إبراهيم عليه السلام بعد أنْ رفع القواعد من البيت أنْ يُؤذِّن في النّاس بالحجّ، لماذا؟ لأنّ البيت بيت الله ﷻ، والخَلْق جميعاً خَلْق الله سبحانه وتعالى، فلماذا تقتصر رؤية البيت على مَنْ قُدِّر له أنْ يمرّ به، أو يعيش إلى جواره؟ فأراد الحقّ سبحانه وتعالى أنْ يُشيع هذه الميْزة بين خَلْقه جميعاً، فيذْهبوا لرؤية بيت ربّهم ﷻ، وإنْ كانت المساجد كلّها بيوت الله سبحانه وتعالى، إلّا أنّ هذا البيت بالذّات هو بيت الله باختيار الله ﷻ؛ لذلك جعله قبْلة لبيوته الّتي اختارها الخَلْق.

﴿وَأَذِّن﴾: الأذان: العلم، وأوّل وسائل العلم السّماع بالأُذُن، ومن الأذن أُخذ الأذان؛ أي: الإعلام، ومن هذه المادّة قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ [إبراهيم: من الآية ٧]؛ أي: أعلم؛ لأنّ الأُذن وسيلة السّماع الأولى، والخطاب المبدئيّ الّذي نتعلّم به؛ لذلك قبل أنْ تتكلّم لا بُدَّ أنْ تسمع، وحينما أمر الله ﷻ إبراهيم عليه السلام بالأذان، لم يكُن حول البيت غير إبراهيم وولده وزوجته، فلمَنْ يُؤذِّن؟ ومَنْ سيستمع في صحراء واسعة شاسعة وواد غير مسكون؟ فناداه ربّه: «يا إبراهيم عليك الأذان وعلينا البلاغ»، فوصل صوت سيّدنا إبراهيم عليه السلام إلى أصقاع الأرض، وما زال يتردّد صدى صوت إبراهيم الخليل في كلّ زمان ومكان إلى هذه اللّحظة، يسمعه البشر جميعاً، وهم في عالم الذَّرِّ وفي أصلاب آبائهم بقدرة الله ﷻ، وعندما يؤذّن مؤذّن الحجّ ويأتي وقته، فإنّه أذان إبراهيم عليه السلام، وعندما تجد الملايين يجيبون: لبيك اللّهمّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك(١)، إنّ الحمد والنّعمة لك والملك لا شريك لك، فهو تلبية لنداء إبراهيم عليه السلام. وأركان الإسلام تبدأ بالشّهادتين: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، ثمّ الصّلاة، ثمّ الزكاة، ثمّ الصّوم، ثمّ الحجّ، والحجّ هو الرّكن الوحيد الّذي يجتهد المسلم في أدائه، وإنْ لم يكُن مستطيعاً له تراه يوفّر ويقتصد حتّى من قُوته، لِيُؤدِّي فريضة الحجّ؛ لأنّ الله ﷻ حكم في هذه المسألة فقال: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ﴾، هكذا من غير اختيارهم، وهذا معنى قوله ﷻ: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٧]، ومعنى تهوي: من الهوى؛ أي: من الحبّ، تأتي دون اختيار، وهكذا تحِنُّ القلوب إلى بيت الله ﷻ، وتتحرّق شَوْقاً إليه، وكأنّ

(١) معنى لبّيك: إجابةً بعد إجابة.

شيئاً يجذبها لأداء هذه الفريضة؛ لأنّ الله ﷻ أمر بهذه الفريضة، وحكم فيها بقوله: ﴿يَأۡتُوكَ﴾، أمّا في الأمور الأخرى فقد أمر بها وتركها لاختيار المكلّف، يطيع أو يعصي، فهذه المسألة قضيّة صادقة بنصِّ القرآن الكريم، وبعض أهل الفَهْم يقولون: إنّ الأمر في: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾، ليس لإبراهيم عليه السلام، وإنّما لمحمّد ﷺ الّذي نزل عليه القرآن الكريم، وخاطبه بهذه الآية، فالمعنى: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ﴾، يعني: اذكر يا مَنْ أُنْزل عليه كتابي إذْ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت، اذكر هذه القضيّة، ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾، فكأنّ الأمر هنا لمحمّد ﷺ.

﴿يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾: ورجالاً هنا ليست جَمْعاً لرجل، إنّما جمع لراجل، وهو الّذي يسير على رِجْلَيْه.

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾: الضّامر: الفَرَس أو البعير المهزول من طول السّفر.

وتقديم الماشين على الرّاكبين هو تأكيد للحكم الإلهيّ: ﴿يَأۡتُوكَ﴾، فالجميع حريص على أداء الفريضة حتّى لو جاء ماشياً.

﴿يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ﴾: أي: من كلّ طريق واسع.

﴿عَمِيقٖ﴾: يعني: بعيد.

(الآية ٢٨) - ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾:

﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾: كلمة: ﴿مَنَٰفِعَ﴾ كلمة عامّة واسعة تشمل أنواع النّفع كلّها: مادّيّة دنيويّة، أو دينيّة أُخرويّة، ولا ينبغي أنْ نُضيِّق ما وسّعه الله ﷻ،

فكُلُّ ما يتّصل بالحجّ من حركات الحياة يُعَدّ من المنافع، فاستعدادنا للحجّ، وتدبير نفقاته وأدواته وراحلته كلّها فيها منافع لنا ولغيرنا، منافع متبادلة بين النّاس بالأمور المادّيّة والمعنويّة، فالمنافع المادّيّة في الحجّ كثيرة ومتشابكة ومتداخلة مع المنافع الدّينيّة الأخرويّة، فحين تشتري الهَدْي مثلاً تؤدّي نُسُكاً وتنفع الّذي باع لك، والمربِّي الّذي ربَّى هذا الهَدْي، والجزّار الّذي ذبحه، والفقير الّذي أكل منه، فلا يتمّ الحجّ إلّا بحركة حياة واسعة، فيها نَفْع لك وللنّاس من حيث لا تدري، وفي رحلة الحجّ يتأدّب الحاجّ؛ لأنّه يكون مُحرِماً، فالحجّ التزام وانضباط يفوق أيَّ انضباط يعرفه أهل الدّنيا في حركة حياتهم، ففي الحجّ يكون الإنسان خاضعاً منكسراً مهما كانت منزلته، وبطمأنينة نفس يُقبِّل حجراً ويرمي حجراً، ويطوف سبعاً، ويسعى سبعاً، ويقف في عرفات، ويهبط إلى مزدلفة، ويبيت في منى.

﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾: يذكرون اسم الله سبحانه وتعالى؛ لأنّ أعمال الحجّ كلّها مصحوبة بذكر الله سبحانه وتعالى وتلبيته، فَمَا من عمل يُؤدِّيه الحاجّ إلّا ويقول: لبّيك اللّهمّ لبّيك، وتظلّ التّلبية شاغله ودَيْدنه إلى أنْ يرمي جمرة العقبة، ومعنى: «لبّيك اللّهمّ لبّيك»: أنّ مشاغل الدّنيا تطلبني، وأنت ناديتني لأداء فَرْضِك عليَّ، فأنا أُلبِّيك أنت أوّلاً؛ لأنّك خالقي وخالق كلّ ما يشغلني ويأخذني منك.

﴿فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾: الأيّام المعلومات هي: أيّام التّشريق.

﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾: أي: يشكرون الله سبحانه وتعالى على هذا الرّزق الوقتيّ الّذي يأكلون منه ويشربون، ويبيعون ويشترون في أوقات الحجّ،

أو يشكرون الله ﷻ على أنْ خلقَ لهم هذه الأنعام، وإنْ لم يحجُّوا، ففي خَلْق الأنعام -وهي الإبل والبقر والغنم والماعز- وتسخيرها للإنسان حكمة بالغة، ففضلاً عن الانتفاع بلحمها وألبانها وأصوافها وأوبارها اذكروا الله واشكروه أنْ سخَّرها لكم، فلولا تسخير الله ﷻ لها لَمَا استطعتُم أنْ تنتفعوا بها، فالجمل مثلاً هذا الحيوان الضّخم يقوده الطّفل الصّغير، وينُيخه ويحمّله في حين لم يستطع الإنسان تسخير الذّبابة، لذلك يقول ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس]، لذلك نذكر الله ﷻ ونشكره على ما رزقنا من بهيمة الأنعام استمتاعاً بها أَكْلاً، أو استمتاعاً بها بَيْعاً أو زينة، كما قال ﷻ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ [النّحل]، ولولا أنّ الله ﷻ ذَلَّلها لِخدمتنا ما استطعْنا تذليلها والانتفاع بها.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾: البائس: هو الّذي يبدو على مِحْنته وشكله وزِيِّه أنّه فقير محتاج، أمّا الفقير: فهو محتاج الباطن، وإنْ كانَ ظاهره اليُسْر، فعليه أن يأكل منها هو وهذا دليل على أنّها جيّدة، والمعنى: كُلُوا ممّا يُبَاح لكم الأكل منه، وهي الصّدقة المحضة، أو الهدية للبيت غير المشروطة بشيء، يعني: لا هي دم قِرَان أو تمتُّع، ولا هي فدية لمخالفة أمر من أمور الإحرام، أو كانت نذراً فهذه كلّها لا يؤكَل منها، فكلوا من الصّدقة والتّطوّع، وأطعموا كذلك البائس والفقير، ومن رحمة الله ﷻ بالفقراء أنْ جعل الأغنياء هم الّذين يبحثون عن الذّبائح، ويشترونها، ويذهبون لمكان الذّبح، ويتحمَّلون مشقّة هذا كلّه، ثمّ يبحثون عن الفقير ليعطوه وهو جالس في مكانه

مستريحاً، يأتيه رِزْقه من فَضْل الله ﷻ سهلاً وميسّراً، لذلك يقولون: من شرف الفقير أنْ جعله الله ﷻ ركناً من أركان إسلام الغنيّ؛ أي: في فريضة الزكاة، ولم يجعل الغنيّ ركناً من أركان إسلام الفقير.

(الآية ٢٩) - ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ٢٩﴾:

﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ﴾: كلمة قضاء تُقال إمّا لقضاء الله ﷻ الّذي يقضيه على الإنسان مثلاً، وهو أمر لازم محكوم به، وإمّا قضاء من إنسان بين متخاصمين، وأوّل شيء في مهمّة القضاء أن يقطع الخصومة، كأنّ المعنى ﴿لْيَقْضُواْ﴾؛ أي: يقطعوا.

﴿تَفَثَهُمْ﴾: لمّا نزل القرآن الكريم بهذه الكلمة لم تكن مستعملة في لسان قريش، ولم تكن دائرة على ألسنتهم، فسألوا عنها أهل البادية، فقالوا: التّفَثُ يعني: الأدران والأوساخ الّتي تعلَقُ بالجسم، فقالوا: والله لم نعرفها إلّا ساعةَ نزل القرآن بها، فالمراد ليقطعوا تفثهم؛ أي: الأدران الّتي لحقتهم بسبب التزامهم بأمور الإحرام، حيث يمكث الحاجُّ أيّام الحجّ مُحْرِماً لا يتطيّب، ولا يأخذ شيئاً من شعره أو أظافره، فإذا ما أنهى أعمال الحجّ وذبح هَدْيه يجوز له أنْ يقطع هذا التّفث، ويزيل هذه الأدران بالتّحلُّل من الإحرام، وفِعْل ما كان محظوراً عليه.

﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾: إن كان قد نذر لله ﷻ شيئاً فعليه الوفاء به.

﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ﴾: يعني: طواف الإفاضة، والطّواف: أنْ تدور حول شيء بحيث تبدأ وتنتهي، وتبدأ وتنتهي.. وهكذا.

﴿بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾: وصف البيت بأنّه عتيق، وكلمة عتيق استعملت في اللّغة استعمالات واسعة، منها: القديم، وما دام هو أوّل بيت وُضِع للنّاس فهو قديم، والقِدَم هنا صفة مدح؛ لأنّها تعني الشّيء الثّمين الّذي يُحافظ عليه ويُهتَمّ به، والعتيق: الشّيء الجميل الحسن، والعتيق: المعتوق من السّيطرة والعبوديّة لغيره، فالمراد هذه الأمور كلّها بوصف البيت هنا بأنّه عتيق، وَصْف البيت بالقِدَم يشمل هذه المعاني كُلَّها: فهو قديم؛ لأنّه أوّل بيت وُضِع للنّاس، وهو غالٍ ونفيس ونادر، حيث نرى فيه مَا لا نراه في غيره من آيات، ويكفي أنّ رؤيته والطّواف به تغفر الذّنوب، وهو بيت الله ﷻ الّذي لا مثيلَ له، وهو كذلك عتيق بمعنى معتوق من سيطرة الغير؛ لأنّ الله ﷻ حفظه من اعتداء الجبابرة، كما في قصّة الفيل، وما فعله الله ﷻ بأبرهة حين أراد هَدْمه.

(الآية ٣٠) - ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾:

﴿ذَٰلِكَۖ﴾: إشارة إلى الكلام السّابق بأنّه أمْر واضح، لكن استمع إلى أمر جديد سيأتي، فهنا استئناف كلام على كلام سابق، فبعد الكلام عن البيت وما يتعلَّق به من مناسك الحجّ يستأنف السّياق:

﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾: فالحقّ ﷻ يريد لعبده أنْ يلتزمَ أوامره بفعل الأمر واجتناب النّهي، فكُلُّ أمر لله ﷻ يَحرُم عليك أن تتركه، وكلّ نَهْي يحرم عليك أنْ تأتيه، فهذه هي حرمات الله ﷻ الّتي ينبغي

عليك تعظيمها بطاعة الأمر واجتناب النّهي، وحين نُعظِّم هذه الحرمات لا نُعظِّمها لذاتها، فليس هناك شيء له حُرْمة في ذاته، إنّما نُعظِّمها؛ لأنّها حرمات الله ﷻ وأوامره؛ لذلك قد يجعل الالتزام بها مُتغيّراً، وقد يطرأ عليك ما يبدو متناقضاً في الظّاهر، فالوضوء مثلاً، بعضهم يرى فيه نظافة للبدن، فإذا انقطع الماء وعُدِم وجوده حَلَّ محلّه التّيمُّم بالتّراب الطّاهر الّذي نُغبِّر به أعضاء التّيمّم، فليس في الأمر نظافة، إنّما هو الالتزام والانقياد واستحضار أنّك مُقْبل على أمر غير عادي يجب عليك أنْ تتطَّهر له بالوضوء، فإنْ أمرتُكَ بالتّيمّم فعليك الالتزام دون البحث في أسباب الأمر وعِلّته، وهكذا يكون الأدب مع الأوامر وتعظيمها؛ لأنّها من الله سبحانه وتعالى، فالعبادة ما هي إلّا انضباط عابد لأوامر معبود وطاعة مطلقة؛ لأنّك لا تؤدّيها لذاتها وإنّما هي انقياد لأمر الله سبحانه وتعالى، ففي الطّواف تُقبِّل الحجر الأسود، وفي رمي الجمار ترمي حجراً، وهذا حجر وذاك حجر، هذا ندوسه وهذا نُقبِّله، فَحَجر يُقَبَّل وحَجر يُرمى؛ لأنّ المسألة مسألة طاعة والتزام، هذا كلّه من تعظيم حرمات الله سبحانه وتعالى، لذلك الإمام عليّ رضي الله عنه يلفتنا إلى هذه المسألة فيقول في التّيمّم: "لو أنّ الأمر كما نرى لكان مسح باطن القدم أَوْلَى من ظاهرها"؛ لأنّ الأوساخ تعلق بباطن القدم أوّلاً.

وقد ذكرنا في الآيات السّابقة أنّ الحرمات خمس: البيت الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، والمشعر الحرام، والشّهر الحرام، وحرمات الله سبحانه وتعالى هي الأشياء المحرّمة الّتي يجب ألّا تفعلها، ثمّ يُبيِّن الحقّ سبحانه وتعالى جزاء هذا الالتزام:

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾: الخيريّة هنا ليست في ظاهر الأمر وعند النّاس أو في ذاته، إنّما الخيريّة للعبد عند الله عزّ وجلّ.

﴿وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ﴾: قد تقول: كيف وهي حلال من البداية وفي الأصل، قالوا: لأنّه لمّا حرّم الصّيد قد يظنّ بعضهم أنّه حرام دائماً فلا ينتفعون بها، فبيّن ﷻ أنّها حلال إلّا ما ذُكر تحريمه، ونصّ القرآن الكريم عليه في قوله ﷻ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ [المائدة: من الآية ٣]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾ [الأنعام: من الآية ١٢١].

﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾: الرِّجْس: النّجاسة الغليظة المتغلغلة في ذات الشّيء، يعني: ليست سطحيّة فيه يمكن إزالتها، وإنّما هي في نفس الشّيء لا يمكن أنْ تفصلها عنه.

﴿وَٱجۡتَنِبُواْ﴾: لا تدلّ على الامتناع فقط، إنّما على مجرّد الاقتراب من دواعي هذه المعصية؛ لأنّك حين تقترب من دواعي المعصية وأسبابها لا بُدَّ أن تداعبك وتشغل خاطرك، ومَنْ حام حول الشّيء يوشك أنْ يقع فيه، لذلك لم يقُل الحقّ ﷻ: (امتنعوا)، إنّما قال: (اجتنبوا)، ونعجب من بعض الّذين أسرفوا على أنفسهم يقولون: إنّ الأمر في (اجتنبوا) لا يعني تحريم الخمر، فلم يَقُلْ: حُرِّمَتْ عليكم الخمر! نقول: (اجتنبوا) أبلغ في النّهي والتّحريم وأوسع من: (حُرِّمَتْ عليكم)، لو قال الحقّ ﷻ: (حُرّمت عليكم الخمر)، فهذا يعني أنّك لا تشربها، ولكن لك أن تشهد مجلسها وتعصرها وتحملها وتبيعها، أمّا (اجتنبوا) فتعني: احذروا مجرّد الاقتراب منها على أيِّ وجه من هذه الوجوه، لذلك نجد الأداء القرآنيّ للمطلوبات المنهجيّة في الأوامر والنّواهي من الله ﷻ

يُفرّق بين حدود ما أحلَّ الله ﷻ وحدود ما حرَّم، ففي الأوامر يقول: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٢٩]، وفي النّواهي يقول: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٧]، ففي الأوامر وما أحلَّ الله ﷻ لك قِفْ عند ما أحلَّ، ولا تتعدّاه إلى غيره، أمَّا المحرّمات فلا تقترب منها مجرّدَ اقتراب، فلمّا أراد الله ﷻ نَهْي آدم وحواء عن الأكل من الشّجرة قال لهما: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: من الآية ٣٥]. وبعد أن أمر الحقّ ﷻ باجتناب الرّجْس في عبادة الأصنام قال:

﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾: فقرن عبادة الأوثان بقول الزُّور، كأنّهما في الإثم سواء؛ لذلك صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَامَ قَائِماً، فَقَالَ: «**عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بِالْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ**»، ثَلَاثَ مرّات، ثُمَّ قَرَأَ: «﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾»(١)، لماذا؟ لأنّ في شهادة الزّور جماع لحيثيّات الظّلم كلّها، فساعةَ يقول: ليس للكون إله، فهذه شهادة زور، وقائلها شاهد زور، كذلك حين يظلم أو يُغيّر في الحقيقة، أو يذمُّ الآخرين، كلّها داخلة تحت شهادة الزّور، ولمّا عدَّد النّبيّ ﷺ الكبائر، قال: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟، ثَلَاثاً**»، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ**» -وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئاً فَقَالَ- «**أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ**»، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ(٢).

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الأقضية، باب في شهادة الزّور، الحديث رقم (٣٥٩٩).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الشّهادات، باب ما قيل في شهادة الزّور، الحديث رقم (٢٦٥٤).

(الآية ٣١) - ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾:

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾: اكتفتْ الآية بذكر صفتين فقط من صفات كثيرة على وجه الإجمال، وهما: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾، ﴿غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾.

﴿حُنَفَآءَ﴾: جمع حنيف، مأخوذة من حنيف الرِّجل، يعني: تقوُّسها وعدم استقامتها، فيقال: فيه حَنَف؛ أي: ميْل عن الاستقامة، وليس الوصف هنا بأنّهم مُعْوجّون، إنّما المراد أنّ الاعوجاج عن الاعوجاج استقامة، لذلك وُصِف إبراهيم عليه السلام بأنّه: ﴿كَانَ حَنِيفٗا﴾ [آل عمران: من الآية ٦٧]، يعني: مائلاً عن عبادة الأصنام، وهذه الصّفة هي مقياس الاستقامة على أوامر الله عز وجل لا على أوامر البشر، فنحن لا نضع لأنفسنا أسبابَ الكمال، ثمّ نقول: ينبغي أن يكون كذا وكذا، لا، إنّما الّذي يضع أسباب الكمال للمخلوق هو الخالق.

﴿غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾: وهي الصّفة الثّانية الّتي وصف الله سبحانه وتعالى بها عباده المؤمنين، فالشّرك أمر عظيم؛ لأنّ الحقّ سبحانه وتعالى أغنى الشّركاء عن الشّرك، فكيف تلجأ إلى غير الله سبحانه وتعالى والله موجود؟ لذلك يقول سبحانه وتعالى في الحديث القدسيّ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١)، ويعطينا الحقّ سبحانه وتعالى بعدها صورة توضيحيّة لعاقبة الشّرك:

﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾: خرَّ: يعني سقط من السّماء لا يُمسكه شيء، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَخَرَّ

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الزّهد والرّقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، الحديث رقم (٢٩٨٥).

﴿عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النّحل: من الآية ٢٦]، وفي الإنسان جماديّة؛ لأنّ قانون الجاذبيّة يتحكّم فيه، فإنْ صعد إلى أعلى لا بُدَّ أنْ يعود إلى الأرض بفعل هذه الجاذبيّة، لا يملك أنْ يُمسِك نفسه مُعلَّقاً في الهواء، فهذا أمر لا يملكه وخارج عن استطاعته، وفي الإنسان نباتيّة تتمثّل في النّمو، وفيه حيوانيّة تتمثّل في الغرائز، وفيه إنسانيّة تتمثّل في العقل والتّفكير والاختيار بين البدائل، وبهذه كُرِّم عن سائر الأجناس.

وتلحظ أنّ ﴿خَرَّ﴾ ترتبط بارتفاع بعيد، ﴿خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بحيث لا تستطيع قوّة أنْ تحميه أو تمنعه، لا بذاته ولا بغيره، وقبل أنْ يصل إلى الأرض تتخطّفه الطّير، فإنْ لم تتخطّفه تهوي به الرّيح في مكان بعيد وتتلاعب به، فهو هالك لا محالةَ، ولو كانت واحدة من هذه الثّلاثة لكانت كافية، وعلى العاقل أنْ يتأمّل مغزى هذا التّصوير القرآنيّ فيحذر هذا المصير، فهذه حال مَنْ أشرك بالله ﷻ، فإنْ أخذنا الصّورة على أنّها تشبيه حالة بحالة، فها هي الصّورة أمامنا واضحة، وإنْ أردنا تفسيراً آخر يُوضِّح أجزاءها: فالسّماء هي الإسلام، والطّير هي الشّهوات، والرّيح هي ريح الشّيطان، يتلاعب به هنا وهناك، فأيُّ ضياع بعد هذا؟ ومَنْ ينقذه من هذا المصير؟

(الآية ٣٢) - ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾:

﴿ذَٰلِكَۖ﴾: كما قلنا في الآية السّابقة: إشارة إلى الكلام السّابق الّذي أصبح واضحاً معروفاً، ونستأنف بعدها كلاماً جديداً تنبّه له.

﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: الشّعائر: جمع شعيرة، وهي المعالم الّتي جعلها الله ﷻ لعباده لينالوا ثوابه بتعظيمها، فالإحرام شعيرة، والتّكبير شعيرة، والطّواف شعيرة، والسَّعْي شعيرة، ورمْي الجمار شعيرة.. إلخ، وهذه أمور عظّمها الله ﷻ، وأمرنا بتعظيمها، وتعظيم الشّيء أبلغ وأشمل من فِعْله، أو أدائه، أو عمله، عَظَّم الشّعائر؛ أي: أدَّاها بحبٍّ وعشْق وإخلاص، وجاء بها على الوجه الأكمل، وربّما زاد على ما طُلِبَ منه، فمحبّة أمر الله ﷯ مَرْقى من مراقي الإيمان، يجب أن نسموَ إليه، حتّى في العمل الدّنيويّ، هذه المحبّة للتّكاليف، وهذا العشق عبَّر عنه رسول الله ﷺ حينما قال: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»(١)؛ لذلك نَعَى القرآن الكريم على أولئك الّذين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ١٤٢﴾ [النّساء: من الآية ١٤٢]، والسّيّدة فاطمة رضي الله عنها كانت تجلو الدّرهم وتلمّعه، فلمّا سألها رسول الله عمّا تفعل، قالت: لأنّني نويتُ أنْ أتصدَّق به، وأعلم أنّه يقع في يد الله ﷻ قبل أنْ يقع في يد الفقير، هذا هو التّعظيم لشعائر الله ﷯، والقيام بها عن رغبة وحبّ، وفي عصور الإسلام الأولى كان النّاس يتفاضلون بأسبقهم إلى صلاة الجماعة حين يُسمع النّداء، وبآخرهم خروجاً من المسجد بعد أداء الصّلاة.

﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾: ليست من تقوى الجوارح، إنّها تقوى قلب لا تقوى قالب، فالقلب هو محلُّ نظر الله ﷻ إلينا، ومحلُّ قياس تعظيمنا لشعائر الله ﷯، وسبق أنْ ذكرنا أنّ الله ﷻ لا يريد أنْ يُخضِع قوالبنا، إنّما يريد أنْ

(١) سنن النّسائيّ: كتاب عشرة النّساء، باب حبّ النّساء، الحديث رقم (٣٩٤٠).

تخضع قلوبنا، ولو أراد ﷻ أنْ تخضع القوالب لخضعتْ له راغمة، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾ [الشّعراء]، والإنسان يستطيع أنْ يُرغِم مَنْ هو أضعف منه على أيِّ شيء يكرهه، وإنْ شئتَ سجد لك، لكن لا تملك أنْ تجعل في قلبه حبّاً أو احتراماً لك، لماذا؟ لأنّك تجبر القالب، أمّا القلب فلا سلطةَ لك عليه بحال من الأحوال.

(الآية ٣٣) - ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ۝٣٣﴾:

﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾: يعني: ما دامت هذه المسائل من شعائر الله ﷻ ومن تقوى القلوب فاعملوها وعظِّموها؛ لأنّ لكم فيها منافع عرفتموها أم لم تعرفوها، وربّما نعرف بعضها ولا نعرف الباقي؛ لأنّه مستور عنّا، ولو أنّنا لا نعلم قيمة الجزاء على هذه الشّعائر، فقيمة الجزاء على العمل بحسب أنفاس الإخلاص في هذا العمل.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾: ما دام الحقّ ﷻ ذَيَّل الآية بقوله: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾، فالمراد هنا شعيرة الذَّبْح، ولا يخفى ما فيها من منافع، حيث ننتفع بصوفها ووبرها ولبنها ولحمها، ونتّخذها زينة وركوبة، كلّ هذا: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، يعني: زمن معلوم، وهو حين تقول وتنوي: هذه هديّة للحرم، ساعة تعقد هذه النّيّة فليس لك الانتفاع بشيء منها، لا أنت ولا غيرك؛ لذلك يُميِّزونها بعلامة حتّى إنْ ضلّت من صاحبها يعرفون أنّها مُهْداة لبيت الله ﷻ،

فلا يأخذها أحد، وما دامت هذه منافع إلى أجل مسمّى، فلا بُدَّ أنّها المنافع الدّنيويّة، أمّا المنافع الأخرويّة فسوف نجدها فيما بعد في الآخرة.

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾: أي: بعد هذا الأجل المسمّى ينتهي بها المطاف عند الحرم حيث تُذبَح هناك، وقد كان للعلماء كلامٌ حول هذه الآية: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾، حيث قالوا: محلّ الذَّبْح في مِنَى، وليس في مكّة، والآية تقول، محلّها البيت العتيق، نقول: الأصل كما جاء في الآية أنّ الذّبح في مكّة وفي الحرم، إلّا أنّهم لمّا استقذروا الذَّبْح في الحرم بسبب ما يُخلّفه من قاذورات ودماء وخلافه جعلوا الذّبح بعيداً عن الحرم حتّى يظلّ نظيفاً، وهذا لا يمنع الأصل، وهو أنْ يكون الذَّبْح في الحرم، كما جاء في آية أخرى: ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ [المائدة: من الآية ٩٥]، وفي الحديث الشّريف: «وَفِجَاجُ مَكَّةَ كُلُّهَا مَنْحَرٌ»(١).

(الآية ٣٤) - ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤﴾:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا﴾: المنسك: هو العبادة.

كما جاء في قول الله سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾ [الأنعام]، وقوله جلّ جلاله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا﴾؛ لأنّ الشّعائر والمناسك والعبادات، ليس من الضّروريّ أن تتّفق عند

---

(١) مسند إسحاق بن راهويه: زياداتُ الكُوفيِّينَ والبَصْرِيّينَ وغيرهم، الحديث رقم (٣٧٢).

الأمم جميعها، بل لكلّ أمّة ما يناسبها ويناسب ظرفها الزّمانيّ والبيئيّ، لذلك فإنّ الرّسل لا تأتي لتغيّر القواعد والأسس الّتي يقوم عليها الدّين؛ لأنّ هذه القواعد والعقيدة هي أسس ثابتة في رسالات السّماء كلّها، لا تتبدّل ولا تتغيّر بتغيّر الرّسل، قال سبحانه وتعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشّورى: من الآية ١٣]، هذه الأصول العقديّة الثّابتة، أمّا في الفرعيّات فنرى ما يصلح المجتمع وما يناسبه من طاعات وعبادات، فتتغيّر الأحكام، ثمّ يبيّن الحقّ سبحانه وتعالى الحكمة من هذه المناسك:

﴿لِّيَذۡكُرُواْ اسۡمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الۡأَنۡعَٰمِۗ﴾: أي: يذكرون الله عز وجل في كلّ شيء، ويشكرونه على كلّ نعمة ينالونها من بهيمة الأنعام، لذلك نذكر الله عز وجل عند الذّبح، فنقول: بسم الله، الله أكبر؛ لأنّ الذّبح إزهاق روح خلقها الله سبحانه وتعالى، وما كان لنا أنْ نزهقها بإرادتنا، فمعنى: (بسم الله والله أكبر) هنا أنّني لا أزهق روحها من عندي، بل لأنّ الله سبحانه وتعالى أمرني وأباحها لي، فالله سبحانه وتعالى أكبر في هذا الموقف من إرادتنا، ومن عواطفنا، ونرى بعض النّاس يأنف من مسألة الذَّبْح هذه، يقول: كيف تذبحون هذا الحيوان أو هذه الدّجاجة؟ يدَّعي الرّحمة والشّفقة على هذه الحيوانات، لكنّه ليس أرحم بها من خالقها، وما ذبحناها إلّا لأنّ الله جل جلاله أحلَّها، وما أكلناها إلّا بسم الله، بدليل أنّ ما حرّمه الله عز وجل علينا لا نقرب منه أبداً، وهل أنا أُكرِم القطّة عن الأرنب، فأذبح الأرنب وأترك القطّة؟ وهل أَحترم الكلب عن الخروف؟ أبداً، المسألة مسألة تشريع وأمر ثبت عن الله عز وجل، فَعَليَّ أنْ أُعظِّمه وأُطيعه.

﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾: الرّزق، يعني: أنّه ﷻ أوجدها لنا، وملّكنا إيّاها، وذَلَّلها لنا فاستأنسْناها، وسخّرها لنا فانتفعنا بها، ولولا تسخيره ما انقادتْ لنا بقُوّتنا وقدرتنا.

﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾: يعني: إنِ اختلفت الشّرائع من أمّة لأمّة فإيَّانا أنْ نظنَّ أنّ هذا من إله، وهذا من إله آخر، إنّما هو إله واحد يشرّع لكلّ أمّة ما يناسبها وما يصلحها؛ لأنّ التّشريعات السّماويّة تأتي علاجاً لآفات اجتماعيّة، والأصل الأصيل هو إيمان بإله واحد فاعل قادر مختار، يُبلِّغ عنه رسول بمعجزة تُبيِّن صدقه في التّبليغ عن الله ﷻ، هذا أصل الدّيانات السّماويّة كلّها، كذلك قواعد الدّين وأساسيّاته واحدة مُتّفق عليها، فالسّرقة والزّنا وشهادة الزّور.. إلخ مُحرَّمة في الأديان كلّها، لكن هناك أمور تناسب أمّة، ولا تناسب أخرى، والمشرّع للجميع إله واحد، والنّاس جميعاً من لَدُن آدم عليه السلام إلى أنْ تقومَ السّاعة عياله، وهم عنده سواء، لذلك يختار لكلٍّ ما يُصلحه، فاختلاف التّشريعات في هذه المسائل الجزئيّة بين الأمم لا يعني تعدُّد الآلهة، كلّا وحاشا لله، بل هو إله واحد، يعطي عباده كُلّاً على حسب حاجته، كي يتوازنَ المجتمع ويستقيم حاله، وما دام أنّ إلهكم إله واحد، وما دُمْتم عنده سواء، وليس منكم مَنْ بينه وبين الله ﷻ قرابة، إذن:

﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾: يعني: أَسلِموا أموركم كلّها لله ﷻ، فعظِّموا أوامره، وخذوها على الرَّحْب والسَّعَة، فإنْ ترك لنا مجالاً للاختيار فلنصنع ما نشاء، وعلينا أن نتذكّر دائماً أنّ الله ﷻ أعطانا فرصة للتّرقِّي الإيمانيّ، وللتّرقِّي الإحسانيّ، وفتح لنا مجال الإحسان إنْ أردنا.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾: المخبت في المعنى العامّ: يعني الإنسان الخاشع الخاضع المتواضع لأوامر الله ﷻ كلّها، والمعنى الدّقيق للمخبت: هو الّذي إذا ظُلم لا ينتصر لنفسه، عملاً بقول الله ﷻ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ [الشّورى]، هكذا بلام التّوكيد، أمّا في وصيّة لقمان لولده: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان: من الآية ١٧]، من غير توكيد لماذا؟ قالوا: لأنّ لقمان يوصي ولده بالصّبر على ما أصابه، والمصائب قسمان: مصيبة تصيب الإنسان، وله فيها غريم هو الّذي أوقع به المصيبة، وهذه يصاحبها غضب وسعار للانتقام، ومصيبة تصيب الإنسان وليس له غريم كالمرض مثلاً، فإنْ كان له غريم فالصّبر أشدُّ، لذلك احتاج إلى التّوكيد، على خلاف المصيبة الّتي ليس أمامنا فيها غريم، فهي من الله ﷻ فالصّبر عليها أهونُ من الأولى، ومع ذلك جعل الحقّ ﷻ للنّفس البشريّة منافذ تُنفِّس من خلالها عن نفسها، حتّى لا يختمر بداخلها الغضب، فيتحوّل إلى حقد وضغينة؛ لذلك أباح لنا الرّدّ، لكن حبَّبنا في أمورٍ أخرى، هي أجدى لنا، فقال ﷻ: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: من الآية ١٣٤]، وهذه مراحل ثلاث، نختار منها بحَسْب فَهْمنا عن الله ﷻ وقُربنا منه:

الأولى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عمران: من الآية ١٣٤]، يعني: يكظم الغيظ في نفسه، دون أنْ يترجم هذا الغيظ إلى عمل انتقاميّ.

الثّانية: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ [آل عمران: من الآية ١٣٤]؛ أي: لا ينتقم، ولا حتّى يجعل للغَيْظ مكاناً في نفسه، فيعفو.

الثّالثة: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: من الآية ١٣٤]، وهي أعلى

المراتب، فلا يكتفي بالعفو، بل ويُحسِن إلى مَنْ أساء إليه، وبعضهم يقول: هذا ضدّ طباع البشر، نعم هي ضدّ طباع البشر العاديّين، لكن الّذين يعرفون الجزاء، ويعرفون أنّهم بذلك سيكونون في حضانة ربّهم يهون عليهم هذا العمل، بل ويُحبّون الإحسان إلى مَنْ أساء؛ لذلك فالحسن البصريّ -رضوان الله عليه- لمّا بلغه أنَّ شخصاً نال منه في أحد المجالس -وكان الوقت بواكير الرُّطَب- أرسل خادمه إليه بطبق من الرّطب، وقال له: بلغني أنّك أهديْتَ إليَّ حسناتك بالأمس، ومعلوم أنّ الحسنات أغلى وأثمن بكثير من طبق الرُّطَب، ومن هنا يقولون: ما أعجب من الّذي يُسيء إلى مَنْ أساء إليه؛ لأنّه أعطاه حسناته، وهي خلاصة عمله، فكيف يُسِيء إليه؟! وكأنّ الله سبحانه وتعالى يريد أنْ يُحدِث توازناً في المجتمع، ويقضي على دواعي الحقد وأسباب الضّغائن في النّفس البشريّة، فحين تُحسِن إلى مَنْ يُسِيء إليك فإنّك تجتثّ جذور الكُرْه والحِقْد من نفسه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصّلت: من الآية ٣٤]، فقد أخرجتَ خَصْمك من قالب الخصومة، إلى قالب المحبّة. فالمخْبِت متواضع لله سبحانه وتعالى، أمّا غير المخبِت فتراه متكبّراً، ويرى نفسه أعظم من الجميع، ولو أنّه استحضر جلال ربّه عزّ وجلّ لخشع له، وتواضع وانكسر لخَلْقه، فالتّكبّر دليل غفلة، ونستطيع أن نقول: إنّ الإخبات على نوعين: إخبات لله عزّ وجلّ بالخضوع والخشوع والتّعظيم لأوامره، وإخبات لخَلْق الله جلّ جلاله، بحيث لا ينتصر لنفسه ولا يظلم، إنّما يتسامح ويعفو؛ لأنّه يعلم جيّداً أنّه إذا ظُلِم من مخلوق تعصّب له الخالق سبحانه وتعالى.

(الآية ٣٥) - ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾:

يُبيِّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا بعض صفات المخبتين، فهم:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾: وَجِلت: يعني خافت، واضطربت، وارتعدت لذكر الله عَزَّ وَجَلَّ تعظيماً له، ومهابة منه، وفي آية أخرى يقول الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرّعد: من الآية ٢٨]، فكيف يقول مرّة: ﴿وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، ومرّة: ﴿تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرّعد: من الآية ٢٨]؟ الجواب: لأنّ ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إنْ جاء بعد المخالفة لا بُدَّ للنّفس أنْ تخاف وتَوْجَل وتضطرب هيبةً لله عَزَّ وَجَلَّ، أمّا إنْ جاء ذِكْر الله جَلَّ جَلَالُهُ بعد المصيبة أو الشّدّة فإنّ النّفس تطمئنُّ به، وتأنَسُ لما فيها من رصيد إيمانيّ ترجع إليه عند الشّدّة وتركَنُ إليه عند الضّيق والبلاء، فإنْ تعرَّضَ الإنسان لمصيبة وعزَّتْ أسبابُ دَفْعها عليه يقول: أنا لي ربّ، فيلجأ إليه، كما كان من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ [الشّعراء: من الآية ٦٢].

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾: الصّبر نصف الإيمان، والإيمان نصفان، نصف صبر ونصف شكر، ويقول المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة]، ولم يقل: (إنّ الله مع المصلّين)، فهناك من يصلّي فقط كشكل الصّلاة، أمّا الصّبر فهو علامة من علائم الإيمان الحقيقيّ.

﴿عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾: معنى أصاب: يعني جاء بأمر سيّء في عُرْفك أنت، فتعدّه مصيبة، فنحن نُقدِّر المصيبة حَسْب سطحيّة العمل الإيذائيّ، إنّما لو

أخذنا مع المصيبة في حسابنا الأجر عليها لهانَتْ علينا وما اعتبرناها كذلك؛ لذلك يقال: المصاب من حرم الثّواب، فهذا هو المصاب حقّاً الّذي لا تُجبَر مصيبته، أمّا أنْ تُصاب بشيء فتصبر عليه حتّى تنالَ الأجر، فليس في هذا مصيبة.

﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾: الصّلاة هي استدامة ولاء لله ﷻ، والفرض الّذي لا يسقط عن المسلم بحال من الأحوال، فالشّهادتان يكفي قولها في العمر مرّة، والزكاة لمن يملك النِّصَاب مرّة واحدة في العام كلّه، والصّيام كذلك شهر في العام، والحجّ لمن كان مستطيعاً مرّة واحدة في العمر، ومن لم يكُنْ مستطيعاً فليس عليه حجّ، إلّا الصّلاة فهي الولاء المستمرّ للحقّ ﷻ على مَدار اليوم كلّه، وربّنا هو الّذي يدعونا إليها، ثمّ لنا أنْ نُحدِّد موعد ومكان هذا اللّقاء في حَضْرته ﷻ ضمن أوقات الصّلاة، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ۝١٠٣﴾ [النّساء: من الآية ١٠٣]، وقد كان النّبيّ ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصّلاة، والصّلاة هي الرّكن الرّكين في الإسلام الّذي فُرض مباشرة من الله ﷻ إلى النّبيّ ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾: لا ينفقون من جيوبهم، إنّما من عطاء ربّهم ورزقه، ومن العجيب أنّ الله ﷻ يعطينا ويهبُنا ويُغدِق علينا تفضّلاً منه ﷻ، فإذا أرادنا أن نُعين محتاجاً قال: أقرضوني: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: من الآية ١١]، والصّدقة في الإسلام تأمينٌ لصاحبها ضدّ الفقر إن احتاج، وهي صندوق لتكافل المجتمع، كصندوق التّأمين في شركات التّأمين، فإذا ما ضاقت بك أسباب الرّزق، وشكوْت الكِبَر والفقر والعجز، نقول لك: لا تحزن فأنت

في مجتمع مؤمن متكافل، وكما طلبنا منك أنْ تعطي وأنت قادر، طلبنا من غيرك أنْ يعطيَك وأنت مُعْدم.

(الآية ٣٦) - ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾:

﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾: بعد أن تكلّم الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في النّفقة مِمّا رزقكم جَلَّ جَلَالُهُ، تكلَّم في البُدْن، والبُدْن: جمع بَدَنة، وهي الجمل أو النّاقة، أو ما يساويهما من البقر، وسمَّاها بَدَنة إشارة إلى ضرورة أنْ تكون بدينة سمينة وافرة، ولا بُدَّ أنْ نراعي فيها هذه الصّفة عند اختيارنا للهَدْي الّذي سنُقدّمه لله عَزَّ وَجَلَّ، ولنحذر أن نكون من أولئك الّذين يجعلون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما يكرهون، إنّما لنكُنْ من الّذين قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ [البقرة: من الآية ٢٦٧].

﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾: أي: اذكروا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالشّكر على أنْ وهبها وذلَّلها لكم، واذكروا اسم الله عَزَّ وَجَلَّ عليها حين ذَبْحِها.

﴿صَوَآفَّۖ﴾: يعني: واقفةً قائمة على أرْجُلها، لا ضعفَ فيها ولا هُزَال، مصفوفة وكأنّها في معرض أمامك، وهذه صفات البُدْن الجيّدة الّتي تناسب هذه الشّعيرة، وتليق أنْ تُقدَّمْ هَدْياً لبيت الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾: وجبَ الشّيء وجباً، يعني: سقط سقوطاً قويّاً على الأرض، ومعلوم أنّ البَدَنة لا تُذبح وهي مُلْقاة على الأرض مثل باقي الأنعام، وإنّما تُنْحر وهي واقفة، فإذا ما نُحِرَتْ وقعتْ على الأرض وارتمتْ بقوّة من بدانتها.

﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾: قلنا: إنّ الأكل لا يكون إلّا من الهَدْي المحض والتّطوّع الخالص الّذي لا يرتبط بشيء من مسائل الحجّ، فلا يكون هَدْيَ تمتُّع أو قِرَان، ولا يكون جبْراً لمخالفة، ولا يكون نَذْراً.. إلخ، وعِلَّة الأمر بالأكل من الهَدْي؛ لأنّهم كانوا يتأفّفون أنْ يأكلوا من المذبوح للفقراء، وكأنّ في الأمر بالأكل منها إشارة لوجوب اختيارها ممّا لا تعافه النّفس.

﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ﴾: القانع: الفقير الّذي يتعفَّف أنْ يسأل النّاس.

﴿وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾: الفقير الّذي يتعرَّض للسّؤال.

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾: يعني: سخّرناها لكم، ولو في غير هذا الموقف، لقد سخَّرها الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لكم منذ وُجِد الإنسان؛ لذلك عليكم أنْ تشكروا الله عَزَّ وَجَلَّ على أنْ أوجدها وملّككم إيّاها، وتشكروه على أنْ سخَّرها وذلَّلها لكم، وتشكروه على أنْ هداكم للقيام بهذا المنسك، وأداء هذه الشّعيرة وعمل هذا الخير الّذي سيعود عليكم بالنّفع في الدّنيا وفي الآخرة.

(الآية ٣٧) - ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧﴾:

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾: ذلك لأنّهم كانوا قبل الإسلام حين يذبحون للأوثان يُلطّخون الصّنم بدماء الذّبيحة، كأنّهم يقولون له: لقد ذبحنا لك، وها هي دماء الذّبيحة، وفي هذا العمل منهم دليل على غبائهم وحُمْق تصرّفهم، فهم يروْن أنّهم إذا لم يُلطِّخوه بالدّم ما عرف أنّهم ذبحوا من أجله، وهنا ينبّه الحقّ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى هذه المسألة: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾، يعني:

لا يأخذ منها شيئاً، وهو ﷻ قادر أنْ يعطي الفقير الّذي أمرنا أنْ نعطيه، ويجعله مثلنا تماماً غير محتاج، إنّما أراد ﷻ من تباين النّاس في مسألة الفقر والغنى أن يُحدِث توازناً في المجتمع، فالمجتمع ليس آلة ميكانيكيّة تسير على وتيرة واحدة، إنّما هي حياة بشر، لا بُدَّ من هذه التّفاوتات بين النّاس، ثمّ تتدخّل الشّرائع السّماويّة فتأخذ من القويّ وتعطي الضّعيف، وتأخذ من الغنيّ وتعطي الفقير.. وساعتها، نقضي على مشاعر الحقد والحسد والبغضاء والأَثَرَة، فلا بدّ من هذا التّفاوت ليتحقّق فينا قول الرّسول ﷺ: «**إِنَّ الـمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً**»(١).

﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾: واتّقاء الله ﷻ هو اتّباع منهجه، فيُطاع الله باتّباع المنهج فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر، وطريق الطّاعة يوجد في اتّباع المنهج بـ (افعل) و(لا تفعل)، ولكنّ النّعم الّتي خلقها الله ﷻ قد تشغل العبد عن الله ﷻ، والمنهج يدعونا أنْ نتذكّر في كلّ نعمة مَنْ أنعم بها، وإيّانا أنْ تُنسينا النّعمةُ المنعِمَ.

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾: نلحظ هنا مسألة المتشابهات في الآيات، ففي الآية السّابقة ذَيَّلها الحقّ ﷻ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ٣٦﴾، هذه المتشابهات يقف عندها العلماء الّذين يبحثون في القرآن الكريم ويُقلِّبون في آياته، فيجمعون مثل هذه المتشابهة الّتي تتحدّث في موضوع واحد ويُرتِّبونها في الذِّهن، ومن هنا قالوا: ينبغي لـمَنْ أراد

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الصّلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، الحديث رقم (٤٨١).

حِفْظ القرآن الكريم أنْ يدعَ مسألة العلم جانباً أثناء حِفْظه، حتّى إذا نسي كلمةً وقف مكانه لا يتزحزح إلى أنْ يعرفها، أمّا العالم فربّما يضع مرادفها مكانها، حتّى يستقيم له المعنى، فيجب على الإنسان أن يتعلّم ويتدبّر القرآن الكريم، لا أن يدع الأمر حفظاً من غير تدبّر وتفسير، ومعرفة معاني الكلمات.

والمراد بقوله سبحانه وتعالى: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾ يعني: تذكرونه وتشكرونه على ما وفّقكم إليه من هذه الطّاعات.

﴿وَبَشِّرِ﴾: بشِّر يعني: أخْبِرْ بشيء سَارٍّ قبل مَجيء زمنه، ليستعدّ له المبشَّر ويفرح به، كذلك الإنذار: أن تخبر بشيء سيّء قبل حلوله أيضاً؛ ليستعدّ له المنذر، ويجد الفرصة الّتي يتلافى فيها خطأه، ويُجنِّب نفسه ما يُنذَر به، ويُقبل على ما يُنجِيه.

﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: جمع مُحسِن، والإحسان: أعلى مراتب الإيمان، وهو أنْ تُلزِم نفسك بشيء من طاعة الله عزّ وجلّ الّتي فرضها عليك فوق ما فرض، فربُّنا عزّ وجلّ فرض علينا خمس صلوات في اليوم واللّيلة، وفي إمكاننا أنْ نزيد من هذه الصّلوات ما نشاء، لكن من جنس ما فرض الله سبحانه وتعالى علينا، لا نخترع نحن عبادة من عندنا، كذلك الأمر في الصّوم، والزكاة، والحجّ، وفي سائر الطّاعات الّتي ألزمنا الله سبحانه وتعالى بها، فإنْ فعلنا هذا فقد دخلنا في مقام الإحسان، وفي الإحسان أمران: العامل بالإحسان، والمُحسَن به، وأمّا المُحسَن به فهو العبادة أو الطّاعة الّتي تُلزِم نفسك بها فوق ما فرض الله سبحانه وتعالى عليك، وهو أن تؤدّي العمل كأنّ الله سبحانه وتعالى يرقبك، كما جاء في حديث جبريل عليه السلام: قَالَ: مَا

الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1]، فمراقبتك لله عَزَّ وَجَلَّ ومراعاتك لنظره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إليك، يدفعك إلى هذا الإحسان، ألَا ترى العامل الّذي تباشره وتُشرِف عليه، وكيف يُنهِي العمل في موعده؟ وكيف يُجيده؟ على خلاف لو تركتَه وانصرفْتَ عنه، فإنْ لم تَصِل إلى هذه المرتبة الّتي كأنّك ترى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها، فلا أقلَّ من أنْ تتذكّر نظره إليك، ومراقبته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لحركاتك وسكناتك، لذلك في سورة الذّاريات: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦﴾ [الذّاريات]، ثمّ يُفسِّر سبب هذا الإحسان: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذّاريات]، ومَنْ يلزمنا بهذه التّكاليف؟ لنا أنْ نصلي العشاء ثمّ ننام إلى الفجر، كذلك لم يُلزمنا بالاستغفار وقت السَّحَر، ولم يلزمنا بصدقة التّطوّع، فهذه طاعات فوق ما فرض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وصلَتْ بأصحابها إلى مقام الإحسان، وأعلى مراتب الإيمان، فليُشمِّر لها مَنْ أراد حتّى يصل إلى مرتبة الإحسان.

(الآية ٣٨) - ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾:

صَدْر الآية: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ يُشْعِرنا أنّ هناك معركة، والمعركة الّتي يدافع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها لا بُدَّ أنّها بين حقّ أنزله، وباطل يُواجهه، وقد تقدَّم قبل ذلك أن قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ [الحجّ: من الآية

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم السّاعة، الحديث رقم (٥٠).

١٩]، وما دام هناك خصومة فلا بُدَّ أنْ تنشأ عنها معارك، هذه المعارك قد تأخذ صورة الألفاظ والمجادلة، وقد تأخذ صورة العنف والقوّة والشّراسة والالتحام المباشر، ومعركة النّبيّ ﷺ مع معارضيه من كفّار مكّة لم تقف عند حَدِّ المعركة الكلاميّة فحَسْب، فقد قالوا عنه ﷺ: ساحر، وكاهن، ومجنون، وشاعر، ومُفْتر.. إلخ، ثمّ تطوَّر الأمر إلى إيذاء أصحابه وتعذيبهم، فكانوا يأتون رسول الله ﷺ مَشْدوخين ومجروحين فيقول لهم ﷺ: «**اصْبِرُوا فَإِنِّي لم أومر بِقِتَال**»(١)، إلى أنْ زاد اعتداء الكفّار وطَفَح الكَيْل منهم أَذن الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ بالقتال، فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [الحجّ].

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ﴾: صيغة يدافع: مبالغة مِنْ يدفع؛ أي: شيئاً واحداً، أو مرّة واحدة، وتنتهي المسألة، أمّا يدافع فتدلّ على مقابلة الفعل بمثله، فالله سبحانه وتعالى يدافع عنهم في كلّ معركة بين الحقّ والباطل، والمعركة تعني: منتصر ومنهزم، لذلك الحقّ سبحانه وتعالى يُطمئن المؤمنين أنّه سيدخل المعركة في صفوفهم، وسيدافع عنهم، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ أمر طبيعيّ؛ لأنّ الحقّ سبحانه وتعالى ما كان ليُرسِل رسولاً، ويتركه لأهل الباطل يتغلّبون عليه، وإلّا فما جَدْوى الرّسالة؛ لذلك يُطمئِن الله سبحانه وتعالى رسوله ويُبشّره، فيقول جل جلاله: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصّافّات]، وقال عز وجل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ﴾ [الحجّ: من الآية ٤٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾ [محمّد]، فهذه كلّها آيات تُطمئِن المؤمنين وتُبشّرهم، وقد جاءتْ على مراحل لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى، فمنعهم عن القتال

(١) تخريج أحاديث الكشّاف: سورة الحجّ، الحديث رقم (٨٢١).

في البداية، ثمّ جعل القتال فيما بينهم قبْل أنْ يأذنَ لهم في قتال أعدائهم ليَبْلوا المؤمنين ويُمحِّصهم ويُخرِج من صفوفهم أهل النّفاق، وضعيفي الإيمان الّذين يعبدون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على حَرْف، ولا يبقى بعد ذلك إلّا قويُّ الإيمان ثابتُ العقيدة، فهي دعوة عالميّة لكلّ زمان ومكان إلى أنْ تقوم السّاعة، ولمّا كانت هذه الدّعوة بهذه المنزلة كان لا بُدَّ لها من رجال أقوياء يحملونها، وإلّا لو استطاع الأعداءُ القضاءَ عليها فلن تقومَ لدين الله عَزَّ وَجَلَّ قائمة، فكان الصّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حول النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل الإيمان وكانت الابتلاءات لتصفية أهل الإيمان وتمييزهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾: فكأنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أصبح طرفاً في المعركة، والخوَّان: صيغة مبالغة من خائن، وهو كثير الخيانة، وكذلك كفور: صيغة مبالغة من كافر.

ومعنى الخيانة يقتضي أنّ هناك أمانةً خانها، نعم، هناك الأمانة الأولى، وهي أمانة التّكليف الّتي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: من الآية ٧٢]، فلقد خانَ هذه الأمانة بعد أنْ رَضِي أنْ يكونَ أهْلاً لها، وهناك أمانة قبل هذه، وهي العهد الّذي أخذه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عباده، وهم في مرحلة الذَّرِّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝١٧٢ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝١٧٣﴾ [الأعراف]، فإنْ قالوا: نعم هذه أمانة، لكنّها بعيدة، ومَنْ مِنّا يذكرها الآن؟ نقول: ألم تُقِرُّوا بأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلقكم، وأوجدكم من عدم، وأمدّكم من عُدم؟ كما قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم

﴿مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف: من الآية ٨٧]، كما أنّهم أقرّوا بخَلْق السّموات والأرض، فهذا الخائن وهذا الكفور هو الّذي قد خان الأمانة وكفر بنِعَم الله ﷻ وجَحَدها، وما دام هناك الخوّان والكفُور فلا بُدَّ للسّماء أنْ تُؤيِّد رسولها، وأنْ تنصره في هذه المعركة أوّلاً، بأنْ تأذنَ له في القتال، ثمّ تأمره بأخذ العُدّة والأسباب المؤدّية للنّصر، والله ﷻ معهم يؤيّدهم بجنود من عنده لن يروها، وقد حدث هذا في بَدْء الدّعوة، فأيّد الله ﷻ نبيّه ﷺ بجنود من عنده، بل أيَّده حتّى بالمعاندين من الكفرة.

(الآية ٣٩) - ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾:

هذه الآية هي أوّل أذن بالقتال، ونقول لأولئك الّذين يتّهمون الإسلام بالإرهاب والعنف بأنّه لم يؤذن بالقتال إلّا بعد أن وقع الظّلم والاعتداء على المسلمين لفترة طويلة، ودفاع الحقّ ﷻ عن الحقّ يأخذ صوراً متعدّدة، فأوّل هذا الدّفاع: أنْ أَذِن لهم بعد طول انتظار أنْ يقاتلوا ويردّوا العدوان، فأمرهم بإعداد القوّة للقتال، قال ﷻ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ [الأنفال: من الآية ٦٠]، والمراد أنْ يأخذوا بأسباب النّصر على عدوّهم، وأن يستنفدوا كلّ ما لديهم من وسائل لدفع العدوان، فإنِ استنفدوا وسائلهم، يتدخَّل الله ﷻ بجنودٍ من عنده لا يرونها، فليس معنى أنّ الله ﷻ يدافع عن الّذين آمنوا أن تدخُلَ السّماء لحمايتهم وهم جالسون في بيوتهم، لا، إنّما يأخذون بأسباب القوّة ويسعَوْنَ ويبادرون هم أوّلاً لردّ الاعتداء، وبعد ذلك يؤذن بالنّصر.

﴿أُذِنَ﴾: معناها أنّهم كانوا ينتظرون الأمر بالقتال، لكن لم يُؤذَن لهم في ذلك، فلمّا أراد الله سبحانه وتعالى لهم أنْ يقاتلوا ويردّوا العدوان أَذن لهم فيه، فقال جلّ جلاله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾، وعِلّة القتال أنّهم ظُلِموا، لذلك أمرهم ربّهم سبحانه وتعالى أنْ يقاتلوا، لا أن يعتدوا، فلم تكن غزوة للمسلمين إلّا وكانت دفاعاً عن الأرض والعرض والدّين والمعتقد والمنازل والأموال، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ﴾ [البقرة: الآية ١٩٠ – ومن الآية ١٩١]، هذه هي العلّة، فأمرهم أوّلاً بالصّبر في المرحلة الأولى، بعد ذلك أنْ يقاتلوا لِردِّ العدوان، وللدّفاع عن أنفسِهم دون أنْ يعتدوا، وفي المرحلة التّالية سيقول لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾ [التوبة].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾: بأسباب يُمكّنهم منها، أو بغير أسباب فتأتيهم قوّة خفيّة لا يرونْها، وقد رأوا نماذج من ذلك فعلاً.

(الآية ٤٠) – ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾:

﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾: فلو أنّهم أُخْرِجوا بحقٍّ، لفعلهم شيئاً يستدعي إخراجهم من ديارهم، كأنْ خدشوا الحياء،

أو هدّدوا الأمْن، أو أجرموا، أو خرجوا على قوانين قبائلهم لكانَ إخراجهُم بحقٍّ، إنّما الواقع أنّهم ما فعلوا شيئاً، وليس لهم ذَنْب: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾، هذه المقولة عدّها المشركون جريمة تستحقّ أنْ يخرجوهم بها من ديارهم، كما قال ﷻ في أهل الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨﴾ [البروج]، وفي آية أخرى: ﴿هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: من الآية ٥٩]، وفي قصّة لوط عليه السلام: ﴿قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦﴾ [النّمل: من الآية ٥٦]، فهم أخرجوهم، لا لأنّهم أهل نجاسة ومعصية، إنّما لأنّهم أناسٌ يتطهّرون، فالطّهارة والعفّة جريمتهم الّتي يُخْرَجُون من أجلها!! كما تقول: لا عيْبَ في فلان إلّا أنّه كريم، فهذه صفة تُمدَح لا تُذَمّ، لقد قلب هؤلاء الموازين، وخالفوا الطّبيعة السّويّة بهذه الأحكام الفاسدة الّتي تدلّ على فساد الطّباع، وأيّ فساد بعد أنْ قَلَبوا المعايير، فكرهوا ما يجب أنْ يُحبّ، وأحبّوا ما يجب أن يُكره؟ ولا أدلَّ على فساد طبائعهم من عبادتهم لحجر، وتركِهم عبادة خالق السّموات والأرض.

﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ﴾: وفي آية أخرى يُبيّن الحقّ ﷻ نتيجة انعدام هذا التّدافع: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥١]، والفساد إنْ حدث بين النّاس في حركة الحياة فيمكن أنْ يُعوَّض ويُتدارك، أمّا إنْ تعدّى الفساد إلى مُقوِّمات اليقين الإيمانيّ في الأرض فَكرِهِ النّاس ما يربطهم بالسّماء، وهدموا أماكن العبادة، فهذه الطّامّة والفساد الّذي لا صلاحَ بعده، فكأنّ الآيتين تصوّران نوعاً من الإيغال في الفساد، والغلوّ في الجرائم.

ولكن كيف تفسد الأرض حين ينعدم التّدافع؟ هَبْ أنّ ظالماً مُسْتبدّاً يمتصّ خيرات جيرانه ودماءهم دون أنْ يردَّه أحد، لا شكَّ أنّ هذا سيُحدث في المجتمع تهاوناً وفوضى، ولن يجتهد أحد فوق طاقته، ولمن سيعمل وخيره لغيره؟ فهذا بداية الفساد في الأرض، فإنْ قُلْنا: هذا فساد بين النّاس في حركة حياتهم يمكن أنْ يصلح فيما بعد، فما بالنا إن امتدَّ الفساد إلى أماكن الطّاعات والعبادات، وقطع بين النّاس الرّباط الّذي يربطهم بالسّماء؟ إنْ كان الفساد الأوّل قابلاً للإصلاح، ففساد الدّين لا يصلح؛ لأنّه قد خُرِّبَت الموازين الّتي كانت تُنظِّم حركة الحياة، فأصبح المجتمع بلا ميزان وبلا ضوابط يرجع إليها، والضّوابط الأخلاقيّة مرتبطة بالدّين، فلا يمكن أن نقول: نضع أخلاقاً ولا علاقة للدّين بالموضوع؛ لأنّ القيم الأخلاقيّة الموضوعة بعيداً عن الدّين تسقط مباشرة في أوّل محطّة، فالآداب العامّة والسّلوكيّات والأخلاقيّات في المجتمعات الغربيّة عندما يهتزّ الوضع القائم، ويتحوّل الإنسان من الرّفاه ومن حالة الرّكون إلى حالة الفقر والضّعف يدوس عليها وعلى كلّ شيء، ولا تبقى موازين ولا ضوابط؛ لأنّ هذه الأخلاق لا ترتبط بالآخرة، ولا ترتبط بحساب وعقاب، ولا ترتبط برقابة، رقابة الضّمير بأن يشعر الإنسان أنّ الله ﷻ يراه، وأنّه مراقب، ويشعر بقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾ [الانفطار]، يشعر بهذه الرّقابة الإلهيّة؛ لأنّ هناك فساداً وأموراً لا يمكن أن يطالها القانون الوضعيّ، من الحقد والكراهية والحسد.. إلخ.

﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾: جاءت قضيّة عامّة للنّاس كلّهم، فلم يخصّ مجموعة دون أخرى، فلم يَقُلْ مثلاً: (لولا دَفْع الله الكافرين

بالمؤمنين)، إنّما قال: مُطلْق النّاس؛ لأنّها قضيّة عامّة يستوي فيها الجميع في المجتمعات كلّها، كذلك جاءت كلمة: (بعض) عامّة؛ لتدلّ على أنّ كِلَا الطّرفين صالح أن يكون مدفوعاً مرّة، ومدفوعاً عنه أخرى، فَهُمْ لبعض بالمرصاد: مَنْ أفسد يتصدّى له الآخر لِيُوقِفه عند حَدِّه، فليس المراد أنّ مجموعة تدفع مجموعة على طول الخطّ، ومثال ذلك قوله ﷻ: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزّخرف: من الآية ٣٢]، دون أنْ يُحدِّد أيّهما مرفوع، وأيّهما مرفوع عليه؛ لأنّ كلّاً منهما مرفوع في شيء، ومرفوع عليه في شيء آخر؛ ذلك لأنّ العباد كلّهم عيال الله ﷻ، لا يُحابي منهم أحداً على أحد، ومن رحمة الله ﷻ بالمؤمنين أنْ يكيد الظّالمين بالظّالمين بألوانهم وفنونهم كلّها، ويؤدِّب الظّالم بمَنْ هو أشدّ منه ظُلماً؛ ليظلّ أهلُ الخير بعيدين عن هذه المعركة، لا يدخلون طَرَفاً فيها؛ لأنّ الأخيار لا يصمدون أمام هذه العمليّات؛ لأنّهم قوم رِقَاق القلوب، لا تناسبهم هذه القسوة وهذه الغِلْظة في الانتقام، فلنقرأ قول الحقّ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ١٢٩﴾ [الأنعام]، وهكذا يُوفِّر الله ﷻ أهل الخير، ويحْقِن دماءهم، ويُريح أولياءه من مثل هذه الصّراعات الباطلة. فكيف دخل النّبيّ ﷺ مكّة بعد أنْ أخرجه قومه منها، وبعد أنْ فعلوا به وبأصحابه الأفاعيل؟ كيف دخلها وهو القائد المنتصر الّذي تمكَّن من رقاب أعدائه؟ دخلها رسول الله ﷺ مُطأطىء الرّأس، حتّى لتكاد رأسه تلمس قربوس السّرج الّذي يجلس عليه، تواضعاً منه ﷺ، ومع ذلك قال أبو سفيان لـمّا رأى رسول الله ﷺ في هذا الموقف، قال للعبّاس: لقد أصبح مُلْك ابن أخيك عظيماً، وبعد أن تمكَّن رسول الله ﷺ من كفّار مكّة، وكان باستطاعته القضاء

عليهم جميعهم، قال: «مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُمْ؟»، قَالُوا: خَيْراً، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، قَالَ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»(١)، فأيُّ رحمة هذه؟ قال ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عمران: من الآية ١٥٩]، وأيُّ لين هذا الّذي جعله الله ﷻ في قلوب المؤمنين؟ وهل مِثْل هذا الدّين يُعارَض ويُنْصَرف عنه؟ فالحقّ ﷻ يُسلِّط الأشرار بعضهم على بعض، وهذه آية نراها في الظّالمين في كلّ زمان ومكان.

﴿لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ﴾: صوامع: جمع صومعة، وهي مكان خاصٌّ للعبادة عند النّصارى، وعندهم مُتعبَّد عامّ يدخله الجميع هو الكنائس، أمّا الصَّومعة فهي مكان خاصّ لينفرد فيه صاحبه وينقطع للعبادة، ولا تكون الصَّوْمعة في حضر، إنّما تكون في الجبال والأودية، بعيداً عن العمران ينقطع فيها الرّاهب عن حركة حياة النّاس، وهي الّتي تُسمّى الأديرة.

﴿وَبِيَعٞ﴾: البِيَع: هي الكنائس.

وقد أباح الإسلام التّرهُّب والانقطاع للعبادة، لكن شريطة أن تكون في جَلْوة، يعني: بين النّاس، لا تعتزل حركة الحياة.

﴿وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾: وهذه لليهود يُسمُّون مكان التّعبّد: صَالوتاً، لكن لماذا لم يرتّبها القرآن الكريم ترتيباً زمنيّاً، فيقول: لهدّمت صلوات وصوامع وبيع؟ قالوا: لأنّ القرآن الكريم يُؤرّخ للقريب منه فالأبعد.

---

(١) السّنن الكبرى للبيهقيّ: جماع أبواب السّير، باب فتح مكّة حرسها الله تعالى، الحديث رقم (١٨٢٧٥).

﴿وَمَسَٰجِدُ﴾: وهذه للمسلمين، وما دام الحقّ ﷻ ذكر المساجد بعد الفعل: ﴿لَّهُدِّمَتۡ﴾ فهذا دليل على أنّه لا بُدَّ أن يكون للمسلمين مكان يُحيِّز للعبادة، وإنْ جُعِلَتْ الأرض كلّها لهم مسجداً وطَهُوراً، ومعنى ذلك أنْ تصلّي في أيّ بقعة من الأرض، وإنْ عُدِم الماء تتطهّر بترابها، وبذلك تكون الأرض محَلّاً للعبادة ومحَلّاً لحركة الحياة وللعمل والسَّعْي، فيمكنك أن تباشر عملك في مصنعك، وفي مزرعتك، وفي حقلك، وفي وظيفتك مثلاً وتُصلِّي، لكنّ الله ﷻ يريد منّا أن نُخصِّص بعض أرضه ليكون بيتاً له تنقطع منه حركة الحياة كلّها، ويُوقَف فقط لأمور العبادة، وهذه هي المساجد؛ لذلك قال ﷺ: «مَنْ بَنَى مَسْجِداً لِلَّهِ كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ، أَوْ أَصْغَرَ، بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ»[1]، فقوله ﷻ: ﴿لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ﴾ تدلّ على مكان خاصّ للعبادة، وإلّا لو اعتُبِرَتْ الأرضُ كلّها مسجداً، فإنّها لا تُهدَم، فالمساجد هي الأماكن الّتي تُزاوَل فيها الصّلاة، الّتي تتّخذ حيّزاً في المسجديّة، وبيت الله الحرام هو البيت الأوّل الّذي جُعل قبلة لبيوت الله ﷻ كلّها في الأرض.

﴿يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾: المساجد هي لذكر الله ﷻ، من صلاة وقراءة قرآن كريم.. إلخ؛ لأنّ ذكر الله ﷻ في المساجد دائم لا ينقطع، ونحن لا نتحدّث عن مسجد، ولا عن مساجد بلد من البلدان، إنّما المراد مساجد الدّنيا كلّها من أقصى الشّرق إلى أقصى الغرب، ومن الشّمال إلى الجنوب، ولو نظرنا إلى أوقات الصّلوات لرأينا أنّها مرتبطة بحركة الفلك وبالشّمس في الشّروق، وفي الزّوال، وفي الغروب، وباعتبار فارق التّوقيت في بلاد الله ﷻ

---

(١) سنن ابن ماجه: كتاب المساجد والجماعات، باب من بنى لله مسجداً، الحديث رقم (٧٣٨).

كلّها تجد أنّ ذِكْر الله ﷻ دائمٌ لا ينقطع أبداً في ليلٍ أو نهار، فأنت تُؤذِّن للصّلاة، وغيرُك يُقيم، وغيركما يُصلّي، أنت تصلّي الظّهر، وغيرك ببلد آخر يصلّي الصّبح أو العصر، بل أنت في الرّكعة الأولى من الصّبح، وغيرك في الرّكعة الثّانية، أنت تركع وغيرك يسجد، فهي منظومة عباديّة دائمة في كلّ وقت، ودائرة في كلّ مكان من الأرض، فلا ينفكّ الكون ذاكراً لله ﷻ، أليس هذا ذِكْراً كثيراً؟ فكلمة: (الله أكبرُ) دائرة على ألسنة الخلق لا تنتهي أبداً، يُرفَع الأذان هنا، ويُرفَع هناك بعد دقيقة.. وهكذا، ثمّ لـمّا كان دَفْع الله ﷻ النّاسَ بعضهم ببعض ينتج عنه معركة بين الحقّ والباطل جاءت نهاية الآية:

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ﴾: فإنْ كان التّدافع بين المشركين فإنّه لا ينتهي، وإنْ كان بين حقٍّ لله ﷻ وباطل حكم الله ﷻ بأنّه باطل لا بُدَّ أن تنتهي بنُصْرة الحقّ، وغالباً لا تطول هذه المعركة؛ لأنّ الحقّ دائماً في حصانة الله ﷻ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾: يختم الله ﷻ بأنه قادر على كل شيء، عزيز: يعني لا يُغلب، والعزيز أيضاً هو المستغني عن خلقه وعن غيره، فالله ﷻ قويّ عزيز يُعطي النّصر لمن يشاء، ويشفي صدور قوم مؤمنين.

(الآية ٤١) - ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: جعلنا لهم قوّة وغَلَبة، فلا يَجترئ أحد عليهم أو يزحزحهم، وعليهم أنْ يعلموا أنّ الله ﷻ ما مكَّنهم ونصرهم لذاتهم،

وإنّما لصلاحهم، ولينقّوا الإنسانيّة في الأرض من كُلِّ ما يُضعِف صلاحها أو يفسده، فسيّدنا سليمان عليه السلام كان يركب بساط الرّيح يحمله حيث أراد، فداخَله شيء من الزّهو -كما جاء في بعض الرّوايات-، فمال به البساط وأوشك أنْ يُلقيه، ثمّ سمع من البساط مَنْ يقول له: أُمِرْنا أن نُطيعك ما أطعتَ الله سبحانه وتعالى، والممكَّن في الأرض الّذي أعطاه الله عز وجل القوّة، يستطيع أنْ يفرض ما يشاء إنْ مكّنه الله سبحانه وتعالى لكن بالحقّ، وإن فرضه بباطل يتخلّى الله سبحانه وتعالى عنه.

﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: ليكونوا دائماً على ذكْر وولاء من ربّهم الّذي وهبهم هذا التّمكين؛ ذلك لأنّهم يتردّدون عليه سبحانه وتعالى خَمْس مرّات في اليوم واللّيلة.

﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ﴾: هذه أسس الصّلاح في المجتمع والميزان الّذي يسعد به الجميع، الزكاة والعطاء، المعونة والمساعدة، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التّوبة: من الآية ١٠٣]، وقال صلى الله عليه وسلم: «**مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَاناً وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ**»(١)، فهذا صلاح المجتمع، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ليس كما يصوّره بعضهم، وإنّما هو أن يمنع الإنسان انتشار الجريمة والشّرّ والبغضاء والفساد في القيم الأخلاقيّة.

﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾: يعني: النّهاية إلينا، وآخر المطاف عندنا، فمَن التزم هذه التّوجيهات وأدّى دوره المنُوط في مجتمعه، فبها ونِعْمَتْ، ومَنْ ألقاها وراء ظهره فعاقبته معروفة.

---

(١) المعجم الكبير للطّبرانيّ: باب الألف، أنس بن مالك الأنصاريّ، الحديث رقم (٧٥١).

(الآية ٤٢) - ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ٤٢﴾:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾: الخطاب للنّبيّ ﷺ، فإن يكذّبوك في دعوتك ويقفون في سبيلها ليبطلوها، فاعلم أنّك لست في ذلك بِدْعاً من الرّسل، فقد كُذِّب كثير من الرّسل قبلك، ومسألة التّكذيب منفصلة عن العاقبة، كذّب القوم لكن كيف كانت العاقبة؟ أتركناهم أم أخذناهم أَخْذ عزيز مقتدر؟ فلا تحزن، فسوف يحلُّ بهم ما حَلَّ بسابقيهم من المكذِّبين والمعاندين، وقلنا: إنّ الرّسول ﷺ يتحمّل من مشقّة الرّسالة وعناء الدّعوة على قَدْر رسالته، فكلُّ رسل الله ﷻ قبل محمّد ﷺ كانوا يُرْسَلون كلٌّ إلى قومه خاصّة، وفي مدّة محدودة، وزمان محدود، ومع ذلك تعبوا كثيراً في سبيل دعوتهم، فما بالنا برسولٍ بُعِثَ إلى النّاس كافّة في كلّ زمان ومكان، لا شَكَّ أنّه سيتحمّل من التّعب والعناء أضعاف ما تحمَّله إخوانه من الرّسل السّابقين، وكأنّ الحقّ سبحانه وتعالى يُعدّ رسوله ﷺ ويُوطِّنه على تحمُّل المشاقِّ من بداية الطّريق حتّى لا تفتّ في عَضُده حين يواجهها عند مباشرة أمر الدّعوة، فبدأ بذكر قوم نوح وعاد وثمود.

(الآية ٤٣-٤٤) - ﴿وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ٤٣ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٤﴾:

﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ﴾: نلحظ هنا أنّ الحقّ سبحانه وتعالى ذكر المكذّبين، إلّا في قصّة موسى عليه السلام فذكر المكذَّب، فلم يَقُل: وقوم موسى، بل قال: وكُذِّب موسى، لماذا؟ قالوا: لأنّ مهمّته كانت الأصعب، حيث تعرَّض في دعوته إلى ما لم يتعرّض له أحد من شعب بني إسرائيل.

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾: أمليت: أمهلْتُ حتّى ظنّوه إهمالاً، وهو إمهال بأنْ يمدّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم، ويطيل في مدّتهم، لا إكراماً لهم، ولكن ليأخذهم بعد هذا أخْذ عزيز مقتدر، وفي آية أخرى يُوضِّح لنا هذه البرقيّة المختصرة، فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ [آل عمران: من الآية ١٧٨]، وفي هذا المعنى يقول أيضاً: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ٥٥﴾ [التّوبة]، فلا تغترّ بما في أيديهم؛ لأنّه فتنة، حتّى إذا أخذهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كانت حسرتهم أكبر.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾: الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُلقِي الخبر في صورة استفهام لتقول أنت ما حدث وتشهد به، والمراد: أعاقبناهم بما يستحقّون؟

والنّكير: هو الإنكار على شخص بتغيير حاله من نعمة إلى نقمة، كالّذي يُكرمك ويُواسيك ويُغدق عليك، ثمّ يقطع عنك هذا كلّه، فتقول: لماذا تنكّر لي فلان؟ يعني: قطع عنّي نعمته، وكأنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُريد أن ينتزع مِنّا الإقرار بقدرته جَلَّ جَلَالُهُ على عقاب أعدائه ومُكذِّبي رسله، وهذا المعنى جاء أيضاً في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ٣٦﴾ [المطفّفين]، يعني: هل جُوزي الكفّار بما عملوا؟ وهل عاقبناهم بما يستحقّون؟

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾: أي: إنكاري لموقفهم من عدم أداء حقوق النّعمة فبدَّلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم نقمة.

(الآية ٤٥) - ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ٤٥﴾:

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾: (كأيِّن): أداة تدلّ على الكَثْرة، مثل: كم الخبريّة حين تقول: كَمْ أحسنتُ إليك، تعني مرّات عديدة تفوق الحصر، فهي تدلّ على المبالغة في العدد والكمّيّة، ومنها قوله سُبحانه وتعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ﴾ [آل عمران: من الآية ١٤٦].

والقرية: اسم للمكان، وحين يُهلِك الله سُبحانه وتعالى القرية لا يُهلك المكان، إنّما يهلك المكين فيه، فالمراد بالقرية أهلها، كما ورد في قوله سُبحانه وتعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: من الآية ٨٢]؛ أي: اسأل أهل القرية.

﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ﴾: أي: بسبب ظُلْمها، ولا يُغيِّر الله سُبحانه وتعالى ما بقوم حتّى يُغيِّروا ما بأنفسهم، وفي آية أخرى يقول جلّ جلاله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ [النّحل]، فهلاك البلاد والقُرى لا بُدَّ أن يكون له سبب، فلمّا وقع عليها الهلاك أصبحت:

﴿خَاوِيَةٌ﴾: الشّيء الخاوي، يعني: الّذي سقط وتهدّم على غيره.

﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: يدلّ على عِظَم ما حَلَّ بها من هلاك، حيث سقط السّقف أوّلاً، ثمّ انهارت الجدران، أو: أنّ الله سُبحانه وتعالى قَلَبها رأساً على عَقِب، وجعل عاليها سافلها.

﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾: البئر: هو الفجوة العميقة في الأرض، بحيث تصل إلى مستوى الماء الجوفيّ، ومنه يُخرجون الماء للشُّرْب والزّراعة.. إلخ، ومنه قوله سُبحانه وتعالى:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: من الآية ٢٣]؛ أي: البئر الّذي يشربون منه، والبئر حين تكون عاملة ومُسْتفاداً منها نلحظ حولها مظاهر حياة، حيث ينتشر النّاس حولها، وينمو النّبات على بقايا المياه المستخرجة منها، ويحوم حولها الطّير ليرتوي منها، أمّا البئر المعطّلة غير المستعملة فتجدها خَرِبة ليس بها علامات حياة، وربّما تسفو عليها الرّياح، وتطمسها فتُعطَّل وتُهجَر، فالمراد معطّلة عن أداء مهمّتها، ومهمّة البئر السُّقيا.

﴿وَقَصۡرٖ﴾: القصر: اسم للمأوى الفَخْم؛ لأنّ المأوى قد يكون خيمة، أو فسطاطاً، أو عريشة، أو بيتاً، أو عمارة، أمّا القصر فيعني مكان السّكن الّذي تتوفّر بداخله مُقوّمات الحياة كلّها.

﴿مَّشِيدٍ﴾: من الشّيد، وهي مادّة للصق الحجارة، وجَعْلها على مستوى واحد، وقديماً كان البناء بالطّوب اللّبن، أمّا في القصور والمساكن الفخمة الرّاقية فالبناء بالحجر، والمشيد أيضاً العالي المرتفع، ومنه قولهم: أشاد به، يعني: رفعه وأعْلى من مكانته، والارتفاع من مَيّزات القصور، وفي قوله ﷻ: ﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾: دليل على أنّ هؤلاء المهلَكين كانوا من أصحاب الغِنَى والنّعيم، ومن سكّان القصور ومِنْ عِلْيَة القوم.

(الآية ٤٦) - ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾:

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: السَّيْر: قَطْع مسافات من مكان إلى آخر، ويسمّونه السّياحة، والحقّ ﷻ يدعو عباده إلى السّياحة في أنحاء الأرض؛

لأنّ للسّياحة فائدتين: فإمّا أنْ تكون سياحة استثماريّة لاستنباط الرّزق إنْ كان الإنسان في مكان يضيق به العيش فيه، كهؤلاء الّذين يسافرون للبلاد الأخرى للعمل وطلب الرّزق، وإمّا أن تكون سياحة لأَخْذ العبرة والتّأمّل في مخلوقات الله عَزَّ وَجَلَّ في مُلْكه الواسع ليستدلّ بخَلْق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وآياته على قدرته جَلَّ جَلَالُهُ، فالسّير في الأرض هو عبارة عن نظر في الأرض، وفي آيات الله عَزَّ وَجَلَّ، في اختلاف الأماكن، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾ [النّمل: من الآية ٦٩]، العطف هنا بالفاء الّتي تفيد التّرتيب، يعني: سيروا في الأرض لتنظروا آيات الله عَزَّ وَجَلَّ، فهي خاصّة بالاعتبار والتّأمّل، لا سياحة الاستثمار وطلب الرّزق، فكلّما تعدّدتْ الأماكن تعدّدت الآيات والعجائب الدّالّة على قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾: لقد ساروا ورحلوا في البلاد، فكيف لا يعقلون آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ وكيف لا تُحرِّك قلوبهم؟ ولنا وقفة عند قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾، وهل يعقِل الإنسانُ بقلبه؟ معلوم أنّ العقل في المخّ، والقلب في الصّدر، نعم، للإنسان وسائل إدراك هي الحواسّ الّتي تلتقط المحسَّات، يُسمُّونها تأدُّباً مع العلم: الحواسّ الخمس الظّاهرة؛ لأنّ العلم أثبت للإنسان في وظائف الأعضاء حواسّاً أخرى غير ظاهرة، فحين تُمسِك بشيئين مختلفين يمكنك أن تُميِّز أيّهما أثقل من الآخر، فبأيِّ حاسّة من الحواسّ الخمس المعروفة توصّلْتَ إلى هذه النّتيجة؟ إنْ قُلْتَ: بالعين، فدعْها على الأرض وانظر إليها، وإنْ قُلْتَ: باللّمس، فلك أنْ تلمسها دون أنْ ترفعها من مكانها، فأنت لا تدرك الثّقل بهذه الحواسّ، إنّما بشيء آخر، وبآلة إدراك أخرى هي حاسّة العَضَلِ الّذي يُميِّز لك الخفيف من الثّقيل، وحين تذهب لشراء قطعة من

القماش تفرك القماش بلطف بين أناملك، فتستطيع أنْ تُميِّز الغليظ من الرّقيق، مع أنّ الفارق بينهما لا يكاد يُذْكَر، فبأيِّ حاسّة أدركْتَه؟ إنّها حاسّة البَيْن، كذلك هناك حاسّة البُعْد وغيرها من الحواسّ الّتي يكتشفها العلم الحديث في الإنسان، فعندما يدرك الإنسان هذه الأشياء بوسائل الإدراك يتدخَّل العقل ليغربل هذه المدركات، ويختار من البدائل ما يناسبه، فإنْ كان سيختار ثوباً، يقول: هذا أنعم وأرقّ من هذا، وإنْ كان سيختار رائحة، يقول: هذه ألطف من هذه، وإنْ كان في الصّيف اختار الخفيف، وإنْ كان في الشّتاء اختار السّميك، وبعد أن يختار العقل ويوازن بين البدائل يحكم بقضيّة تستقرّ في الذِّهْن وتقتنع بها، ولا تحتاج إلى إدراك بعد ذلك، ولا لاختيار بين البدائل، وعندها تنفّذ ما استقرّ في نفسك، وارتحْتَ إليه بقلبك، فإدراك بالحواسّ وتمييز بالعقل ووقوف عند مبدأ بالقلب، وما دام استقرّ المبدأ في قلبك فقد أصبح دستوراً لحياتك، وجوارحك كلّها تخدم هذا المبدأ الّذي انتهيتَ إليه، واستقرّ في قلبك ووجدانك، لكن لماذا القلب بالذّات؟ قالوا: لأنّ القلب هو الّذي يقوم بعمليّة ضَخِّ سائل الحياة، وهو الدّم في جميع أجزاء الجسم وجوارحه، وهذه الجوارح هي أداة تنفيذ ما استقرّ في الوجدان؛ لذلك قالوا: الإيمان محلّه القلب، كيف؟ قالوا: لأنّك غربلْتَ المسائل وصفَّيْت القضايا في العقل إلى أن استقرّت العقيدة والإيمان في القلب، والإيمان أو العقيدة هي ما انعقد في القلب واستقرَّ فيه، ومن القلب تمتدّ العقيدة إلى جميع الأعضاء والحواسّ الّتي تقوم بالعمل بمقتضى هذا الإيمان، وما دُمْتَ قد انتهيتَ إلى مبدأ وعقيدة، فإيّاك أنْ تخالفه إلى غيره، وإلّا فيكون قلبك لم يفهم ولم يفقه.

﴿يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾: تدلّ على أنّ للعقل مهامّاً أخرى غير أنّه يختار ويفاضل بين البدائل، فالعقل من مهامّه أنْ يعقل صاحبه عن الخطأ، ويعقله أنْ يشرد في المتاهات، فالعقل من عِقَال النّاقة الّذي يمنعها ويحجزها أنْ تشرُدَ منك.

﴿أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ﴾: كيف ولهؤلاء القوم آذان تسمع؟ نعم، لهم آذان تسمع، لكن سماع لا فائدة منه، فكأنّ الحاسَّة غير موجودة، وإلّا ما فائدة شيء سمعتَه لكن لم تستفد به، ولم تُوظِّفه في حركة حياتك، إنّه سماع كعدمه، بل إنّ عدمه أفضل منه؛ لأنّ سماعك يُقيم عليك الحجّة.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾: فعمى الأبصار شيء هيِّن إذا ما قِيسَ بعمى القلوب؛ لأنّ الإنسان إذا فقد رؤية البصر يمكنه أنْ يسمع، وأنْ يُعمل عقله، وأنْ يهتدي، ومَا لا يراه يمكن أنْ يخبره به غيره، ويَصِفه له وَصْفاً دقيقاً وكأنّه يراه، لكن ما العمل إذا عَميَتْ القلوب، والأنظار مبصرة؟ وإذا كان لعمى الأبصار بديل وعِوَض، فما البديل إذا عَمي القلب؟

﴿ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾: معلومٌ أنّ القلوب في الصّدور، فلماذا جاء التّعبير هكذا؟ قالوا: ليؤكّد لنا على أنّ المراد القلب الحقيقيّ، حتّى لا نظنّ أنّه القلب التّفكيريّ التّعقّليّ، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم﴾ [آل عمران: من الآية ١٦٧]، ومعلوم أنّ القَوْل من الأفواه، لكنّه أراد أن يؤكّد على القول والكلام؛ لأنّ القول قد يكون بالإشارة والدّلالة، فالقول بالكلام هو أبلغ أنواع القول.

(الآية ٤٧) - ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٤٧﴾:

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾: ألم يقولوا في استعجال العذاب: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: من الآية ٣٢]؟ وقالوا: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾ [الأعراف: من الآية ٧٠]، ولا يستعجل الإنسانُ العذابَ إلّا إذا كان غَيْرَ مؤمن به، المؤمن بالعذاب -حقيقةً- يخاف منه، ولا يريد أنْ يراه، ويريد أنْ ينجوَ منه.

والمعنى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾: أنّهم يظنّون أنَّه إنْ توعّدهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعذاب فإنّه سيقع لِتَوِّه، لذلك الحقّ جَلَّ جَلَالُهُ يصحّح لهم هذا الفهم، فيقول:

﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾: فلا تتعجّلوا توعّدكم به، فهو واقع بكم لا محالة؛ لأنّه وَعْد من الله عَزَّ وَجَلَّ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُخلِف وعده، لكن اعلموا أنّ اليوم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس كيومكم، اليوم عندكم أربع وعشرون ساعة، أمّا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو كألف سنة من حسابكم أنتم للأيّام، واليوم زمن يتّسع لبعض الأحداث، ولا يسع أكثر ممّا قدِر أن يُفعل فيه من الأحداث، أمّا اليوم عند الله عَزَّ وَجَلَّ فيسع أحداثاً كثيرة تملأ من الزّمن ألف سنة من أيّامكم؛ ذلك لأنّكم تزاولون الأعمال وتعالجونها، أمّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنّه لا يزاول الأفعال بعلاج، وإنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كُنْ فيكون، ففِعْلُنا يحتاج إلى وقت، أمّا فِعْل ربّنا فبكلمة: كُنْ، وقد شاء الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ يعيشَ هؤلاء في عذاب التّفكير في هذا الوعيد طول عمرهم، فيُعذّبون به قبل

حدوثه، فلا تظنّ أنّ العذاب الّذي توعّدكم به سيحدث اليوم أو غداً، لا؛ لأنّ حساب الوقت مختلف، ألم تقرأ قول الله عَزَّ وَجَلَّ لنبيّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا دعا على قومه: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾ [يونس: من الآية ٨٨]، قال له ربّه: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ [يونس: من الآية ٨٩]، ويقول المفسّرون: حدثتْ هذه الإجابة لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أربعين سنة من دعوته عليهم، وفي موضع آخر يقول جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٥﴾ [السّجدة]، وتزيد هذه المدّة في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤﴾ [المعارج]، لماذا؟ لأنّ الزّمن عندكم في هذه الحالة مُعطَّل، فأنتم من هَوْل ما ترَوْنَ تستطيلون القصير، ويمرّ عليكم الوقت ثقيلاً؛ لذلك تتمنّون الانصراف ولو إلى النّار.

(الآية ٤٨) - ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ٤٨﴾:

﴿وَكَأَيِّن﴾: قلنا: تدلّ على الكثرة، يعني: كثير من القرى.

﴿أَمۡلَيۡتُ لَهَا﴾: أمهلتُ، لكن طول الإمهال لا يعني الإهمال؛ لأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُملي للكافر ويُمهله لأَجَل، فإذا جاء الأَجَل والعقاب أخذه.

فالإملاء: تأخير العذاب إلى أجلٍ معيّن، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾ [الطّارق]، هذا الأجل قد يكون لمدّة، ثمّ يقع بهم العذاب، كما حدث في الأمم السّابقة الّتي أهلكها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالخسْف أو بالغرق.. إلخ،

أمّا في أمّة محمّد ﷺ، فيكون الإملاء بأحداث سطحيّة في الدّنيا، كالّذي حَلَّ بكفّار قريش من الخِزْي والهوان والهزيمة وانكسار شوكتهم، أمّا العذاب الحقيقيّ فينتظرهم في الآخرة، لذلك يقول الحقّ سبحانه وتعالى لنبيّه ﷺ: لا تستبطئ عذابهم والانتقام منهم في الدّنيا، فما لم تَرَهُ فيهم من العذاب في الدّنيا ستراه في الآخرة: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٧٧﴾ [غافر: من الآية ٧٧].

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾: وأخْذُ الشّيء يتناسب مع قوّة الآخذ وقدرته وعنف الانتقام بحسب المنتقم، فإذا كان الآخذ هو الله عزّ وجلّ، فكيف سيكون أَخْذه؟ في آية أخرى يوضّح ذلك فيقول: ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢﴾ [القمر: من الآية ٤٢]، لا يُغالب، ولا يمتنع منه أحد، وكلمة الأَخْذ فيها معنى الشّدّة والعنف والقَهْر.

﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾: يعني: المرجع والمآب، فلن يستطيعوا أنْ يُفلِتوا.

(الآية ٤٩) - ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٤٩﴾:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: فالنّبيّ ﷺ مبعوث للنّاس كلّهم.

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ﴾: الإنذار نوع من الرّحمة؛ لأنّك تخبر بشرٍّ قبل أوانه، ليحذره المنذَر، ويحاول أنْ يُنجي نفسه منه، ويبتعد عن أسبابه.

﴿مُّبِينٌ﴾: محيط، لا يترك صغيرة ولا كبيرة.

(الآية ٥٠) - ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠﴾:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: طالما آمنوا وعملوا الصّالحات فقد انتفعوا بالنّذراة، وأثمرتْ فيهم، فآمنوا بالله عزّ وجلّ إلهاً فاعلاً مختاراً له صفات

الكمال المطلق، ثمّ عملوا على مقتضى أوامره؛ لذلك يكون لهم مغفرة إنْ كانت أَلَمَّتْ نفوسهم بشيء من المعاصي، ويكون لهم رزق كريم، ولا بدّ من ربط الإيمان دوماً بالعمل الصّالح، فالعمل الصّالح هو ترجمان الإيمان، فلا نقول: نحن نؤمن بالله ﷻ، ولا نترجم هذا الإيمان بعمل صالح للمجتمع وللنّاس جميعاً، يبدأ بالبرّ بالوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، وبعد ذلك تتّسع الدّوائر لتشمل المجتمع والناس كلّهم، فالمؤمن الحقيقيّ بالله سبحانه وتعالى خيره لغيره.

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾: فالله سبحانه وتعالى يغفر ذنوبهم.

﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾: والكريم هو الّذي يبذل، كأنّ الرّزق نفسه وصل إليهم بكرم وزيادة، كما أنّ الكريم هو الّذي تظلّ يده مبسوطة دائماً بالعطاء، فالرّزق نفسه كريم؛ لأنّه ممدود لا ينقطع، كما لو أخذنا كوب ماء من ماء جارٍ، فإنّه يحلُّ محلَّه غيره على الفور، وهكذا هو عطاء الكرم لمن رزقهم الله سبحانه وتعالى.

(الآية ٥١) - ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٥١﴾:

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ﴾: السّعي: عمل يذهب إلى غاية، فإنْ كان قطع مسافة نقول: سِرنْا من كذا إلى كذا، وإنْ كان في قضيّة علميّة فكريّة، فيعني: أنّ الحدث يعمل من شيء بداية إلى شيء غاية، والسَّعْيُ لا يُحمد على إطلاقه، ولا يُذَمُّ على إطلاقه، فإنْ كان في خير فهو محمود ممدوح، كالسّعي الّذي قال الله سبحانه وتعالى فيه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾ [الإسراء: من الآية ١٩]، وإنْ كان في شَرٍّ فهو قبيح مذموم، كالسّعي الّذي قال الله سبحانه وتعالى فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ٢٠٥﴾ [البقرة]، أمّا السّعاية فعادة تأخذ جانب الشّرّ، وتعني: الوشاية والسّعي بين النّاس بالنّميمة، تقول: فلان سَعَّاء بين الخلق، يعني: بالشّرّ ينقله بين النّاس بقصْد الأذى، وهؤلاء إنْ عَلِموا الخير أخفَوْه، وإنْ علموا الشّرّ أذاعوه، وإن لم يعلموا كذبوا؛ لذلك نقول عَمَّا ينتج من هذه السّعاية من الشّرّ بين النّاس: هذا آفة الآخِذ، يعني: الّذي سمع الشّرَّ ونقله وسعى به، وكان عليه أنْ يحبسه ويُخفِيَه، حتّى لا تنتشر هذه الرّذيلة بين الخَلْق.

﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾: والآيات إمّا كونيّة، كالشّمس والقمر، وإمّا معجزات، وإمّا آيات الأحكام، وسَعَوْا فيها، يعني: قالوا فيها قوْلاً باطلاً غير الحقّ، كما يسعى الواشي بالباطل بين النّاس، فهؤلاء إنْ نظروا في آيات الكون قالوا: مَن صنع الطّبيعة، وإنْ شاهدوا معجزة على يد نبيٍّ قالوا: سحر وأساطير الأوّلين، وإنْ سمعوا آيات الأحكام تُتْلى قالوا: شعر، وهم بذلك كلّه يريدون أنْ يُفسِدوا على أهل الإيمان إيمانهم، ويصدُّوا عن سبيل الله ﷻ.

﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: جمع لاسم الفاعل معاجز، مثل: مقاتل، وهي من عَاجَزَ غير عجز عن كذا، يعني: لم يقدر عليه، عَاجَزَ فلانٌ فلاناً يعني باراه أيُّهما يعجز قبل الآخر، فعاجزه مثل باراه ليثبتَ أنّه الأفضل، ومثل: سابقه ونافسه، فالمعاجزة مفاعلة ومشاركة، وكلمة نافسه الأصل فيها من النّفَس الّذي نأخذه في الشّهيق، ونُخرِجه في الزّفير، والّذي به يتأكسد الدّم، وتستمرّ حركة الإنسان، فإن امتنع التّنفّس يموت؛ لأنّ الإنسان يصبر على الطّعام ويصبر على الماء، لكنّه لا يصبر على الهواء ولو لنفَس واحد.

فمعنى: ﴿سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾؛ أي: يظنّون أنّهم قادرون أن يُعجزونا، فحين نأتي إليهم بكلام بليغ مُعْجز يختلقون كلاماً فارغاً ليعجزونا به، فأنّى يكون لهم ذلك؟ وأنّى لهم أنْ يطعنوا بكلامهم على كلام الله ﷻ؟ ثمّ يُبيّن جزاء هذا الفعل وهذه المكابرة:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾: فهذا حُكْم الله ﷻ فيهم قضيّة واضحة من أقصر الطّرق، فمَنْ ذَا الّذي يُعجِز الله ﷻ؟

(الآية ٥٢) - ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾:

أثارت هذه الآية جَدلاً طويلاً بين العلماء، ودخل فيه كثير من الحشْو والإسرائيليّات، خاصّة حول معنى: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾، وهي تَرد في اللّغة بمعنيين، وما دام اللّفظ يحتمل معنيين فليس أحدهما أَوْلَى من الآخر إلّا بمدى استعماله وشيوعه بين جمهور العربيّة، ويأتي التّمنّي في اللّغة بمعنى القراءة، أو بمعنى: أحبّ أن يكون الشّيء، وهذا هو القول المشهور في لغة العرب، أمّا بمعنى: قرأ، فهو غير شائع، ويُردّ هذا القول، وينقضه نَقْضاً أوّلياً مبدئيّاً قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾، فالّذين فهموا التّمنّي في قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أنّه بمعنى: قرأ، سواء أكانوا من العلماء المتعمِّقين أم السّطحيّين، قالوا: المعنى إذا قرأ رسولُ الله ﷺ القرآنَ الكريم تدخّل الشّيطان في القراءة، حتّى يُدخِل فيها ما ليس منها،

وذكروا دليلاً على ذلك في قوله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠﴾ [النّجم]، ثمّ أضافوا: (والغرانيق العلا، وإنّ شفاعتهنّ لترتجى)، وكأنّ الشّيطان أدخل في القرآن الكريم هذا الكلام، ثمّ نسخه الله ﷻ بعد ذلك، وأحكم الله ﷻ آياته، لكنّ هذا القول باطل وغير صحيح على الإطلاق؛ لأنّه يُشكِّك في قضيّة القرآن الكريم، وكيف نقول به بعد أن قال ﷻ في القرآن الكريم: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤﴾ [الشّعراء]، وقال: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧﴾ [الحاقّة]، فالحقّ ﷻ حفظ قرآنه وكلامه من أمثال هذا العبث، ولا يمكن أن يُدخَل في القرآن الكريم ما ليس فيه من كفريّات، وكيف تستقيم عبارتهم: (والغرانيق العلا، وإنّ شفاعتهنّ لترتجى)؟ هذا قول المرجفين وقول الجهلة من كفّار مكّة، هذا لا ينسجم، فهذا الفهم في تفسير الآية لا يستقيم، ولا يمكن للشّيطان أنْ يُدخِل في القرآن الكريم ما ليس منه، لكن يحتمل تدخُّل الشّيطان على وجه آخر: فحين يقرأ رسول الله ﷺ القرآن الكريم، وفيه هداية للنّاس، وفيه مواعظ وأحكام ومعجزات، أننتظر من عدوّ الله أنْ يُخلِي الجوّ للنّاس حتّى يسمعوا هذا الكلام دون أنْ يُشوِّش عليهم، ويُبلبل أفكارهم، ويَحُول بينهم وبين سماعه؟ فإذا تمنّى الرّسول يعني: قرأ ألقى الشّيطان في أُمنيّته، وسلَّط أتباعه من البشر يقولون في القرآن الكريم: سِحْر وشِعْر وإفْك وأساطير الأوّلين: فدَوْر الشّيطان لا أنْ يُدخِلَ في كلام الله ﷻ ما ليس منه، فهذا أمر محال لا يقدر عليه، ولا يُمكِّنه الله ﷻ من كتابه أبداً، إنّما يمكن أنْ يُلقِي في طريق القرآن الكريم وفَهْمه والتّأثّر به العقبات والعراقيل

الّتي تصدُّ النّاس عن فَهْمه والتّأثّر به، وتُفسِد على النّاس نظرهم وتأمّلهم في القرآن الكريم، هذه المحاولة في التّشويش على القرآن الكريم وصَدّ النّاس عنه جاءت منذ نزل القرآن الكريم، ولكن هل صرفت النّاس عن القرآن الكريم؟ لا، لقد خيَّبَ الله ﷻ سَعيْه، ولم تقف محاولاته عقبة في سبيل الإيمان بالقرآن الكريم والتّأثّر به؛ لأنّ القرآن الكريم وجد قلوباً وآذاناً استمعتْ وتأمّلتْ فآمنت وانهارتْ لجلاله وعظمته وخضعتْ لأسلوبه وبلاغته، فآمنوا به واحداً بعد الآخر.

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾: يعني: ألغى وأبطل ما ألقاه الشّيطان من الأباطيل والعقبات الّتي أراد بها صدّ النّاس عن القرآن الكريم، وأحكمَ الله ﷻ آياته، وأوضح أنّها منه ﷻ، وأنّه كلام الله ﷻ المعْجز الّذي لو اجتمعتْ الإنس والجنُّ على أنْ يأتوا بمثله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، هذا على قول مَنِ اعتبر أنّ ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ بمعنى: قرأ.

أمّا على معنى أنّها الشّيء المحبوب الّذي نتمنّاه، فنقول: الرّسول الّذي أرسله الله ﷻ بمنهج الحقّ إلى الخَلْق، فإنْ كان قادراً على تطبيق المنهج في نفسه فإنَّ أُمنيّته أنْ يُصدَّق وأنْ يُطاع فيما جاء به، أمنيّته أنْ يسود منهج الله ﷻ ويُسيطر ويسُوس به حركة الحياة في النّاس، والنّبيّ أو الرّسول هو أَوْلى النّاس بقومه، وهو أحرصهم على نَفْعهم وهدايتهم، والقرآن الكريم خير يحبّ للنّاس أن يأخذوا به عملاً بقوله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ

مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[1]، لكن هل يترك الشّيطان لرسول الله ﷺ أنْ تتحقّق أُمنيّته في قومه أَو أنّه يضع في طريقه العقبات، ويُحرِّك ضدّه النّفوس، فيتمرّد عليه كفّار قريش من قومه حيث يُذكِّرهم الشّيطان بما كان لهم من سيادة ومكانة سيفقدونها بالإسلام؟ وهكذا يُلْقي الشّيطان في أُمنية الرّسول: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾، وما كان الشّيطان ليدع القرآن الكريم ينفذ إلى قلوب النّاس أو حتّى آذانهم، أليس هو صاحب فكرة: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾ [فصّلت: من الآية ٢٦]؟ إنّ الشّيطان لو لم يُلْق العراقيل في سبيل سماع القرآن الكريم ويُشكّك فيه لآمن به كلّ مَنْ سمعه؛ لأنّ للقرآن الكريم حلاوةً لا تُقَاوم، وأثراً ينفذ إلى القلوب مباشرة، ومع ذلك لم يَفُتّ ما ألقى الشّيطان في عَضُد القرآن الكريم، ولا في عَضُد الدّعوة إلى الله ﷻ، فأخذت تزداد يوماً بعد يوم، ويزداد عدد المؤمنين بالقرآن الكريم المصدِّقين به، المهمّ أن نتنبّه: كيف نستقبل القرآن الكريم، وكيف نتلقّاه، لا بدّ أن نستقبله استقبالَ الخالي من هوى، فالّذي يفسد الأحكام أنْ تُستقبل وتدخل على هوى سابق. وفي آية أخرى يقول الحقّ سبحانه وتعالى عن القرآن الكريم: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾ [فصّلت: من الآية ٤٤]، فالقرآن الكريم واحد، فالفاعل واحد، لكنّ المستقبِل للفعل مختلف.

﴿مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ﴾: (من) هنا للدّلالة على العموم وشمول

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، بابٌ: مِنَ الإيمان أن يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفْسِهِ، الحديث رقم (١٣).

الأنبياء والرّسل السّابقين كلّهم، فكلّ نبيّ أو رسول يتمنّى؛ يعني: يودّ ويحبّ ويرغب أن ينتشر دينه ويُطبَّق منهجه، ويؤمن به قومه جميعهم، لكن هيهات أنْ يتركه الشّيطان وما أحبَّ، بل لا بُدَّ أنْ يقف له بطريق دعوته ليصدَّ النّاس عنه ويصرفهم عن دعوته ومنهجه، لكن في النّهاية ينصر الله ﷻ رسُله وأنبياءه، وينسخ عقبات الشّيطان الّتي ألقاها في طريق الدّعوة، ثمّ يُحكِم الله ﷻ آياته، ويؤكّدها ويظهرها، فتصير مُحْكَمة لا ينكرها أحد.

وساعةَ نسمع كلمة: ﴿أَلْقَى﴾ فلنعلم أنّ بعدها عقبات وشروراً، كما يقول ﷻ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: من الآية ٦٤].

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: عليم بكيد الشّيطان، وتدبيره، حكيم في علاج هذا الكيد.

(الآية ٥٣) - ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾:

ولسائل أن يقول: إذا كان الله ﷻ ينسخ ما يُلقي الشّيطان، فلماذا كان الإلقاءُ بدايةً؟ جعل الله ﷻ الإلقاء فتنةً ليختبر النّاس، وليُميِّز مَنْ ينهض بأعباء الرّسالة، فهي مسؤوليّة لا يقوم بها إلّا مَنْ يُنقَذ من الفتن، وينجو من إغراءات الشّيطان، ويتخطّى عقباته وعراقيله.

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: مرض؛ أي: نفاق، فإنْ تعرَّض لفتنة انقلب على وجهه، يقول كما يقولون: سحر وكذب وأساطير الأوّلين، وكذلك فتنة:

﴿وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾: وهم الّذين فقدوا لين القلب، فلم ينظروا إلى الجميل عليهم في الكون خَلْقاً وإيجاداً وإمداداً، ولم يعترفوا بفضل الله ﷻ عليهم، ولم يستبشروا به ويأتوا إليه.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾: فهم ظالمون أوّلاً لأنفسهم حين نظروا إلى منفعة عاجلة قليلة، وتركوا منفعة كبيرة دائمة.

الشِّقاق: الخلاف، ومنه قولنا: هذا في شِقٍّ، وهذا في شِقٍّ، يعني: غير ملتئمين، وليْته شِقَاق هَيِّن يكون له اجتماع والتئام، ليته كشِقَاق الدّنيا بين النّاس على عَرَضٍ من أعراض الحياة، إنّما هم في شقاق بعيد، يعني: أثره دائم.

(الآية ٥٤) - ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾:

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: يعني: يتأكّدوا تأكيداً واضحاً أنّ هذا هو الحقّ، مهما شوَّشَ عليه المشوِّشُون، ومهما قالوا عنه: إنّه سحر، أو كذب، أو أساطير الأوّلين؛ لأنّ الله ﷻ سيُبطل هذا كلّه، وسيقف أهل العلم والنّظر على صِدْق القرآن الكريم بما لديهم من حقائق ومقدّمات واستدلالات يعرفون بها أنّه الحقّ، وما دام هو الحقّ الّذي لم تزعزعه هذه الرّياح الكاذبة فلا بُدّ أن يؤمنوا به.

﴿فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ﴾: ثمّ يتبع هذا الإيمان عملٌ وتطبيق.

﴿فَتُخۡبِتَ لَهُۥ﴾: يعني: تخشع وتخضع وتلين وتستكين.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾: فمسألة كيد الشّيطان وإلقائه لم تنته بموت الرّسول، بل هو قاعد لأمّته من بعده، ولكلّ مَنْ حمل عنه الدّعوة، لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢﴾ [الأنعام]، يعني: دعهم جانباً فالله سبحانه وتعالى لهم بالمرصاد، فلماذا فعلوه؟ وما الحكمة؟ يقول جل جلاله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران: من الآية ١٤١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأنعام: من الآية ١١٣]، فمهمّة الشّيطان أنْ يستغلّ ضعاف الإيمان، ومَنْ يعبدون الله سبحانه وتعالى على حرف من أصحاب الاحتجاجات التّبريريّة الّذين يريدون أنْ يبرّروا لأنفسهم الانغماس في الشّهوة والسّير في طريق الشّيطان، وهؤلاء يحلو لهم الطّعن في الدّين، ويتمنّون أن يكون الدّين والقيامة والرّبّ أوهاماً لا حقيقة لها؛ لأنّهم يخافون أن يتورّطوا بأعمالهم السّيّئة ونهايتهم المؤلمة، فهم يستبعدون القيامة ويقولون: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦﴾ [الصّافّات]، فالمسلم حريص على أن يحمل منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يسود هذا المنهج حركة الحياة، لكن لن يدَعه الشّيطان يُحقّق هذه الأمنية، كما لم يدع رسوله صلى الله عليه وسلم من قبل، فكيْده وإلقاؤه لم ينتهِ بموت الرّسول، وإنّما هو بَاقٍ، وإلى أنْ تقومَ السّاعة.

(الآية ٥٥) - ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾:

﴿فِي مِرۡيَةٖ﴾: يعني: في شكّ من هذا، لذلك قلنا: إنّ أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم مُكلّفون من الله سبحانه وتعالى بأنْ يكونوا امتداداً لرسالته، بدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ

﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: من الآية ١٤٣]، شهداء أنّكم بلّغتم كما كان الرّسول ﷺ شهيداً عليكم، فكلٌّ مِنّا كأنّه مبعوث من الله ﷻ، كما قال رسول الله ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»[1]؛ لذلك جاءت هذه الآية للأمرين ليكون الرّسول شهيداً عليكم، وتكونوا شهداء على النّاس، والحقّ سبحانه وتعالى حينما حمَّلنا هذه الرّسالة، قال: ما دُمْتم امتداداً لرسالة الرّسول، فلا بُدَّ أنْ تتعرَّضوا لما تعرَّض له الرّسول من استهزاء وإيذاء وإلقاء في أمنياتكم، فإنْ صمدتم فإنّ الله سبحانه وتعالى ينسخ ما يُلقي الشّيطان، وينصر في النّهاية أولياءه، وسيظلّ الإسلام إلى أنْ تقوم السّاعة، وسيظلّ هناك أناس يُعَادُون الدّين ويُشكِّكون فيه، وسيظلّ الملحدون الّذين يُشكِّكون النّاس في وجود الله سبحانه وتعالى يخرجون علينا من حين إلى آخر بما يتناقض ودين الله سبحانه وتعالى، كقولهم: إنّ هذا الكون خُلِق بالطّبيعة، وترى وتسمع هذا الكلام في كتاباتهم ومقالاتهم، ولم يَسْلم العلم التّجريبيّ من خرافاتهم هذه، فإنْ رأوا الحيوان منسجماً مع بيئته قالوا: لقد أمدّته الطّبيعة بلون مناسب وتكوين مناسب لبيئته، وفي النّبات حينما يقفون عند آية من آياته مثلاً: ﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾ [الرّعد: من الآية ٤]، يقولون: إنّ النّبات يتغذّى بعمليّة الانتخاب، يعني النّبات هو الّذي ينتخب ويختار غذاءه، ففي التّربة الواحدة وبالماء الواحد ينمو النّبات الحلو والمرّ والحمضيّ، فبدل أنْ يعترفوا لله سبحانه وتعالى بالفضل والقدرة يقولون: الطّبيعة وعمليّة الانتخاب، وعندما نتحدّث مع بعض هؤلاء، ونحاول إبطال ما قالوا بالحجج وأبسطها أنّ عمليّة الانتخاب تحتاج إلى إرادة واعية

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، الحديث رقم (٣٤٦١).

تُمَيِّز بين الأشياء المنتخبة، فهل عند النّبات إرادة تُمكِّنه من اختيار الحلو أو الحامض؟ وهل يُميِّز بين المرِّ والحلو؟ إنّهم يحاولون إقناع النّاس بدور الطّبيعة ليبعدوا عن الأذهان قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، فيقولون: إنّ النّبات يتغذّى بخاصّيّة الأنابيب الشّعريّة، يعني: أنابيب ضيّقة جدّاً تشبه الشّعرة فسمّيت بها، ونحن نعرف أنّ الشّعرة عبارة عن أنبوبة مجوّفة، وحين تضع هذه الأنبوبة الضّيّقة في الماء، فإنّ الماء يرتفع فيها إلى مستوى أعلى؛ لأنّ ضغط الهواء داخل هذه الأنبوبة لضيقها أقلّ من الضّغط خارجها لذا يرتفع فيها الماء، أمّا إنْ كانت هذه الأنبوبة واسعة فإنّ الضّغط بداخلها سيساوي الضّغط خارجها، ولن يرتفع فيها الماء، فقُلْنا لهم: لو أحضرنا حوضاً به سوائل مختلفة، مُذَاب بعضها في بعض، ثمّ وضعنا به الأنابيب الشّعْريّة، هل سنجد في كلّ أنبوبة سائلاً معيّناً دون غيره من السّوائل، أم سنجد بها السّائل المخلوط بعناصره كلّها؟ لو قمنا بهذه التّجربة فستجد السّائل يرتفع في الأنابيب بهذه الخاصّيّة، لكنّها لا تُمَيِّز بين عنصر وآخر، فالسّائل واحد في الأنابيب كلّها، وما أبعد هذا عن نموّ النّبات وتغذيته، وصدق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حين قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى]، فما أبعدَ هذه التّفسيرات عن الواقع، وما أجهلَ القائلين بها والمروِّجين لها، خاصّة في عصر ارتقى فيه العلم، وتقدّم البحث، وتنوَّعت وسائله في عصر استنارتْ فيه العقول، واكتُشِفت أسرار الكون الدّالّة على قدرة خالقه عَزَّوَجَلَّ، ومع ذلك لا يزال هناك مبطلون، والحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾، فهم موجودون في أمّة محمّد ﷺ إلى أنْ تقومَ السّاعة، وسنواجههم نحن كما واجههم رسول الله ﷺ،

وسيظلّ الشّيطان يُلقِي في نفوس هؤلاء، ويوسوس لهم، ويوحي إلى أوليائه من الإنس والجنّ، ويضع العقبات والعراقيل ليصدَّ النّاس عن دين الله ﷻ، هذا نموذج من إلقاء الشّيطان في مسألة القمّة، وهي الإيمان بالله ﷻ، ونعجب لهجوم هؤلاء على رسول الله ﷺ، طالما هم لا يؤمنون به، فإنّ هذا الهجوم يحمل في طيّاته إيماناً بأنّه رسول الله ﷺ، وإلّا لَمَا استكثروا عليه ولَمَا انتقدوه، فلو كان شخصاً عاديّاً ما تعرَّض لهذه الانتقادات؛ لذلك نحن لا نناقش أمثال هؤلاء في مسألة الرّسول ﷺ، إنّما في مسألة القمّة، ووجود الإله، ثمّ الرّسول المبلّغ عن هذا الإله، أمّا أنْ نخوض معهم في قضيّة الرّسول بدايةً فلن نصلَ معهم إلى حَلٍّ؛ لأنّهم يضعون مقاييس الكمال من عندهم، ثمّ يقيسون عليها سلوكيّات رسول الله ﷺ، وهذا وَضْع مقلوب، فالكمال نأخذه من الرّسول ﷺ ومن فِعْله، ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: من الآية ٢١]، لا نضع له نحن مقاييس الكمال، ثمّ يُشكِّكون بعد ذلك في الأحكام، فيعترضون على التّشريع الإسلاميّ فيما يتعلّق بالمرأة وغيرها، مثلاً على الطّلاق في الإسلام، وكيف نفرّق بين زوجين؟ وهذا أمر عجيب منهم، فكيف نجبر زوجين كارهين على معاشرة لا يَبْغُونها، وكأنّهما مقترنان في سلسلة من حديد؟ كيف ونحن لا نستطيع أنْ نربط صديقاً بصديق لا يريده، وهو لا يراه إلّا مرّة واحدة في اليوم مثلاً؟ فهل نستطيع أن نربط زوجين في مكان واحد، وهما مأمونان على بعض في حال الكراهية؟ ويُخيِّب الله ﷻ سَعْيهم، ويُظهر بطلان هذه الأفكار، وتُلجِئهم أحداث الحياة ومشكلاتها إلى تشريع الطّلاق، حيث لا بديلَ عنه لحلِّ مثل هذه المشكلات، ونحن عندما نتحدّث عن الطّلاق نعلم أنّه أبغض

الحلال إلى الله ﷻ، والله ﷻ أمر بالصّلح والإصلاح بين الزّوجين، ووضع حلولاً كثيرة قبل أن نلجأ إلى الطّلاق، فإذا تعطّلت هذه الحلول كلّها فالطّلاق لا بدّ منه لاستمرار الحياة، وقد ناقش هؤلاء كثيراً في قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التّوبة: من الآية ٣٣]، وفي قوله ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الصّفّ]، وفي آية أخرى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩﴾ [الصّفّ: من الآية ٩]، يقولون: ومع ذلك لم يتمّ الدّين، ولا يزال الجمهرة العالميّة في الدّنيا غَيْر مؤمنين بالإسلام، وهذا القول منهم ناشئ عن عدم فَهْم للآية، ولمعنى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ [التّوبة: من الآية ٣٣]، فهي لا تعني أنّ العالم كلّه سيُسلم، وأنّ الإسلام سيمحو المخالفين له، إنّما يُظهِره يعني: يكتب له الغلبة بصدق حُجَجه وقضاياه على كُرْهٍ من الكافرين والمشركين، فهم موجودون، لكن يظهر عليهم، ويعلو تشريع الإسلام، ويضطرّون هم للأخذ بقوانينه وتشريعاته حَلّاً لمشكلاتهم، وكَوْنهم يتّخذون منه حلّاً لمشكلاتهم وهم كافرون به أبلغ في الرّدِّ عليهم لو آمنوا به، فلو آمنوا بالإسلام ما كان ليظهر عليهم ويعلوهم، فما كنتم تُشكِّكون فيه وتقولون: إنّه ما كان يصدر من إله ولا رسول، فها هي الأيّام قد عضّتكم بأحداثها وتجاربها وألجأتكم إلى هذا الحكم الّذي تعارضونه، وها أنتم تُشرِّعون بتشريع الإسلام وأنتم كافرون به، وهذا دليل ظهوره عليكم.

﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾: يعني: فجأة، وقد تكلّم العلماء في معنى السّاعة: أهي يوم القيامة، أم يوم يموت الإنسان؟ السّاعة تشمل المعنيين معاً، على اعتبار أنّ مَنْ مات فقد قامت قيامته، حيث انقطع عمله، وموت

الإنسان يأتي فجأة، كما أنّ القيامة تأتي فجأة، فهما يستويان، لكن إنْ كانت السّاعة تفجؤهم بغتة بأهوالها، فما العلامات الصُّغْرى؟ وما العلامات الكبرى؟ أليست مقدّمات تأذن بحلول السّاعة، وحينئذ لا تُعَدُّ بغتة؟ قال العلماء: علامات الشّيء لا تعني وجوده، العلامة تعني: قُرْب موعده فانتبهوا واستعِدُّوا، أمّا وقت حدوثه فلا يعلمه أحد، ولا بُدَّ أنْ يأتي بغتة مع هذه المقدّمات.

﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾: قال بعضهم: إنّ اليوم العقيم يعني القيامة، وبالتّالي فالسّاعة تعني الموت، وآخرون قالوا: إنّ اليوم العقيم المراد به يوم بدر الّذي فصل الله ﷻ فيه بين الحقّ والباطل، وهذا اجتهادٌ يُشْكَرون عليه، لكن عندما نتأمّل الآية: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾، يعني: المريّة مستمرّة، لكنّ بدراً انتهت، والمريّة ستظلّ إلى أن تقوم السّاعة، ولا مانعَ أن تكون السّاعة بمعنى القيامة، واليوم العقيم أيضاً هو يوم القيامة، فيكون المدلول واحداً؛ لأنّ هناك فرقاً بين زمن الحدث والحدث نفسه، فالسّاعة هي زمن يوجد فيه الحدث وهو العذاب، فالسّاعة أوّلاً ثمّ يأتي العذاب، مع أنّ مجرّد قيام السّاعة في حَدِّ ذاته عذاب.

﴿يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾: العقيم: الّذي لا يلد، رجل كان أو امرأة، فلا يأتي بشيء بعده، ومنه قوله ﷻ عن سارة امرأة إبراهيم عليه السلام: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ ٢٩﴾ [الذّاريات: من الآية ٢٩]، وكذلك يوم القيامة يوم عقيم، حيث لا يوم بعده أبداً، فهو نهاية المطاف على حَدِّ قول أحدهم: حَبَتْهُم به الدّنيا وأدركَها العُقْم، أو: ﴿عَقِيمٍ﴾، بمعنى: أنّها لا تأتي بخير، بل بشرٍّ، كما في قوله ﷻ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ٤٢﴾ [الذّاريات]؛ ذلك لأنّ الرّيح

حين تهبُّ ينتظر منها الخير، إمّا بسحابة مُمطرة، أو تحريك لقاح الذّكورة بالأنوثة: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: من الآية ٢٢]، أمّا هذه فلا خَيْر فيها، ولا طائل منها، وتجلْب الضّرر: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذّاريات]، فهي تدمّر كلّ شيء تمرُّ عليه، وكما جاء في قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءِۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٥﴾ [الأحقاف]، فيكون معنى ﴿عَقِيمٍ﴾: لا خيرَ فيها ولا نفع، بل فيها الشّرّ والعذاب، أو ﴿عَقِيمٍ﴾: لا يأتي يوم بعده؛ لأنّكم تركتم دنيا الأغيار، وتقلّب الأحوال حال بعد حال، فالدّنيا تتقلّب من فقر إلى غنى، ومن صحّة إلى مرض، ومن صِغَر إلى كِبَر، ومن أَمْن إلى خوف، وتتحوّل من صيف إلى شتاء، ومن حرّ إلى برد، ومن ليل إلى نهار، ومن حياة إلى موت، أمّا في الآخرة فقد انتقلتم مِن عالم الأغيار الّذي نعيش فيه بالأسباب إلى عالم آخر نعيش مع المسبِّب ﷻ، وإلى يوم آخر لا يومَ بعده، كأنّه عَقِم أن يكون له عَقِب من بعده أو مثيل له.

(الآية ٥٦) - ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٥٦﴾:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾: لقائلٍ أنْ يقول: أليس الملْك لله ﷻ يومئذ، وفي كلّ يوم؟ نعم، الملْك لله ﷻ في الدّنيا وفي الآخرة، لكن في الدّنيا خلق الله ﷻ خَلْقاً وملّكهم، وجعلهم ملوكاً من باطن مُلْكه ﷻ، لكنّه مُلْك لا يدوم، كما

قال ﷻ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران]، ففي الدّنيا ملوك مَلّكهم الله ﷻ أمراً من الأمور، ففيها ملك للغير، أمّا في الآخرة فالملْك لله ﷻ وحده: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: من الآية ١٦]، وفي القيامة: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾، فقد رَدَّ الملْك كلّه إلى صاحبه، ورُدَّت الأسباب إلى مُسبِّبها.

﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾: معناها أنّ هناك خصومةً بين طرفين، أحدهما على حقّ، والآخر على باطل، والفَصْل في خصومات الدّنيا تحتاج إلى شهود، وإلى بيّنة، وإلى يمين، فيقولون في المحاكم: البيّنة على المدَّعي واليمين على مَنْ أنكر، هذا في خصومات الدّنيا، أمّا خصومات الآخرة فقاضيها الله ﷻ الّذي يعلم السّرَّ وأخفى، فلا يحتاج إلى بيّنة ولا شهود ولا سلطة تُنفِّذ ما حكم به، فمحكمة الآخرة لا تحتاج فيها إلى مُحامٍ، ولا تستطيع فيها أنْ تُدلِّس على القاضي، أو تُؤجِّر شاهد زور، لا تستطيع في محكمة الآخرة أن تستخدم سلطتك الزّمنيّة فتنقض الحكم، أو تُسقطه؛ لأنّ الملْك يومئذٍ لله وحده، والحكم يومئذٍ لله وحده، هو ﷻ القاضي والشّاهد والمنفِّذ، الّذي لا يستدرك على حكمه أحد، ففي الدّنيا لا بُدَّ أن تسفر عن محكوم له ومحكوم عليه، وفي الآخرة الحكم من الله ﷻ، ويُوضِّحهما قوله ﷻ:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾: الّذين عملوا الصّالحات هم الفائزون، وهم الّذين عملوا في الدّنيا حتّى وصلوا إلى الفوز في الآخرة.

(الآية ٥٧) - ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧﴾:

هؤلاء هم الجبابرة وأصحاب العناد والكفر، الّذين حكم الله ﷻ عليهم بالعذاب الّذي يُهينهم بعد عِزَّتهم في الدّنيا، ونلحظ أنّ العذاب يُوصَف مرّة بأنّه أليم، ومرّة بأنّه عظيم، ومرّة بأنّه مُهين، فالعذاب الأليم الّذي يُؤلم صاحبه، لكنّه قد يكون لفترة ثمّ ينتهي، أمّا العذاب العظيم فهو الدّائم، والمهين هو الّذي يُذِلّه ويدوس كرامته الّتي طالما اعتزّ بها.

(الآية ٥٨) - ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨﴾:

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ﴾: وفي موضع آخر يقول ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [الحجّ: من الآية ٤٠]، هؤلاء تحمّلوا الكثير، وتعبوا في سبيل عقيدتهم، فلا بُدَّ أنْ يُعوِّضهم الله ﷻ عن هذه التّضحيات، لذلك يقول هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾، وأوضحنا أنّ الموت غير القتل: الموت أن تخرج الرّوح دون نَقْضٍ للبنية، أمّا القتل فهو نَقْض للبِنْية يترتّب عليه خروج الرّوح.

﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾: تعويضاً لهم عَمَّا فاتوه في بلدهم من أهل ومال، فالله ﷻ يعطيهم أكثر ممَّا تركوا؛ لذلك يقول ﷻ في موضع آخر: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾ [النّساء: من الآية

١٠٠]؛ لأنّ مَنْ قُتِل فقد فاز بالشّهادة ونال إحدى الحُسنْيين، أمّا مَنْ مات فقد حُرِم هذا الشّرف؛ لذلك فقد وقع أجره على الله ﷻ، وما بالنا بأجر مُؤدِّيه ربّنا ﷻ؟

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾: حين يصف الله ﷻ ذاته بصفة، ثمّ تأتي بصيغة الجمع، فهذا يعني أنّ الله ﷻ أدخل معه الخَلْق في هذه الصّفة، كما سبق أنْ تكلّمنا في قوله ﷻ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: من الآية ١٤]، فقد أثبت للخَلْق صفة الخَلْق، وأشركهم معه ﷻ في هذه الصّفة؛ لأنّه جَلَّ جَلَالُهُ لا يبخس عباده شيئاً، ولا يحرمهم ثمرة مجهودهم، فكلّ مَنْ أوجد شيئاً فقد خلقه، حتّى في الكذب قال: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: من الآية ١٧]؛ لأنّ الخَلْق إيجاد من عدم، كذلك يقول ﷻ هنا: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فهناك من يرزق، لكنّ خير الرّازقين هو الله ﷻ.

(الآية ٥٩) - ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ٥٩﴾:

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾: لأنّ الرّزق قد يكون حسناً، لكنّه لا يُرضِي صاحبه، أمّا رزق الله ﷻ لهؤلاء فقد بلغ رضاهم، والرّضا: هو اقتناع النّفس بشيء تجد فيه متعة، بحيث لا تستشرف إلى أعلى منه، ولا تبغي أكثر من ذلك؛ لذلك بعد أنْ ينعَم أهل الجنّة بنعيمها، مِمَّا لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر، يتجلّى الحقّ ﷻ عليهم فيقول لعباده المؤمنين: يا عبادي أرضيتم؟ فيقولون: وكيف لا نرضى وقد أعطيْتنا ما لم تُعْطِ أحداً من العالمين؟ قال: ألا أعطيكم أفضل من هذا؟ قالوا: وهل شيء أفضل

ممّا نحن فيه؟ قال: نعم، أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً، ومن ذلك قوله ﷻ لنبيّه محمّد ﷺ: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضّحى]، وقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾ [الفجر]، يبالغ في الرّضا، حيث يتعدّاك الرّضا إلى أن تكون عيشتك نفسها راضية، وكأنّها تعشقك هي، وترضى بك، ثمّ يقول ﷻ:

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾: عليم: بما يستحقّه كلّ إنسان عند الحساب من النّعيم، ثمّ يزيد مَنْ يشاء من فضله، فليس حساب ربّنا في الآخرة كحسابنا في الدّنيا، إنّما حسابُه ﷻ بالفضل لا بالعدل.

وحليم: يحلم على العبد إنْ أساء، ويتجاوز للصّالحين عن الهَفَوات، فإنْ خالط عملك الصّالح سوء، وإنْ خالفت منهج الله ﷻ في غفلة أو هفوة، فلا تجعل هذا يعكّر صفو علاقتك بربّك أو يُنغِّص عليك طمأنينة حياتك؛ لأنّ ربّك حليم سيتجاوز عن مثل هذا، لذلك عندما وَشَى أحد المؤمنين للكفّار في فتح مكّة، قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الـمُنَافِقِ، قَالَ: «**إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْراً، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[1]، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: من الآية ١١٤]، ومَنِ ابتُلِي بشيء يضعف أمامه، فليكن قويّاً فيما يقدر عليه، وإنْ غلبك الشّيطان في باب من أبواب الشّرّ فشمِّر له في أبواب الخير، فإنّ هذا يُعوِّض ذاك.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الجهاد والسّير، باب الجاسوس، الحديث رقم (٣٠٠٧).

(الآية ٦٠) - ﴿۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠﴾:

﴿۞ ذَٰلِكَۖ﴾: يعني: هذا الأمر الّذي تحدّثنا فيه قد استقرّ، وإليك هذا الكلام الجديد:

﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾: الحقّ سُبحانه وتعالى خلق الإنسان وجعل فيه ملكات مختلفة ليؤدّي خلافته في الأرض بحركات متوازنة، فخلق لنا عواطف وجعل لها مهمّة، هذه العواطف لا يحكمها قانون، وخلق لنا أيضاً غرائز ولها مهمّة، لكنّها محكومة بقانون، فإيّاك أنْ تتعدّى بغريزتك إلى غير المهمّة الّتي خلقها الله سُبحانه وتعالى لها، فمثلاً غريزة حبّ الطّعام جعلها الله سُبحانه وتعالى فينا لاستبقاء الحياة، فلا نجعلها غرضاً أصيلاً لذاتها، فنأكل لمجرّد أنْ نتلذَّذ بالأكل؛ لأنّها لذّة وقتيّة تعقبها آلام ومتاعب طويلة، وهذه الغريزة جعلها الله سُبحانه وتعالى في النّفس البشريّة منضبطة تماماً كما تضبط المنبّه مثلاً، فحين تجوع تجد نفسك تاقتْ للطّعام وطلبته، وإنْ عطشت مالتْ نفسك نحو الماء، وكأنّ بداخلك جرساً يُنبِّهك إلى ما تحتاجه بُنيَتُك من مُقوّمات استبقائها، حبّ الاستطلاع غريزة جعلها الله سُبحانه وتعالى فينا لننظر بها ونستطلع ما في الكون من أسرار دالّة على قدرة الله عزّ وجلّ وعظمته، فلا تتعدّى هذا الغرض، ولا تحرِّك هذه الغريزة إلى التّجسُّس على الخَلْق والوقوف على أسرارهم، التّناسل غريزة جعلها الله سُبحانه وتعالى لحِفْظ النّوع، فلا ينبغي أنْ تتعدّى ما جُعِلَت له إلى ما حرَّم الله سُبحانه وتعالى، الغضب غريزة وانفعال قَسْريّ لا نختاره بعقولنا نغضب أو لا

نغضب، إنّما إنْ تعرّضتَ لأسبابه فلا تملك إلّا أنْ تغضب، ومع ذلك جعل له حدوداً، وقنّن له، وأمر فيه بضبط النّفس وعدم النّزوع، والحبّ والكُرْه غريزة وعاطفة لا تخضع لقانون، ولا يحكمها العقل، فلنا أن نحبّ وأن نكره، لكن علينا ألّا نتعدّى هذه العاطفة إلى عمل عقليٍّ ونزوع نعتدي به أو نظلم، لذلك يقول ﷻ: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾ [المائدة: من الآية ٨]؛ لأنّ هذه المسألة لا يحكمها قانون، وليس بيدك الحبّ أو الكره؛ لذلك لـمّا قابل سيّدنا عمر رضي الله عنه قاتل أخيه زيد، قال له عمر: أَدِرْ وجهك عنّي فإنِّي لا أحبّك، وكان الرّجل عاقلاً فقال لسيّدنا عمر: أَوَ عَدمُ حبّك لي يمنعني حقّاً من حقوقي؟ قال عمر: لا، فقال الرّجل: إنّما يبكي على الحبّ النّساء، يعني أحبّ أو اكره كما شِئْتَ، لكن لا تحرمني حقّاً من حقوقي، فهل وقفنا بالغرائز عند حدودها وأهدافها؟ لو تأمّلنا مثلاً الغريزة الجنسيّة الّتي يصِفُها بعضهم بِمِلْء فِيه أنّها: غريزة بهيميّة، سبحان الله ألَا يستحي هؤلاء أنْ يظلموا البهائم لمجرّد أنّها لا تتكلّم، وهي أفهم لهذه الغريزة منهم، ألَا يرون أنّه بمجرّد أن يُخصِّب الذّكَر أُنثاه لا يقربها أبداً، وهي لا تمكِّنه من نفسها إذا ما حملَتْ، في حين أنّ الإنسان يبالغ في هذه الغريزة، وينطلق فيها انطلاقاً يُخرِجها عن هدفها والحكمة منها؟ فمن النّاس -من خلال غريزته الجنسيّة- مَنْ هم أَدنْى من البهائم بكثير، وما يقال عن غريزة الجنس في الحيوان يقال كذلك في الطّعام والشّراب، فالخالق ﷻ خلق الغرائز فينا، ولم يكبتها، وجعل لها منافذ شرعيّة لتؤدّي مهمّتها في حياتنا؛ لذلك أحاطها بسياج من التّكليف يُنظِّمها ويحكمها حتّى لا تشرد بنا، فقال مثلاً في غريزة الطّعام والشّراب: ﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ

﴿وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ [الأعراف: من الآية ٣١]، وقال في غريزة حبّ الاستطلاع: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: من الآية ١٢]، وهكذا في غرائزنا كلّها نجد لها حدوداً يجب علينا ألّا نتعدّاها؛ لذلك قلنا في صفات الإيمان وفي صفات الكفر: إنّ الله سبحانه وتعالى يصف المؤمنين بأنّهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: من الآية ٢٩]؛ لأنّهم يضعون كلّ غريزة في موضعها، فالشّدّة مع الأعداء، والرّحمة مع إخوانهم المؤمنين، ويقف عند هذه الحدود لا يقلب المقاييس، ويلتزم بقول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: من الآية ٥٤]، وكأنّ الخالق عزّ وجلّ يُسوّينا تسوية إيمانيّة، فالمؤمن لم يُخلَق عزيزاً ولا ذليلاً، إنّما الموقف هو الّذي يضعه في مكانه المناسب، فهو عزيز شامخ أمام العدوّ، وذليل مُنكسِر متواضع مع المؤمنين، ويتفرّع عن هذه المسألة مسألة ردِّ العقوبة إذا اعتُدِي علينا: ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾، الحقّ سبحانه وتعالى هو خالق النّفس البشريّة، وهو أعلم بنوازعها وخَلَجاتها؛ لذلك أباح لنا إن اعتَدى علينا أحد أنْ نردَّ الاعتداء بمثله، حتّى لا يختمر الغضب في نفوسنا، وقد ينتج عنه ما هو أشدّ وأبلغ في ردِّ العقوبة، يبيح لنا الرّدّ بالمثل لتنتهي المسألة عند هذا الحدّ ولا تتفاقم، فمَنْ ضربنا ضربة فلنا أنْ نُنفِّس عن نفوسنا ونضربه مثلها، لكن لا بدّ أن نرى ما قاله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ [النّحل]، وهل تستطيع أن تضبط هذه المثليّة فتردّ الضّربة بمثلها؟ وهل قوّتك كقوّته، وحِدَّة انفعالك كحِدَّة انفعاله؟ والأفضل أن تصبر على الأذى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النّحل: من الآية ١٢٧]، فلنا في التّسامح سِعَة، وفي قول الله سبحانه وتعالى بعدها: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ

﴿لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ [النّحل: من الآية ١٢٦]، مَخْرج من هذا الضّيق، وسبق أنْ حكينا قصّة المرابي اليهوديّ الّذي قال لطالب الدَّيْن: إن تأخّرت في السّداد أشترط عليك أنْ آخذ رطلاً من لحمك، وجاء وقت السّداد ولم يُوف المدين، فرفعه الدّائن إلى القاضي وأخبره بما اشترطه عليه، فقال القاضي: نعم، من حقّك أن تأخذ رطلاً من لحمه لكن بضربة واحدة بالسّكين تأخذ رطلاً، إنْ زاد أو نقص أخذناه منك، فمسألة المثليّة هنا عقبةٌ تحدُّ من ثورة الغضب، وتفتح باباً للارتقاءات الإيمانيّة للعفو، فإنْ كان الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سمح لك أن تُنفِّس عن نفسك فقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشّورى: من الآية ٤٠]، فإنّه يقول لك: لا تنسَ العفو والتّسامح: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: من الآية ١٣٤]؛ لذلك فالآية الّتي معنا تلفتنا لَفْتةً إيمانيّة: ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾، واحدة بواحدة: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ﴾، يعني: زاده بعد أنْ ردَّ العدوان بمثله وظلمه واعتدى عليه: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾، ينصره على المعتدي الّذي لم يرض حكم الله عَزَّوَجَلَّ في رَدِّ العقوبة بمثلها، وتلحظ في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخايل النّصر بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾: مع أنّ الصّفة الّتي تناسب النُّصْرة تحتاج قوّة وتحتاج عزّة، لكنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اختار صفة العفو والمغفرة ليلفت نظر مَنْ أراد أنْ يعاقب إلى هذه الارتقاءات الإيمانيّة: اغفر وارحم واعْفُ؛ لأنّ ربّك عفوّ غفور، فاختار الصّفة الّتي تُحنِّن قلب المؤمن على أخيه المؤمن، ثمّ أليس لك ذنب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ [النّور: من الآية ٢٢]، فما دُمْت تحبّ أن يغفر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لك فاغفر لعباده، وحين تغفر لمَنْ يستحقّ العقوبة تأتي النّتيجة كما

قال ربّك ﷻ: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصّلت: من الآية ٣٤]، فالحقّ ﷻ يريد أن يشيع بيننا الصّفاء النّفسيّ والتّلاحم الإيمانيّ، فأعطانا حقَّ رَدِّ العقوبة بمثلها لننفِّس عن أنفسنا الغيظ، ثمّ دعانا إلى العفو والمغفرة.

(الآية ٦١) - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: يعني ما قُلْته لك سابقاً له دليل، فما هو؟ أنّ الله ﷻ يأخذ من القويّ ويعطي للضّعيف، ويأخذ من الطّويل ويعطي للقصير، فالمسألة ليست ثابتة، وإنّما خلقها الله ﷻ بقدر، واللّيل والنّهار هما ظرفا الأحداث الّتي تفعلونها، والحقّ ﷻ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِ﴾.

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾: يعني: يُدخِل اللّيل على النّهار، فيأخذ منه جزءاً جزءاً فيُطوِّل اللّيل، ويُقصِّر النّهار.

﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِ﴾: ثمّ يُدخِل النّهار على اللّيل فيأخذ منه جزءاً جزءاً، فيُطوِّل النّهار، ويُقصِّر اللّيل؛ لذلك نراهما لا يتساويان، فمرّة يطول اللّيل في الشّتاء مثلاً، ويقصر النّهار، ومرّة يطول النّهار في الصّيف، ويقصر اللّيل، فزيادة أحدهما ونَقْص الآخر أمرٌ مستمرّ، وأغيار متداولة بينهما، وإذا كانت الأغيار في ظرف الأحداث، فلا بُدَّ أن تتغيّر الأحداث نفسها، فعندما يتّسع الظّرف يتّسع كذلك الخير فيه، فمثلاً عندنا في المكاييل: الكَيْلة والقدح..، وكلّ منهما يسَعُ من المحتوى على قدر سعته، وهكذا كما نزيد وننقص في ظرف الأحداث نزيد وننقص في الأحداث نفسها.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾: سميعٌ لما يُقَال، بصيرٌ بما يُفعَل، فالقول يقابله الفعل، وكلاهما عمل، وبعضهم يظنّ أنّ العمل شيء والقول شيء آخر، لا؛ لأنّ العمل وظيفة الجارحة، فكلّ جارحة تؤدّي مهمّتها فهي تعمل، عمل العَيْن أن ترى، وعمل الأذن أنْ تسمع، وعمل اليد أن تلمس، وعمل الأنف أن يشُمّ، وكذلك عمل اللّسان القول، فالقول للّسان وحده، والعمل لباقي الجوارح وكلاهما عمل، فدائماً نضع القول مقابل الفعل، كما في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢﴾ [الصّفّ]، والسّمع والبصر هما الجارحتان الرّئيسيّتان في الإنسان، وهما عمدة الحواسّ كلّها، حيث تعملان باستمرار على خلاف الشّمّ مثلاً، أو التّذوّق الّذي لا يعمل إلّا عدّة مرّات في اليوم كلّه.

(الآية ٦٢) - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: أي: الكلام السّابق أمر معلوم انتهينا منه.

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾: والحقّ هو الشّيء الثّابت الّذي لا يتغيّر أبداً، فكُلُّ ما سِوى الله ﷻ يتغيّر، وهو ﷻ الّذي يُغيِّر ولا يتغيّر؛ ولذلك أهل المعرفة يقولون: إنّ الله ﷻ لا يتغيّر من أجلكم، لكن يجب عليكم أنْ تتغيّروا من أجل الله ﷻ، وما دام ربّك ﷻ هو الحقّ الثّابت الّذي لا يتغيّر، وما عداه يتغيّر، فلا تحزن، ويا غضبان ارْضَ، ويا مَنْ تبكي اضحك واطمئنّ؛ لأنّك ابن أغيار، وفي دنيا أغيار لا تثبت على حال، فالإنسان يغضب إذا أُصيب

بعقبة في حياته، يقول: لو لم تكُنْ هذه!! نقول له: وهل تريدها كاملة؟ لا بُدَّ أنْ يصيبك شيء؛ لأنّك ابن أغيار، فماذا تنتظر إنْ وصلْت القمّة؟ لا بُدَّ أنْ تتراجع؛ لأنّك ابن أغيار دائم التّقلُّب في الأحوال، وربّك وحده هو الثّابت الّذي لا يتغيّر.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾: كلّ مَا يُدعَى أو يُعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ هو الباطل، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ٨١﴾ [الإسراء: من الآية ٨١]، يعني: يزول ولا يثبت أبداً.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾: يعني: كلّ خَلْقه دونه.

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾: يعني: خَلْقه صغير كلّه.

ومن أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾، ولا نقول: أكبر، إلّا في الأذان، وفي افتتاح الصّلاة، وبعضهم يظنّ أنّ (أكبر) أبلغ في الوصف من (كبير)، لكنّ هذا غير صحيح؛ لأنّ (أكبر) مضمونه (كبير)، إنّما (كبير) مقابله صغير، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكبير؛ لأنّ ما دونه وما عداه صغير، أمّا حين يناديك ويستدعيك لأداء فريضة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يقول: الله أكبر؛ لأنّ حركة الحياة وضروريّات العيش عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمر كبير وأمر مهمّ لا يُغفَل، لكن إنْ كانت حركة الحياة والسّعي فيها أمراً كبيراً فالله أكبر، فربُّك يُخرجك للصّلاة من عمل، ويدعوك بعدها إلى العمل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٠﴾ [الجمعة].

(الآية ٦٣) - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: إنْ كانت للأمر الحِسِّيّ الّذي تراه العين، فأنت لم تَرَهُ ونُنبّهك إليه، وإنْ كانت للأمر الّذي لا يُدرَك بالعين، فهي بمعنى: ألم تعلم؟ ونحن نقول دوماً: ما يخبرك الله سبحانه وتعالى به أوثق ممّا تراه عَيْناك، فالمعنى: ألم تعلم، وألم تنظر؟

﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: فهذه آية تراها، لكن ترى منها الظّاهر فقط، فنرى الماء ينهمر من السّماء، إنّما كيف تكّون هذا الماء في طبقات الجوّ؟ ولماذا نزل في هذا المكان بالذّات؟ هذه عمليّات لم تَرَها، وقدرة الله سبحانه وتعالى واسعة، ولنا أن نتأمّل لو أردنا أنْ نجمع كوب ماء واحد من ماء البخار، كم يأخذ منّا من جهد ووقت وعمليّات تسخين وتبخير وتكثيف، فهل رأينا هذه العمليّات في تكوين المطر؟ لا، رأينا من المطر ظاهره، لذلك يلفتنا ربّنا إلى ما وراء هذا الظّاهر لنتأمّله؛ لذلك جعل الخالق عز وجل مسطّح الماء ثلاثة أرباع الكرة الأرضيّة، فاتّساع مُسطَّح الماء يزيد من البَخْر الّذي ينشره الله سبحانه وتعالى على اليابس، كما لو وضعتَ مثلاً كوبَ ماء في غرفتك، وتركتَه مدّة شهر أو شهرين، ستجد أنّه ينقص مثلاً سنتيمتراً، أمّا لو نثرتَ الكوب على أرض الغرفة فسوف يجفّ بعد دقائق، فاتّساع رقعة الماء يزيد من كمّيّة البخار المتصاعد منها، ونحن على اليابس نحتاج كمّيّة كبيرة من الماء العَذْب الصّالح للزّراعة وللشّرب.. إلخ، ولا يتوفّر هذا إلّا بكثرة كمّيّة الأمطار، ثمّ يُبيّن الله سبحانه وتعالى نتيجة إنزال الماء من السّماء:

﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ﴾: يعني: تصير بعد وقت قصير خضراء زاهية، دون أن يذكر شيئاً عن تدخُّل الإنسان في هذه العمليّة، فالإنسان لم يحرث ولم يبذر ولم يَرْوِ، إنّما المسألة كلّها بقدرة الله ﷻ، لكن من أين أتت البذور الّتي كوَّنَتْ هذا النّبات؟ ومَنْ بذرها ووزَّعها؟ البُذور كانت موجودة في التّربة حيَّة كامنة لم يُصِبْها شيء، وإنْ مَرَّ عليها الزّمن؛ لأنّ الله ﷻ يحفظها إلى أنْ تجد الماء وتتوفَّر لها عوامل الإنبات فتنبت؛ لذلك نُسمِّي هذا النّبات (العِذْى)؛ لأنّه خرج بقدرة الله ﷻ لا دَخْل لأحد فيه، وتولَّتْ الرّياح نَقْل هذه البذور من مكان لآخر، كما قال ﷻ: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: من الآية ٢٢]، ولو سلسلْنا هذه البذرة سنجدها من شجرة إلى شجرة حتّى نصل إلى شجرة أُمٍّ، خلقها الخالق ﷻ لا شجرةَ قبلها ولا بذرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾: اللّطْف: هو دِقَّة التّناول للأشياء.

لكن، ما علاقة قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ بعد قوله: ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ﴾؟ قال العلماء: لأنّ عمليّة الإنبات تقوم على مَسَامّ وشعيرات دقيقة تخرج من البذرة بعد الإنبات، وتمتصّ الغذاء من التّربة، هذه الشّعيرات الجذريّة تحتاج إلى لُطْف، وامتصاص الغذاء المناسب لكلّ نوع يحتاج إلى خبرة، كما قال ﷻ: ﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾ [الرّعد: من الآية ٤]، فالأرض تصبح مُخضَرَّة من لُطْف الله ﷻ، ومن خبرته في مداخل الأشياء، لذلك قال بعدها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، ولدِقّة الشّعيرات الجذريّة نحرص ألّا تعلو المياه الجوفيّة في التّربة؛ لأنّها تفسد هذه الشّعيرات فتتعطّن وتموت فيصفرُّ النّبات ويموت.

(الآية ٦٤) - ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾:

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾: فما في السّموات وما في الأرض مِلْك لله ﷻ، ومع ذلك لا ينتفع منها الحقّ ﷻ بشيء، إنّما خلقها لمنفعة خَلْقه، وهو ﷻ غنيٌّ عنها وغنيٌّ عنهم، وبصفات الكمال فيه ﷻ خلق ما في السّموات وما في الأرض؛ لذلك قال بعدها:

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾: وصفات الكمال في الله ﷻ موجودة قبل أنْ يخلق الخَلْق، وبصفات الكمال خلق، وملكيّته ﷻ للسّموات وللأرض، ولما فيهما ملكيّة للظّرف وللمظروف، ونحن لا نملك السّموات، ولا نملك الأرض، إنّما نملك ما فيهما من خيرات ومنافع ممّا ملّكنا الله ﷻ له، فهو الغنيّ، المالك لكلّ شيء، وما ملّكنا إلّا من باطن مُلْكه.

﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾: يعني المحمود، فهو غنيّ محمود؛ لأنّ غناه لا يعود عليه سبحانه، إنّما يعود على خَلْقه، فيحمدونه لغنَاه، فإن احتاج غير القادر منك شيئاً، قال ﷻ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [البقرة: من الآية ٢٤٥]، فعدّه قرضاً، وهو ماله، لكنّه ملّكك إيّاه، فهو غنيٌّ حميد؛ أي: محمود، ولا يكون الغنى محموداً إلّا إذا كان غير الغنيّ مستفيداً من غِناه.

(الآية ٦٥) - ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥﴾:

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: هذه الآية امتداد للآية السّابقة،

فما في السّماء وما في الأرض مِلْك له ﷻ لكنّه سخَّره لمنفعة خَلْقه.

﴿وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾: الفُلْك: السّفن، تُطلق على المفرد وعلى الجمع، تجري في البحر بأمره ﷻ، فتسير السّفن بالرّيح حيث أمرها الله ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ [البقرة: من الآية ١٦٤]، وهذه لا يملكها ولا يقدر عليها إلّا الله ﷻ، وقال في آية أخرى: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ﴾ [الشّورى: من الآية ٣٣]، ولنتأمَّل دِقَّة الأداء القرآنيّ من الله ﷻ الّذي يعلم ما كان، ويعلم ما يكون، ويعلم ما سيكون، فلقائل الآن أنْ يقول: لم نَعُد في حاجة إلى الرّيح تُسيِّر السّفن، أو توجّهها؛ لأنّها أصبحت تسير الآن بآلات ومحرّكات، نعم السّفن الآن تسير بالمحرّكات، لكن للرّيح معنى أوسع من ذلك، فالرّيح ليست هذه القوّة الذّاتيّة الّتي تدفع السّفن على صفحة الماء، إنّما تعني القوّة في ذاتها، أيّاً كانت ريحاً أم بُخاراً أم كهرباء أم ذرّة.. إلخ، بدليل قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: من الآية ٤٦]، يعني: تذهب قوّتكم أيّاً كانت هذه القوّة، حتّى الصّيّاد الّذي يركب البحر بقارب صغير يُسيِّره بالمجاديف بقوّة يديه وعضلاته هي أيضاً قوّة، لا تخرج عن هذا المعنى، وهكذا يظلّ معنى الآية صالحاً لكلّ زمان ومكان، وإلى أن تقوم السّاعة.

والرّيح إنْ أُفردَتْ دلَّتْ على حدوث شَرٍّ وضرر، كما في قوله ﷻ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ۝٤١﴾ [الذّاريات]، وقوله: ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: من الآية ٤٦]، وقوله: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٤﴾ [الأحقاف: من الآية ٢٤]، وإنْ جاءت بصيغة الجمع دلَّت على الخير، كما في قوله ﷻ: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا

﴿ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: من الآية ٢٢]، وسبق أنْ تحدّثنا عن مهمّة الرّيح في تماسك الأشياء وقيامها بذاتها، فالجبل الأشمّ الّذي نراه ثابتاً راسخاً إنّما ثبتَ بأثر الرّيح عليه، وإحاطته به من كلّ جانب، بحيث لو فُرّغ الهواء من أحد جوانب الجبل لانهار، وهذه هي الفكرة الّتي قامت عليها القنبلة، فالهواء هو الّذي يقيم المباني والعمارات ويثبّتها؛ لأنّه يحيطها من كلّ جانب، فيُحدِث لها هذا التّوازن، فإنْ فُرّغ الهواء من أحد الجوانب ينهار المبنى.

﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾: فالسّماء مرفوعة فوقنا بلا عَمَد، لا يمسكها فوقنا إلّا الله سبحانه وتعالى بقدرته وقيّوميّته أنْ تقع على الأرض إلّا بإذنه سبحانه وتعالى، كما قال في آيةٍ أخرى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ [فاطر: من الآية ٤١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾: فمن صفاته سبحانه وتعالى الرّأفة والرّحمة، والفَهْم السّطحيّ لهاتين الصّفتين يرى أنّهما واحد، لكن هما صفتان مختلفتان، فالرّأفة تزيل الآلام، والرّحمة تزيد الإنعام، والقاعدة أنّ درْء المفسدة مُقدَّم دائماً على جَلْب المصلحة، فربّنا يرأف بنا فيزيل عنّا أسباب الألم قبل أن يجلب لنا نفعاً برحمته، وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بمثل: قلنا هَبْ أنّ واحداً يرميك بحجر، وآخر يرمي لك تفاحة، فأيُّهما يشغلك أوّلاً؟ لا شكَّ ستُشغل بالحجر، كيف تقي نفسك من ضرره، ثمّ تحاول أن تنال هذه التّفّاحة، لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾ [النّحل: من الآية ٦١].

(الآية ٦٦) - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾:

الحقّ ﷻ يُذكّرنا ببعض نعمه وببعض العمليّات الّتي لو تتبّعناها لوقفنا بمقتضاها على نِعَم الله ﷻ علينا، ولم نَنْسها أبداً، أوّلها:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾: الإحياء: أن يعطي المحيي ما يُحييه قوّة يؤدّي بها المهمّة المخلوق لها، والإحياء الأوّل في آدم عليه السلام حين خلقه ربّه وسوّاه، ونفخ فيه من روحه، ثمّ أوجدنا نحن من ذرّيّته.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾: وكما أنّ الخَلْق آية من آيات الله ﷻ، فكذلك الموت آية من آيات الله ﷻ، نراها ونلمسها، وما دُمْتَ تُصدِّق بآية الخَلْق وآية الموت، وتراهما، ولا تشكّ فيهما، فحين نقول لك: إنّ بعد هذا حياة أخرى فصدِّق؛ لأنّ صاحب هذه الآيات واحد، والمقدّمات الّتي تحكم أنت بصدقها يجب أنْ تؤدّي إلى نتيجة تحكم أيضاً بصدقها، وها هي المقدّمات بين يديك صادقة، لذلك يقول ﷻ بعدها:

﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ﴾: والإحياء يُطلَق في القرآن الكريم على معانٍ متعدّدة، منها الحياة المادّيّة الّتي تتمثّل في الحركة والأكل والشّرب، ومنها الحياة في الآخرة الّتي قال الله ﷻ عنها: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: من الآية ٦٤]، وهذه الحياة الحقيقيّة؛ لأنّ حياة الدّنيا تعتريها الأغيار، ويتقلّب فيها الإنسان بين القوّة والضّعف، والصّحّة والمرض، والغنى والفقر، والصِّغَر والكِبَر، وبعد ذلك يعتريها الزّوال، أمّا حياة الآخرة الّتي وصفها الله ﷻ بأنّها الحيوان

يعني: مبالغة في الحياة، فهي حياة لا أغيار فيها ولا زوالَ لها، إذن لدينا حياتان: حياة لِبنْية المادّة وبها تتحرّك وتُحِسّ وتعيش، وحياة أخرى باقية لا زوالَ لها، لذلك يقول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: من الآية ٢٤]، كيف ونحن أحياء؟ قالوا: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ ليست حياة الدّنيا المادّيّة الّتي تعتريها الأغيار، إنّما يحييكم الحياةَ الحقيقيّة في الآخرة، الحياة الباقية الّتي لا تزول، الّتي قال الله سبحانه وتعالى عنها: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: من الآية ٦٤]، يعني: العلم الحقيقيّ الّذي يهدي صاحبه، فإن كانت الحياة المادّيّة الدّنيويّة بنفْخ الرّوح في الإنسان، فبِمَ تكون الحياة الثّانية ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: من الآية ٢٤]؟ قالوا: هذه الحياة تكون بروح أيضاً، لكن غير الرّوح الأولى، إنّها بروح القرآن الكريم الّذي قال الله سبحانه وتعالى فيه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحًا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشّورى: من الآية ٥٢]، وسمّى المَلك الّذي ينزل به روحاً: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشّعراء]، فالرّوح الثّانية الّتي تُحييك الحياة الحقيقيّة الخالدة هي منهج الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم، إن اتّبعته نِلْتَ هذه الحياة الباقية الخالدة وتمتّعتَ فيها بما لا عَيْن رأت، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر، وهي لا مقطوعة ولا ممنوعة.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾: كفور: صيغة مبالغة من كافر، والكفور الّذي لم يعرف للمنعِم حَقّ النّعمة، مع أنّه لو تبيَّنها لما انفكَّ أبداً عن شكر المنعم سبحانه وتعالى، والإنسان يمرُّ بمراحل مختلفة بين الحياة والموت، كما جاء في قوله عز وجل: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١١﴾ [غافر]، فمتى سيقولون هذا الكلام؟ قالوا: هذا يوم القيامة، وقد أحياهم الله سبحانه وتعالى

من موت العدم، فأحياهم في الدّنيا ثمّ أماتهم، ثمّ أحياهم في الآخرة، فهناك موت قبل إيجاد، وموت بعد إيجاد، ثمّ يأتي البعث في القيامة، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾، قضيّة قالها الخالق عزّ وجلّ، ولم يدّعها أحد لنفسه مع كثرة الكفّار والملاحدة والأفّاقين في كلّ زمان ومكان، لم نسمع مَنِ ادَّعَى مسألة الخَلْق، وهذه قضيّة يجب أن نقف عندها وأن نبحث: لماذا لم يظهر مَنْ يدَّعي ذلك؟ وإذا لم يَدَّع الخَلْق أحدٌ، ولم يدَّع الإحياء أحد، فمَنْ صاحب الخَلْق والإحياء والإماتة؟ إنّه الله سبحانه وتعالى.

(الآية ٦٧) - ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾:

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾: الحقّ سبحانه وتعالى خلق آدم عليه السلام خليفة له في الأرض، وأجرى له تدريباً على مهمّته بالأمر الإلهيّ والنّهي الإلهيّ في جنّة التّجربة قبل أن يهبط إلى الأرض، وأخبره بعداوة الشّيطان له ولذرّيّته، وحذَّره أن يتّبع خطواته، وقد انتهت هذه التّجربة بنزول آدم من الجنّة إلى الأرض ليباشر مهمّته كخليفة لله سبحانه وتعالى في أرضه على أنْ يظلَّ على ذِكْر من تجربته مع الشّيطان، وقد سخَّر الله عزّ وجلّ له كلّ شيء في الوجود يخدمه ويعمل من أجله، ثمّ أنزل الله سبحانه وتعالى عليه منهجاً، يعمل به لتستقيم حركة حياته وحياة ذرّيّته، وذكَّره بالمنهج التّدريبيّ السّابق الّذي كلَّفه به في الجنّة، وما حدث له لمّا خالف منهج الله عزّ وجلّ، حيث ظهرت عورته: ﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ [الأعراف: من الآية ٢٢]، كذلك إنْ خالفتم هذا المنهج الإلهيّ في الدّنيا

ستظهر عوراتكم، فإذا رأيت أيّ عورة في المجتمع في أيّ ناحية: في الاجتماع، في الاقتصاد، في التّربية، فقطعاً نكون قد خالفنا الله ﷻ، فظهرت سوأة من سوءات المجتمع؛ لأنّ منهج الله ﷻ هو قانون الصّيانة الّذي يحمينا وينظّم حياتنا؛ لنؤدّي مهمّتنا في الحياة، لذلك كان النّبيّ ﷺ إذا حَزَبه أمر قام إلى الصّلاة، ومعنى: حَزَبه أمر: يعني: شيء فوق طاقته وأسبابه، فكان يُهرَع إلى الصّلاة ليعرض نفسه على ربّه ﷻ، فإنْ وجدنا في أنفسنا خللاً في أيّ ناحية، فما علينا إلّا أنْ نتوضّأ، ونقف بين يدي الله ﷻ ليصلح ما تعطّل فينا، ومنهج الله ﷻ الّذي وضعه لصيانة خَلْقه فيه أصول وفيه فروع، فالأصول: أن تؤمن بالإله الواحد الفاعل المختار، وهذه قاعدة ما اختلف عليها أيٌّ من رسالات السّماء أبداً، كما يقول ﷻ: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشّورى: من الآية ١٣]، فهذه أصول لا يختلف عليها دين من الأديان، لكن لمّا كان النّاس منثورين في شتّى بقاع الأرض، تعيش كلّ جماعة منهم منعزلةً عن الأخرى لبُعْد المسافات وانعدام وسائل الاتّصال والمواصلات والالتقاء الّتي نراها اليوم الّتي جعلتْ العالم كلّه قرية واحدة، ما يحدث في أقصى الشّرق نراه ونسمع به في أقصى الغرب، وفي الوقت نفسه، عاش النّاس هذه العزلة لا يدري أحد بأحد لدرجة أنّهم كانوا منذ مئتي عام يكتشفون قارّات جديدة، وقد نشأ عن هذه العزلة أنْ تعدّدت الأدواء بتعدّد الجماعات، فكان الله ﷻ يرسل رسولاً أو نبيّاً ليعالجها في جماعة بعينها، ويُبعَث إلى قومه خاصّة، فهذا ليعالج مسألة الكيل والميزان، وهذا ليعالج طغيان المال، وهذا ليعالج انحراف الطّباع وشذوذها،

وهذا ليعالج التّعصّب القبليّ، أمّا رسالة محمّد ﷺ، فجاءت في بداية التقاء الجماعات هنا وهناك، فكانت رسالته ﷺ عامّة للنّاس كافّة، وإلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها، ونجد أصول الرّسالات عند موسى وعيسى ومحمّد عليهم الصّلاة والسّلام أصولاً واحدة، أمّا الفروع فتختلف باختلاف البيئات، لكن لـمّا كان في علمه ﷻ أنّ هذه العزلة ستنتهي، وأنّ هذه البيئات ستجتمع وتلتقي على أمر واحد وستتّحد فيها الأدواء؛ لذلك أرسل الرّسول الخاتم لهم جميعاً على امتداد الزّمان والمكان، وفي هذه الآية: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾؛ أي: أنّ الحقّ ﷻ جعل لكلّ أمّة من الأمم الّتي بعث فيها الرّسل مناسك تناسب أقضية زمانهم؛ لأنّهم كانوا في عزلة بعضهم عن بعض، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: من الآية ٤٨]، فالشّرائع تختلف في الفروع المناسبة للزّمان والمكان والبيئة، أمّا الأخلاق والعقائد فهي واحدة، فالله ﷻ إله واحد في ديانات السّماء كلّها، والكذب محرَّم في ديانات السّماء كلّها، فلم يأتِ نبيّ من الأنبياء ليبيح الكذب لقومه.

المنسك: المنهج التّعبديّ، ومنه قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام].

﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾: يعني: فاعلوه.

﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾: كأنْ يقولوا: أنت رسول ونحن أيضاً نتّبع رسولاً، له منهج وله شريعة، نعم: لكن هذه شريعة خاتمة جاءت مهيمنة على الشّرائع كلّها قبلها، ومناسبة لمستجدّات الأمور، لذلك يُطمئن الحقّ ﷻ رسوله ﷺ بعدها:

﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾: يعني: اطمئنّ، فأنت على الحقّ وادْعُ إلى ربّك؛ لأنّك على هدى مستقيم سيصل إليهم إنْ لم يكن إيماناً فسيكون إصلاحاً وتقنيناً بشريّاً تلجئهم إليه أحداث الحياة ومشكلاتها، فلن يجدوا أفضل من شرع الله ﷻ يحكمون به، وإنْ لم يؤمنوا، وكأنّ الحقّ سبحانه وتعالى يقول لرسوله ﷺ: لا تنازعهم ولا ينازعونك، وخُذ ما أمرك الله به: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾ [الحجر] الّذين يجادلونك وينازعونك في الرّسالة، وسوف تحدث لهم أقضية بقدر ما يُحدِثون من الفجور، ويلجؤون إلى شرعك ليحلّوا به مشكلاتهم.

﴿هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾: الهدى وُصِف بأنّه مستقيم؛ لأنّه من الله سبحانه وتعالى صنعه لك، هدى الخالق الّذي يعلم ملَكات النّفس الإنسانيّة كلّها، وشرع لكلّ ملكة ما يناسبها، وأحداث الحياة ستضطرّهم إلى ما قنّن الله سبحانه وتعالى لخلافته في الأرض.

(الآية ٦٨) - ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨﴾:

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾: الجدل: مأخوذ من جَدْل الحبل بعضه على بعض لتقويته، وإنْ كانت خيطاً رفيعاً نبرمه فنعطيه سُمْكاً وقوّة؛ لذلك الخيط حين نبرمه يقلّ في الطّول؛ لأنّ أجزاءه تتداخل فيكون أقوى، فالجدْل من تمتين الشّيء وتقويته، وكذلك الجدال؛ هو محاولة تقوية الحجّة أمام الخَصْم، وفي آية أخرى يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: من الآية ١٢٥]، فالمعنى: إنْ جادلوك بعد الّتي هي أحسن، فقُلْ:

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾: يعني: ردّهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واحتكم إليه؛ لذلك جاء بعدها:

(الآية ٦٩) - ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾:

لاحظ أنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يقُلْ: يحكم بيننا وبينكم كما يقتضي المعنى، وكأنّه جلّ وعلا يقول لرّسوله ﷺ: اتركهم فسوف يختلفون فيما بينهم، ولن يظلّ الخلاف معك؛ لأنّ الخلاف في شيء واحد ينشأ عن هوى النّفس، وهوى النّفس ينشأ من الحرص على المصالح، يعني: أرحْ نفسك، فربُّك سيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون.

(الآية ٧٠) - ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾:

هذه قضيّة حكم بها الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنفسه، ولم يدَّعِها أحد، فلا يعلم ما في السّماء والأرض إلّا الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذه الآية جاءت بعد الحكم في المنازعة، فربّما اعترض أحد وقال: ما دام الأمر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أحكاماً تنظّم حركة الحياة، وقد جاء كلّ رسول بها، فما ضرورة أنْ يجيء رسول الله ﷺ للنّاس كافّة؟ قلنا: إنّ الدّين لا يختلف باختلاف الرّسل والأمم والعصور، وهذا في القضايا العامّة الشّاملة الّتي لا تتغيّر، وهي العقائد والأصول والأخلاق، أمّا الشّرائع فتختلف باختلاف العصور والأمم، فيأتي الحكم مناسباً لكلّ عصر، ولكلّ أمّة، وما دام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الّذي سيحكم بين الطّرفين، قال: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا

﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، أَعْلَم كلّ شيء كائن في الوجود ظاهره وباطنه، فهو يحكُم عن علم وعن خبرة.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾: والعلم شيء، والكتاب شيء آخر، فما دام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم كلّ شيء، وما دام سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يضلّ ولا ينسى، فما ضرورة الكتاب؟ قال العلماء: الكتاب يعني به اللّوح المحفوظ الّذي يحوي كلّ شيء، وفي آية أخرى قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥﴾ [عبس]، حتّى القرآن الكريم نفسه في ذلك الكتاب: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾ [البروج]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرّعد]، ويقول جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام]، فضرورة الكتاب ليدلّنا، وليدلّ الملائكة المطَّلعين على أنّ الأشياء الّتي تحدث مستقبلاً كتبها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أزلاً، فالّذي كتب الشّيء قبل أنْ يكون، ثمّ جاء الشّيء موافقاً لما كُتب أكبر دليل على عِلْمه وإحاطته، فمجيء الكتاب لا ليساعدنا على شيء، إنّما ليكون حُجَّة علينا، فيقال لنا: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء]، ها هو تاريخك، وها هي قصّتك، ليس كلاماً من عندنا، وإنّما فعلْك والحجّة عليك، وعِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يحمل الوعد والوعيد في وقت واحد، وهذا من عجائب الأداء القرآنيّ، أنْ يعطي الشّيء ونقيضه، كيف؟ هَبْ أنّ عندك ولدين اعتدى أحدهما على الآخر في غَيبتك، فلمّا عُدْتَ أسرعا بالشّكوى، فقلتَ لهما: اسكتا لا أسمع لكما صوتاً، وقد

عرفتُ ما حدث وسأرتّب لكلّ منكما ما يناسبه وما يستحقّه على وَفْق ما علمت، لا شكَّ عندها أنّ المظلوم سيفرح ويستبشر، وأنّ الظّالم سيخاف ويتغيّر لونه، فعلم الله سبحانه وتعالى بكلّ شيء في السّماء والأرض وإحاطته سبحانه وتعالى بما يجري بين خَلْقه وَعْد للمحقّ، ووعيد للمبطل.

(الآية ٧١) - ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ٧١﴾:

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾: كأنّ العبادة -وهي: طاعة أمر واجتناب نهي- يجب أن تكون صادرة من أعلى منّا جميعاً، فليس لأحد منّا أن يُشرّع للآخر، فيأمره أو ينهاه، فالدّين لا يأتي من المساوي لك، وإنّما يأتي ممّن هو أعلى منك، وهو الّذي يقول لك: افعل ولا تفعل، وهذا حلال وهذا حرام، وهنا لا تستطيع أن تعترض؛ لأنّها جاءت من الله سبحانه وتعالى الخالق، فكلّ دليل على حكم الفعل أو التّرك لا بُدَّ أنْ يكون مصدره من الحقّ سبحانه وتعالى، فهو الأعلى، فإذا انصعْنا لأمره ونهيه فلا ضرر؛ لأنّنا ننصاع للخالق سبحانه وتعالى.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يعني: يعبدون غيره سبحانه وتعالى.

﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾: السّلطان: إمّا سلطان قَهْر، أو سلطان حجّة، سلطان القهر أن يقهرك ويجبرك على ما لم تُرِدْ فِعْله، أمّا سلطان الحجّة فيقنعك ويُثبِت لك بالحجّة أن تفعل باختيارك، وهذه الآلهة الّتي يعبدونها من دون الله عزّ وجلّ ليس لها سلطان، لا قَهْر ولا حُجّة؛ لذلك في جدل إبليس يوم القيامة للّذين اتّبعوه يقول لهم: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ

لِيۖ﴾ [إبراهيم: من الآية ٢٢]، يعني: كنتم على إشارة فاستجبتم لي، وليس لي عليكم سلطان، لا قوّة أقهركم بها على المعصية، ولا حجّة أقنعكم بها.

﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ﴾: يعني: علم الاجتهاد الّذي يستنبط الأحكام من الحكم المُجْمل الّذي يُنزله الحقّ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذه هي حجّة العلم الّتي قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنها: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النّساء: من الآية ٨٣]، يعني: أهل العلم، فالعبادة لا بُدَّ أن تكون بسلطان من الله تعالى نصّاً قاطعاً وصريحاً لا يحتمل الجدل، وإمّا أنْ تكونَ باجتهاد أُولِي العلم.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾: لم يقُلْ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: لن ينتصر الظّالمون، ولم ينْفِ عنهم النّصر؛ لأنّهم في الآخرة لن ينتصروا، ولن يستطيع أحد نصرتهم، ولا يمكن أن يفزع لهم أحد في الآخرة.

(الآية ٧٢) - ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢﴾:

تصوّر هذه الآية حال الكفّار عند سماعهم لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ وآياته من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو صحابته، فإذا سمعوها: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾؛ أي: الكراهية تراها في وجوههم عُبُوساً وتقطيباً وغضباً وانفعالاً، ينكرون ما يسمعون، ويكاد أن يتحوّل الانفعال إلى نزوع غضبيّ، يفتكون بمَنْ يقرأ القرآن الكريم لما بداخلهم من شرٍّ وكراهية لما يتلى عليهم، لذلك قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعدها:

﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾: السَّطْو: الفَتْك والبطش؛ لأنّ العمل الوجدانيّ الّذي يشغل نفوسهم يظهر أوّلاً على وجوههم انفعالاً يُنبئ بشيء يريدون إيقاعه بالمؤمنين، ثمّ يتحوّل الوجدان إلى نزوع حركيّ هو الفتك والبطش.

﴿قُلۡ﴾: في الرّدّ عليهم: ماذا يُغضِبكم حتّى تسطوا علينا، وتكرهوا ما نتلو عليكم من كتاب الله ﷻ؟ والغيظ والكراهية عند سماعهم القرآن الكريم دليل على عدم قدرتهم على الرّدّ بالحجّة، وعدم قدرتهم أيضاً على الإيمان؛ لذلك يخاطبهم بقوله:

﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾: يعني: ما لي أراكم مغتاظين من آيات الله ﷻ كارهين لها الآن، والأمر ما يزال هيّناً؟ أمجرّد سماع الآيات يفعل بكم هذا كلّه؟ فما بالكم حينما تباشرون النّار في الآخرة: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾.

﴿وَعَدَهَا﴾: الوعد دائماً يكون بالخير، أمّا هنا فاستُعملَتْ على سبيل الاستهزاء بهم والتّقليل من شأنهم، كما قال في آية أخرى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤﴾ [الانشقاق]، فساعةَ أن يسمع البُشْرى يستشرف للخير، فيفاجئه العذاب، فيكون أنكَى له.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾: أي: ساءت نهايتكم ومرجعكم.

(الآية ٧٣) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾: قُلنْا: الضّرب إيقاع شيء على

شيء بقوّة، ومنه نقول: ضربنا الدّينار، يعني: بعد أن كان قطعة من الذّهب أو الفضّة مثلاً أصبح عملةً معروفة متداولة.

والمثل: تشبيه شيء غير معلوم بشيء آخر معلوم يَعْلَق في الذّهن، كما نصف لك إنساناً لم تَرَهُ بإنسان تعرفه، نقول: هو مثل فلان، وهكذا التّشبيهات كلّها: شيء تريد أن تُعلمه للمخاطب وهو لا يعلمه، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: من الآية ١٧٦]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت]، فالأمثال: إعلام بشيء معلوم ليصل العلم فيه إلى شيء مجهول، والخطاب هنا مُوجَّه للنّاس كافّة، لم يَخُصّ أحداً دون أحد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾، فلم يقُل: يا أيّها المؤمنون؛ لأنّ هذا المثَلَ مُوجَّه إلى الكفّار، فالمؤمنون ليسوا في حاجة إليه.

﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾: يعني: أنصتوا وتفهَّموا مراده ومرماه؛ لتسيروا في حركتكم على وَفْق ما جاء فيه، وعلى وَفْق ما فهمتم من مغزاه، فما هو هذا المثَل؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: الّذين تعبدونهم وتتّجهون إليهم من دون الله سبحانه وتعالى:

﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾: وهو أصغر المخلوقات، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ جاءت بنفي المستقبل، فلم يقُلْ مثلاً: لم يخلقوا، فالنّفي هنا للتّأبيد، فهم ما استطاعوا في الماضي، ولن يستطيعوا أيضاً في مستقبل الأيّام.

﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾: يعني: تضافرَتْ جهودهم، واجتمع أمرهم جميعاً لا واحداً واحداً، وهذا ترقٍّ في التّحدّي، حيث زاد في قوّة المعاند.

﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾: إنّ عمليّة الخَلْق هذه عمليّة صعبة لا يُتحدَّى بها، لذلك تحدّاهم بما هو أسهل من الخَلْق، وهل يستطيع أحد أن يُعيد ما أخذه الذّباب من طعامه على جناحيه أو رجله أو خرطومه؟ وقد كانوا يذبحون القرابين عند الأصنام، ويضعون أمامها الطّعام ليباركوه، فكانت الدّماء تسيل عندها وتتناثر عليها، فيحطّ عليها الذّباب، ويأخذ من هذه الدّماء على أَرْجُله النّحيفة، أو على أجنحته، أو على خرطومه، فتحدَّاهم أن يعيدوا من الذّباب ما أخذه، وهذه مسألة أسهل من مسألة الخَلْق، ولنا أنْ نُجرِّب هذه العمليّة، إذا وقع ذباب على العسل الّذي أمامنا، فلا بُدَّ أن يأخذ منه شيئاً ولو كان ضئيلاً لا يُدرَك ولا يُوزَن، لكن هل نستطيع أنْ نُمسِك الذّبابة ونردّ ما أخذتْ منا؟ لذلك يقول ﷻ بعدها:

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾: يعني: كلاهما ضعيف، فالذّباب في ذاته ضعيف وهم كذلك ضعفاء، بدليل أنّهم لن يقدروا على هذه المسألة، لكن هناك ضعيف يدَّعي القوّة، وضعيف قوّته في أنّه مُقِرٌّ بضعفه، فالذّباب وإنْ كان ضعيفاً إلّا أنّ الله ﷻ قال فيه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٦]، يعني: ما فوقها في الصِّغر، ليس المراد ما فوقها في الكبر كالعصفور مثلاً.

(الآية ٧٤) - ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤﴾:

يعني: هؤلاء الكفّار الّذين عبدوا من دون الله ﷻ آلهة لا تستطيع أن

تخلق ذباباً، ولا تستطيع حتّى أنْ تردَّ من الذّباب ما أخذه، هؤلاء ما عرفوا لله قدره، ولو عرفوا قَدْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما عبدوا غيره.

والقَدْر: يعني مقدار الشّيء، وقلنا: إنّ مقادير الأشياء تختلف حسب ما تريده من معرفة المقادير، فالطّول مثلاً له مقياس يُقَاس به، لكنّ هذا المقياس يختلف باختلاف المقيس، فإنْ أردتَ أنْ تقيسَ المسافة بين دمشق وطرطوس مثلاً لا تستخدم السّنتيمتر ولا حتّى المتر، إنّما تستخدم الكيلومتر، فإنْ أردت شراء قطعة من القماش تقول متر، أمّا إنْ أردتَ صورة شخصيّة تقول سنتيمتر، فلكلّ شيء مقدار يُقدَّر به، ومعيار يُقاس به، فإنْ أردنا المسافة نقيس الطّول، وإنْ أردنا المساحة نقيس الطّول في العرض، فإنْ أردنا الحجم نقيس الطّول في العرض في الارتفاع، الطّول بالمتر والمساحة بالمتر المربّع، والحجم بالمتر المكعّب، كذلك في الوزن تُقدِّره بالكيلو أو الرّطل أو الغرام.. إلخ.

وقدّر: تأتي بمعنى: ضيَّق، كما جاء في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ [الفجر: من الآية ١٦]؛ أي: ضيّق عليه رزقه، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطّلاق: من الآية ٧].

والمقدار كما يكون في المادّيّات يكون أيضاً في المعنويّات، فمثلاً تعبّر عن الزّيادة المادّيّة تقول: فلان كبر يعني شَبَّ وزاد، أمّا في المعنويّات فيقول الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الكهف: من الآية ٥]، يعني: عَظُمتْ.

والحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس مادّة؛ لأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فوق المادّة، فمعنى المقدار في حقّه جَلَّ جَلَالُهُ: عظمته في صفات الكمال فيه.

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾: ما عظّموه حَقَّ التّعظيم الّذي ينبغي له، وما عرفوا قَدْره، ولو عرفوا ما عبدوا غيره، ولا عبدوا أحداً معه من هذه الآلهة الّتي

لا تخلق ذباباً، ولا حتّى تستردّ ما أخذه منهم الذّباب، فكيف يُسَوُّون هؤلاء بالله عَزَّوَجَلَّ ويقارنونهم به؟ إنّهم لو عرفوا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْره لاستحيوا من ذلك كلّه، والآية: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ﴾ وردتْ في عدّة مواضع في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، منها: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام: من الآية ٩١]، فلم يعرفوا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْره، وله جَلَّ جَلَالُهُ كمال العدل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾: فما مناسبة هاتين الصّفتين للسّياق الّذي نحن بصدده؟ قال العلماء: لأنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تكلّم في المثَل السّابق عن الّذين انصرفوا عن عبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى عبادة الأصنام وقال: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾، فقال في مقابل هذا الضّعف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، وهو عزيز يستغني عن خلقه.

(الآية ٧٥) - ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾:

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾: فالمرحلة الثّانية في الإيمان بعد الإيمان بالقمّة الإلهيّة الإيمان بالملائكة، والملائكة رسل من الله عَزَّوَجَلَّ أرسلهم لبعض النّاس.

والاصطفاء: اختيار نخبة من كثير، واختيار القليل من الكثير دليل على أنّها الخلاصة والصّفوة، كما يختلف الاصطفاء باختلاف المصطفي، فإنْ كان المصطفِي هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فلا بُدَّ أنْ يختار خلاصة الخلاصة، والاصطفاء سائر في الكون كلّه، يصطفي من الملائكة رسلاً، ومن النّاس رسلاً، ويصطفي من الزّمان، ويصطفي من المكان، كما اصطفى رمضان من الزّمان، والكعبة من المكان، ولم يجعل الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الاصطفاء لتدليل المصطفى على غيره، إنّما ليُشيع

اصطفاءَه على خَلْق الله ﷻ، فقد اصطفى رمضان على سائر الزّمن لنأخذ منه شحنة تُقوّي روحنا، وتُصفّيها بقيّة الأيّام، وليستفيد الإنسان من صالح عمله فيها، وقد يتكرّر الاصطفاء مع اختلاف متعلّق الاصطفاء؛ لذلك وقف المستشرقون عند قول الله ﷻ: ﴿يَـٰمَرْيَـمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: من الآية ٤٢]، يقولون: ما فائدة تكرار الاصطفاء هنا؟ ولو تأمّلنا الآية لوجدنا فَرْقاً بين الاصطفاء الأوّل والآخر: الاصطفاء الأوّل اصطفاء أنْ تكون عابدة تقيّة متبتّلة منقطعة في محرابها لله ﷻ، أمّا الاصطفاء الآخر فاصطفاء على نساء العالمين جميعاً، بأن تكون أمّاً لمولود بلا أب، فمُتعلِّق الاصطفاء مختلف، وتنقسم الملائكة في مسألة الاصطفاء إلى ملائكة مُصْطفاة، وملائكة مُصْطَفىً منها، وفي آية أخرى يقول ﷻ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: من الآية ١]، يعني: كلّهم لهم رسالة مع عوالم أخرى غيرنا، أمّا في الآية الّتي معنا، فالكلام عن الملائكة الّذين لهم صلة بالإنسان، أمثال جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت والحفظة الكاتبين والمكلّفين بحفظ الإنسان، فالله ﷻ يصطفي هؤلاء، أمّا الباقون منهم، فالله ﷻ مصطفيهم لعبادته، فهم لا يدرون عن هذا الخلق شيئاً، وهم الملائكة العالون الّذين قال الله ﷻ عنهم في الحديث عن إبليس: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص: من الآية ٧٥]، يعني: الّذين لم يشملهم الأمر بالسّجود؛ لأنّ لهم مهمّة أخرى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾: السّمع يتعلّق بالأصوات، والبصر يتعلّق بالأفعال، وهما كما قلنا: عُمْدة الحواسِّ كلّها، والحقّ ﷻ في قوله: ﴿سَمِيعٌ

﴿بَصِيرٌ﴾ يُبيّن لنا أنّ رسله سيُوَاجَهُون بأقوال تؤذيهم واستهزاء، وسيُقَابلون بأفعال تعرقل مسيرة دعوتهم، فليكُنْ هذا معلوماً حتّى لا يفُتّ في عَضُدهم، وأنا معهم سميع لما يُقال، بَصير بما يفعل، فهُمْ تحت سمعي وبصري وكلاءتي، والله ﷻ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، فسمعه وبصره لا يشبه المخلوقين.

(الآية ٧٦) - ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾:

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ﴾: ما أمامهم، ويعلم أيضاً ما خلفهم، فليعمل الإنسان ما يشاء، فعِلْم الله ﷻ محيط به.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾: فالمرجع في النّهاية إليه ﷻ، فالحقّ ﷻ لم يخلق خَلْقه ليتركهم هَمَلاً، إنّما خلقهم لحكمة، وجعل لهم نهاية يُجازي فيها كُلّ بعمله.

(الآية ٧٧) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ٧٧﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: النّداء في ضَرْب المثل السّابق كان للنّاس كافّة؛ لأنّه يريد أنْ يَلفِت عُبّاد الأصنام إلى هذا المثَل، ويُسْمعهم إيّاه، أمّا هنا فالكلام عن منهج مُوجَّه إلى الّذين آمنوا؛ لأنّه لا يُكلّف بالحكم إلّا مَنْ آمن بالله ﷻ، أمّا مَنْ كفر فليس أَهْلاً لحمل هذه الأمانة.

﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ﴾: يبدأ أوّل ما يبدأ في التّكليف بمسألة الصّلاة، فلقد جاء الرّسل من عند الله ﷻ بتكاليف كثيرة، لكن خَصَّ هنا الصّلاة؛

لأنّها التّكليف الّذي يتكرّر كلّ يوم خمس مرّات، أمّا بقيّة التّكاليف فهي موسميّة: فالصّوم شهر في العام كلّه، والحجّ مرّة في العمر كلّه لمن استطاع، والزكاة عند خروج المحصول لمن يملك النّصاب أو عند حلول الحَوْل، فتختلف فريضة الصّلاة عن باقي الفرائض؛ لذلك خَصَّها رسول الله ﷺ في قوله: «**العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ**»[1]، وخصَّها الحقّ سبحانه وتعالى بظرف تشريعيّ خاصّ، حيث فُرِضت الصّلاة بالمباشرة، وفُرِضت باقي الفرائض بالوحي، فالصّلاة لم تأت بالوحي كباقي الفرائض، إنّما جاءت مباشرة من المُوحِي سبحانه وتعالى؛ لأنّها ستكون صلة بين العبد وربّه، فشاء أن يُنزّهَها حتّى من هذه الواسطة، ثمّ ميّزها على غيرها من التّكاليف، فجعلها الفريضة الّتي لا تسقط عن المسلم بحال من الأحوال، فقد تكون فقيراً فلا تلزمك الزكاة، وغير مستطيع فلا يلزمك حجّ، ومريض أو مسافر فلا يلزمك صوم، أمّا الصّلاة فلا تسقط عن الإنسان مهما كان حاله، فإنْ كان غير قادر على القيام فله أنْ يُصلِّي قاعداً أو مضطجعاً أو راقداً، أو يُشير بطرفه لركوعه وسجوده، ولو حتّى يجري أفعال الصّلاة على قلبه، المهمّ أن يظلّ ذاكراً لربّه متّصلاً به، لا يمرّ عليه وقت إلّا والله سبحانه وتعالى في باله، وقلنا: إنّ ذكر الله سبحانه وتعالى في الأذان والإقامة والصّلاة ذِكْر دائم في كلّ الأوقات لا ينقطع أبداً، فحين تصلّي أنت الصّبح مثلاً غيرك يصلّي الظّهر، وحين تركع غيرك يسجد، وحين تقول: بسم الله الرّحمن الرحيم، غيرك يقول: الحمد لله ربّ العالمين.. إلخ، فهي عبادة متداخلة دائمة لا تنقطع أبداً؛

---

(١) سنن التّرمذيّ: أبواب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصّلاة، الحديث رقم (٢٦٢١).

لذلك يقول أحد أهل المعرفة مخاطباً الزّمن: "يا زمن فيك الزّمن كلّه"، يعني: في كلّ جزئيّة من الزّمن الزّمن كلّه، كأنّه قال: يا ظُهْر، وفيك العصر، وفيك المغرب، وفيك العشاء، وهكذا العالم كلّه يدور بعبادة لله ﷻ لا تنتهي.

وفي هذه الآية ذكر من الصّلاة الرّكوع والسّجود؛ لأنّهما أظهر أعمال الصّلاة، لكنّ الرّكوع والسّجود حركات يؤدّيها المؤمن المخلص، ويؤدّيها المنافق، وقد كان المنافقون أسبق النّاس إلى الصّفوف الأولى؛ لذلك أراد الله ﷻ أنْ يُميِّز هذا من هذا، فقال:

﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾: فليست العبرة في حركات الرّكوع والسّجود، إنّما العبرة في التّوجّه بها إلى الله ﷻ، وإخلاص النّيّة فيها لله ﷻ، وإلّا أصبحت الصّلاة مجرّد حركات لا تعدو أن تكون تمارين رياضيّة كما يحلو لبعضهم أن يقول: الصّلاة فيها تمارين رياضيّة تُحرِّك أجزاء الجسم كلّه، نعم هي كما تقولون رياضة، لكنّها ليست عبادة، العبادة أن تؤدّيها؛ لأنّ الله ﷻ أمرك بها.

﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾: والخير كلمة عامّة تشمل أوامر التّكليف كلّها، لكن جاءت مع الصّلاة على سبيل الإجمال؛ لأنّ ما لا يتمّ الواجب إلّا به فهو واجب، فالخير كلمة جامعة لما تؤدّيه وظائف المناهج كلّها من خير المجتمع؛ لأنّ المنهج الإيمانيّ ما جاء إلّا لينظّم حركة الحياة تنظيماً يتعاون ويتساند ولا يتعاند، فإنْ جاء الأمر على هذه الصّورة سَعِد المجتمع بأَسْره، ولا تنْسَ أنّ المنهج حين يُضيِّق عليك ويُقيِّد حركتك يفعل ذلك لمصلحتك، وأنت المستفيد من تقييد الحركة؛ لأنّ ربّك ﷻ قيّد حركتك وضيّق عليك حتّى لا تُلحِق الشّرّ بالآخرين، وفي الوقت نفسه ضيّق على الآخرين جميعاً أن يتحرّكوا بالشّرّ

ناحيتك، وأنت واحد وهم كثر، فمن أجل تقييد حركتك قيّد لك حركة النّاس جميعاً، فمَنِ الكاسب في هذه المسألة؟ فالشّرع قال لك: لا تسرق، وأنت واحد، وقال للنّاس جميعاً: لا تسرقوا منه، وقال لك: غُضّ بصرك عن محارم غيرك، وأنت واحد، وقال للكلّ: غُضُّوا أبصاركم عن محارم فلان، فكلّ تكليف من الله سُبحانه وتعالى للخَلْق يعود عليك، فالمعنى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾؛ أي: الّذي لا يأتي منه فساد أبداً، وما دامت الحركات صادرة عن مراد الله عزّ وجلّ فإنّها تتساند وتتعاون، فإنْ كان لك هوى ولغيرك هوى تصادمتْ الأهواء وتعاندت، والخير: كلّ ما تأمر به التّكاليف المنهجيّة الشّرعيّة من الله سُبحانه وتعالى.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩﴾: لكن أين سيكون هذا الفَلَاح: في الدّنيا أم في الآخرة؟ الفلَاح يكون في الدّنيا لمن قام بشرع الله سُبحانه وتعالى والتزم منهجه وفعل الخير، فالفَلاح ثمرة طبيعيّة لمنهج الله عزّ وجلّ في أيّ مجتمع يتحرّك أفرادُه في اتّجاه الخير لهم وللغير، مجتمع يعمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(1)، وعندها لن نرى في المجتمع تزاحماً ولا تنافراً ولا ظلماً ولا رشوة.. إلخ، هذا الفلاح في الدّنيا، ثمّ يأتي زيادة على فلاح الدّنيا فلاح الآخرة، فلا تظنّوا التّكاليف الشّرعيّة عِبْئاً عليكم؛ لأنّها في مصلحتكم في الدّنيا، وبها فلاح دنياكم، ثمّ يكون ثوابها في الآخرة مَحْض الفضل من الله سُبحانه وتعالى، وقد نبّهنا النّبيّ صلى الله عليه وسلم إلى هذه المسألة فقال: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَداً عَمَلُهُ الجَنَّةَ**»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللّهِ؟ قَالَ: «**لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ**

(1) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، بابٌ: من الإيمان أن يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه، الحديث رقم (١٣).

يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ»[1]؛ ذلك لأنّ الإنسان يفعل الخير في الدّنيا لمصلحته، ثمّ ينال الثّواب عليها في الآخرة من فضل الله سبحانه وتعالى، كما قال جل جلاله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النّساء: من الآية ١٧٣].

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: لعلّ: أداة للتّرجّي، وهو درجات بعضها أرْجى من بعض، فمثلاً حين تقول: لعلّ فلاناً يعطيك، فأنت ترجو غيرك ولا تضمن عطاءه، فإنْ قلت: لعلّي أعطيك، فالرّجاء في يدك، فهذه أرجى من سابقتها، لكن ما زلنا أنا وأنت متساويين، وربّما أعطيك أو لا أعطيك، بينما حين تقول: لعلّ الله عز وجل يعطيك، فقد رجوْتَ الله سبحانه وتعالى، فهذه أرجى من سابقتها، فإذا قال الله سبحانه وتعالى بذاته: لعلّي أعطيك، فهذا أقوى درجات الرّجاء؛ لأنّ الوعد من الله سبحانه وتعالى والرّجاء فيه عز وجل لا يخيب.

وفي تفسير هذه الآية الكريمة تتبيّن لنا حقيقة رسالة الإسلام ورسالة المسلم في هذه الحياة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «الخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللهِ، فَأَحَبُّ الخَلْقِ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ»[2]، فلنحبّ غيرنا، ونجتهد في إسعادهم، موافقين لنا أو مخالفين، فهذه أفضل طريقة لراحة النّفس وضمان سعادتها، وإنّ الله عز وجل شرع لنا من التّعاليم ما يجنّبنا نقائصها وما يجعل من البشر جماعات متكافلة متعاونة على البرّ، متواصلة بالمرحمة ، فلنسمع إلى هدايات الله سبحانه وتعالى في هذا الشّأن على ما بها من روعة وجلال يغنينا عن

(١) صحيح البخاريّ: كتاب المرضى، باب تمنّي المريض الموت، الحديث رقم (٥٦٧٣).

(٢) شعب الإيمان: ج٩، طاعة أولي الأمر بفصولها، الحديث رقم (٧٠٤٦).

الأقوال كلّها، إنّ المسلم الحقيقيّ يجب أن يكون عضواً نافعاً في وطنه لا يصدر عنه إلّا الخير، ولا يُتوقَّع منه إلّا الفضل والبرّ، فهو في حركته وهدأته شعاع من نور الحقّ، ومدد من روافد البركة واليمن، وعون على تقريب البعيد وتذليل الصّعب، يسعى في هذه الحياة وقلبه مفعم بالمحبّة، ولسانه رطب بالودّ والمسالمة للمواطنين كلّهم، ويده مبسوطة بالنّعمة يفيضها على من يلقاه، ويقدّمها من غير تكلّف إلى سواه، تلك هي طبيعة الإسلام ورسالة المسلم في هذه الحياة، عن أبي موسى الأشعريّ قال: قال النّبيّ ﷺ: «**عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ**»، قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «**فَيَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ**»، قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَوْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «**فَيُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ**»، قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «**فَيَأْمُرُ بِالخَيْرِ**»، أَوْ قَالَ: «**بِالمَعْرُوفِ**»، قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «**فَيُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ**»(١)، هذا الحديث الكريم يقسّم النّاس درجات حسب مواهبهم ومنازلهم، فالقويّ زكاة قوّته وجَلَده أن يزيد في إنتاج وطنه، وأن يُسهم في نهضة المجتمع، وأن يصل نشاطه بنشاط أنداده، فيتعاونون جميعاً على البرّ والتّقوى، لا على الإثم والعدوان، وهو بهذا العمل ينفع نفسه، ويؤدّي الضّريبة الّتي تجب عليه للوطن والمجتمع الّذي يحيا فيه، تلك الضّريبة الّتي عبّر عنها الحديث الشّريف بقوله ﷺ: «**عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ**»، فمن عجز عن هذا العمل الإيجابيّ الواسع فلن يعجز أن يكون عوناً للآخرين ومؤيّداً للعاملين، فإذا لم يرحم بنفسه أعان الرّاحمين، وإذا لم ينفع

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الأدب، باب كلّ معروف صدقة، الحديث رقم (٦٠٢٢).

بقوّته ساعد النّافعين، وشدّ أزر المكافحين، ولم يثبّط الهمم ويحبط النّاس ويشكّك بكلّ فعل خير، وذلك ما عبّر عنه رسول الله ﷺ: «**فَيُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ**»، وإذا لم يستطع أن يعمل أعمال الخير هذه كلّها فليمسك عن الشّرّ، فمجرّد إمساكه عن الشّرّ صدقة، ولا يوجد في تاريخ البشريّة قول يعطي معنى الإنسانيّة والخيريّة أفضل من هذا الحديث النّبويّ الشّريف.

(الآية ٧٨) - ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾:

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾: كالّذي قلناه في: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ﴾؛ لأنّ الجهاد أيضاً يحتاج إلى إخلاص، وكلمة الجهاد هي كلمة عامّة تشمل أنواع الجهاد كلّها، والجهاد القتاليّ هو الجهاد الّذي يكون دفاعاً عن النّفس، ولردّ الاعتداء، فما أُمرنا أن نُقاتل النّاس لنجبرهم على الدّين، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦]، وإنّما تشريع الجهاد والقتال في الميدان هو عبارة عن دفاع عن الوطن والعرض والمال، قال سبحانه وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾، والجهاد الأكبر هو جهاد النّفس، قال ﷺ: «**قَدِمْتُم مِنَ الجِهَادِ**

الأَصْغَرِ إلى الجِهَادِ الأكبَرِ، مجاهدة العبد هواه»[1].

﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾: يعني: اختاركم واصطفاكم؛ لتكونوا خير أمّة أُخرجت للنّاس، وثمن هذا الاجتباء أن نكون أهلاً له، وعلى مستوى مسؤوليّته، وأنْ نحقّق ما أراده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منّا.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾: يعني: ما اجتباكم ليُعنتكم، أو ليُضيِّق عليكم، أو ليُعسّر عليكم الأمور، إنّما جعَل الأمر يُسْر كلّه، وشرعه على قَدْر الاستطاعة، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٦]، ورخّص لكم ما يُخفِّف عنكم، ويُذهِب عنكم الحرج والضّيق، فمَنْ لم يستطع القيام صلّى قاعداً، ومَنْ كان مريضاً أفطر، والفقير لا زكاة عليه ولا حجّ.. إلخ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في موضع آخر: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٢٠]، لكنّه سبحانه ما أعنتنا ولا ضَيَّق علينا، وما كلَّفنا إلّا ما نستطيع القيام به.

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾: كلمة: ﴿مِّلَّةَ﴾ جاءت هكذا بالنّصب؛ لأنّها مفعول به لفعل تقديره: (الزموا) مِلّة أبيكم إبراهيم؛ لأنّكم دعوته حين قال: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ [البقرة: من الآية ١٢٨]، ومن دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [البقرة: من الآية ١٢٩]؛ لذلك كان النّبيّ ﷺ يقول: **«أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى قَوْمَهُ»**[2].

---

(١) كنز العمّال: باب في لواحق الجهاد، الجهاد الأكبر والأصغر، الحديث رقم (١١٧٧٨).

(٢) مسند الشّاميّين للطّبرانيّ: ما انتهى إلينا من مُسند محمّد بن عبد الله بن المُهَاجِرِ الشُّعَيْثيّ ثُمّ النَّصرِيِّ، أبُو بكرٍ عن سَعِيدِ بنِ سُوَيْدٍ، الحديث رقم (١٤٥٥).

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾: الإسلام انقياد عَقَديٌّ للجميع، وفي أمّة الإسلام مَنْ ليس من ذرّيّة إبراهيم، لكنّ إبراهيم عليه السلام أبٌ لرسول الله محمّد ﷺ، والرّسول أب لكلّ مَنْ آمن به؛ لأنّ أبوّة الرّسول أبوّة عمل واتّباع، كما جاء في قول الله سبحانه وتعالى في قصّة نوح عن ابنه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: من الآية ٤٦]، ولمّا كان النّبيّ ﷺ أباً لكلّ مَنْ آمن به سمَّى الله سبحانه وتعالى زوجاته أمّهات للمؤمنين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: من الآية ٦]، وما دامت الأزواج أمّهات، فالزّوج أب، وبناءً على هذه الصّلة يكون إبراهيم عليه السلام أباً لأمّة الإسلام، وإنْ كان فيهم مَنْ ليس من سلالته، ونجد بعضاً ممّن يحبّون الاعتراض على كلام الله عز وجل يقولون في مسألة أبوّة الرّسول لأمّته: لكنّ القرآن الكريم قال غير ذلك، قال في قصّة زيد بن حارثة: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: من الآية ٤٠]، فنفى أن يكون محمّد أباً لأحد، وفي هذا ما يناقض كلامكم، نقول: لو فهمتم عن الله سبحانه وتعالى ما اعترضتُم على كلامه، فالله عز وجل يقول: ما كان محمّد أباً لأحدكم، بل هو أبٌ للجميع، فالمنفيّ أن يكون رسول الله ﷺ أباً لواحد، لا أن يكون أباً لجميع أمّته، وقال بعدها: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: من الآية ٤٠]، وما دام رسول الله، فهو أب للكلّ، ثمّ يقول سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾، يعني: إبراهيم عليه السلام سمّاكم المسلمين، فكأنّ هذه مسألة واضحة وأمْر معروف أنّكم مسلمون منذ إبراهيم عليه السلام.

﴿وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: لذلك من شرف أمّة محمّد ﷺ أنّه لا يأتي بعده رسول؛ لأنّ أمّة محمّد ﷺ مأمونة على

منهج الله ﷻ، وكأنّ الخير لا ينطفئ فيهم أبداً، وقلنا: إنّ الرّسل لا يأتون إلّا بعد أنْ يعُمَّ الفساد، ويفقد النّاس المناعة الطّبيعيّة الّتي تحجزهم عن الشّرّ، وكذلك يفقدها المجتمع كلّه فلا ينهى أحدٌ أحداً عن شرّ؛ عندها يتدخّل الحقّ ﷻ برسول ومعجزة جديدة ليُصلح ما فسد، فختام الرّسالات بمحمّد ﷺ شهادة أنّ الخير لا ينقطع من أمّته أبداً، ومهما انحرف النّاس سيبقى جماعة من أمّة محمّد ﷺ على الجادّة يحملون المنهج ويتمسّكون به ويكونون قدوة لغيرهم، فالخير والكمال كلّه في شخص رسول الله ﷺ، ومنثورٌ في أمّته، ثمّ يعود السّياق إلى الأمر بالصّلاة:

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: لأنّها الفريضة الملازمة للمؤمن، وفيها إعلان الولاء المكرّر في اليوم خمس مرّات، وبها يستمرّ ذِكْر الله ﷻ على مدى الزّمن كلّه، لا ينقطع أبداً في لحظة من لحظات الزّمن حين ننظر إلى العالم كلّه، والمتأمّل في الزّمن بالنّسبة إلى الحقّ ﷻ يجده دائماً لا ينقطع، فاليوم مثلاً عندنا أربع وعشرون ساعة، واليوم عند الله ﷻ ألف سنة ممّا تعدُّون، واليوم في القيامة خمسون ألف سنة، وهناك يوم اسمه يوم الآن؛ أي: اللّحظة الّتي نحن فيها، وهو يوم الله ﷻ الّذي قال عنه: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [الرّحمن: من الآية ٢٩]؛ لذلك قال ﷺ: «مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْباً، وَيُفَرِّجَ كَرْباً، وَيَرْفَعَ قَوْماً، وَيَخْفِضَ آخَرِينَ»(١)، فيوم الآن يوم عامّ، ففي كلّ لحظة يبدأ لله ﷻ يوم ينتهي يوم،

---

(١) سنن ابن ماجه: افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصّحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجهميّة، الحديث رقم (٢٠٢).

أمّا يومه ﷻ مستمرّ لا ينقطع، ونقرأ في الحديث النّبويّ الشّريف: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ»(١)، نهار مَنْ؟ وليل مَنْ؟ فالنّهار واللّيل في الزّمن دائم لا ينقطع، وفي كلّ لحظة من لحظات الزّمن ينتهي يوم ويبدأ يوم، وينتهي ليل ويبدأ ليل، فالله سبحانه وتعالى يده مبسوطة دائماً لا يقبضها أبداً، كما قال ﷻ: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: من الآية ٦٤].

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾: الجؤوا إليه في الشّدائد، وهذا يعني أنّكم ستُواجهون وتُضطهدون، فما من حامل لمنهج الله سبحانه وتعالى إلّا اضُطهد، فلا يؤثّر فيكم هذا ولا يفُتُّ في عَضُدكم، واجعلوا الله عزَّ وجلّ ملجأكم ومعتصمكم في كلّ شدّة تداهمكم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ [هود: من الآية ٤٣]، واعتصامكم بالله سبحانه وتعالى أمر لا تأتون إليه بأنفسكم إنّما:

﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾: يعني: المتولّي لشأنكم، وما دام سبحانه وتعالى مولاكم، ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

❀ ❀ ❀

---

(١) صحيح مسلم: كتاب التّوبة، باب قبول التّوبة من الذّنوب وإن تكرّرت الذّنوب والتّوبة، الحديث رقم (٢٧٥٩).

تَمَّ بِفَضْلِ اللهِ تعالى تَفْسِيرُ الجزْءِ السّابع عشر

الحمدُ لله الّذي جعلَ القُرآنَ نُوراً لا يُطْفَأُ مِصبَاحُهُ، وسِرَاجاً لا يَخْبُو تَوَقُّدُه، ومَنهَجاً لا يَضِلُّ سَالِكُهُ، وفُرقَاناً لا يَخمَدُ بُرهانُهُ، وبُنياناً لا تُهْدَمُ أحكامُهُ، وحَقّاً لا يُخْذَلُ أعوانُهُ.

اللّهمَّ اجعلنَا ممَّن تأدَّبَ بآدابِ القرآنِ الكريمِ، وائتمرَ بأوامرِه، وانتهى بنواهيه، والتمسَ غرائبَ علومِه، وخشَعَ لسماعِه، وخضعَ لكلامِه، وآمنَ بمتشابِهه، وعَمِلَ بمُحكَمِه، واستنَّ بسُنَّتِه، وحافظَ على واجباتِه، وعَمَّرَ بتلاوتِه جميعَ أوقاتِه، ولم يغفَلْ عن تلاوتِه في حالةٍ من حالاتِه.

سبحانَ ربّك ربِّ العزَّةِ عمَّا يصفونَ، وسلامٌ على المرسلينَ، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

❀ ❀ ❀

فهرس

رقم الآية – نصّ الآية **رقم الصّفحة**

تفسير سورة (الأنبياء) من الآية: (١–١١٢):

١– ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١﴾ ١١

٢– ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٢﴾ ١٤

٣– ﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٣﴾ ١٥

٤– ﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٤﴾ ١٦

٥– ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۢ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٥﴾ ١٧

٦– ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ ١٧

٧– ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧﴾ ١٨

٨– ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨﴾ ١٩

٩– ﴿ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٩﴾ ١٩

١٠– ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠﴾ ٢٠

١١– ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ١١﴾ ٢١

١٢- ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ١٢﴾ ٢١

١٣- ﴿لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ١٣﴾ ٢٢

١٤- ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤﴾ ٢٣

١٥- ﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ١٥﴾ ٢٤

١٦- ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦﴾ ٢٤

١٧- ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧﴾ ٢٧

١٨- ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨﴾
.... ٢٧

١٩- ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا
يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩﴾ ٢٩

٢٠- ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ ٣٠

٢١- ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١﴾ ٣١

٢٢- ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾
.... ٣١

٢٣- ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾ ٣٤

٢٤- ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ
أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٤﴾ ٣٤

٢٥- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾
.... ٣٦

٢٦- ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾ ٣٦

٢٧- ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾ ٣٦

٢٨- ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨﴾ ٣٧

٢٩- ﴿۞وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ ٣٧

٣٠- ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ٣٠﴾ ٣٩

٣١- ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣١﴾ ٤٥

٣٢- ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ٣٢﴾ ٤٦

٣٣- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٣٣﴾ ٤٨

٣٤- ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ٣٤﴾ ٥٠

٣٥- ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥﴾ ٥٠

٣٦- ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٦﴾ ٥٣

٣٧- ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧﴾ ٥٤

٣٨- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾ ٥٤

٣٩- ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٣٩﴾ ٥٥

٤٠- ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾
.... ٥٦

٤١- ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾﴾ ٥٦

٤٢- ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم
مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ٥٨

٤٣- ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا
يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ٥٩

٤٤- ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي
الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ٥٩

٤٥- ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾
.... ٦١

٤٦- ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾
.... ٦٢

٤٧- ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ
حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ ٦٣

٤٨- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ ٦٥

٤٩- ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ٦٧

٥٠- ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ٦٨

٥١- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ (٥١)﴾ ٦٩

٥٢- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ (٥٢)﴾ ٧٢

٥٣- ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ (٥٣)﴾ ٧٣

٥٤- ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٥٤)﴾ ٧٤

٥٥- ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ (٥٥)﴾ ٧٥

٥٦- ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٦)﴾ ٧٦

٥٧- ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ (٥٧)﴾ ٧٧

٥٨- ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨)﴾ ٧٨

٥٩- ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٩)﴾ ٧٩

٦٠- ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ (٦٠)﴾ ٧٩

٦١- ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١)﴾ ٨٠

٦٢- ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (٦٢)﴾ ٨٠

٦٣- ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ (٦٣)﴾ ٨٠

٦٤- ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٦٤)﴾ ٨١

٦٥- ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ (٦٥)﴾ ٨١

٦٦- ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦)﴾ ٨١

٦٧- ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧)﴾ ٨١

٦٨- ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨﴾ ٨٢
٦٩- ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ ٨٢
٧٠- ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠﴾ ٨٣
٧١- ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ ٨٤
٧٢- ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾ ٨٥
٧٣- ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ
وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾ ٨٦
٧٤- ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ
إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤﴾ ٨٨
٧٥- ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾ ٨٩
٧٦- ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ
ٱلۡعَظِيمِ ٧٦﴾ ٩٠
٧٧- ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ
أَجۡمَعِينَ ٧٧﴾ ٩١
٧٨- ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا
لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨﴾ ٩٢
٧٩- ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ
وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾ ٩٤
٨٠- ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾
.... ٩٦

٨١- ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١﴾ ٩٨

٨٢- ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾ ٩٩

٨٣- ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾ ١٠١

٨٤- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ ١٠٢

٨٥- ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥﴾ ١٠٣

٨٦- ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٦﴾ ١٠٤

٨٧- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ ١٠٥

٨٨- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ ١٠٧

٨٩- ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾ ١٠٩

٩٠- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ ١١١

٩١- ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾ ١١٣

٩٢- ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾ ... ١١٤

٩٣- ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣﴾ ١١٧

٩٤- ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ
كَٰتِبُونَ ٩٤﴾ ١١٨

٩٥- ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٩٥﴾ ١١٩

٩٦- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦﴾
.... ١٢٠

٩٧- ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا
فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾ ١٢٤

٩٨- ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا
وَٰرِدُونَ ٩٨﴾ ١٢٩

٩٩- ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٩٩﴾
.... ١٣٠

١٠٠- ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠﴾ ١٣١

١٠١- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾
.... ١٣١

١٠٢- ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢﴾
.... ١٣٢

١٠٣- ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي
كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ ١٣٣

١٠٤- ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ ١٣٣
١٠٥- ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ ١٣٥
١٠٦- ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾ ١٣٨
١٠٧- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ ١٣٩
١٠٨- ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨﴾ ١٤٠
١٠٩- ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾ ١٤١
١١٠- ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠﴾ ١٤٢
١١١- ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١﴾ ١٤٣
١١٢- ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾ ١٤٣

تفسير سورة (الحجّ) من الآية: (١-٧٨):

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ ١٤٦
٢- ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ ١٤٩
٣- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣﴾ ... ١٥٢

٤- ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾
.... ١٥٦

٥- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن
نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى
ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم
مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ
وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ
زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ ١٥٧

٦- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾
.... ١٦٧

٧- ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ ١٦٧

٨- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ ١٦٨

٩- ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ
ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾ ١٦٩

١٠- ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾ ١٧٠

١١- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ
ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾
.... ١٧٢

١٢- ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٢﴾
.... ١٧٥

١٣- ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾
.... ١٧٦

١٤- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ ١٧٧

١٥- ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ
فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥﴾ ١٨٠

١٦- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾ ١٨٣

١٧- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ
أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾
.... ١٨٦

١٨- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥۤ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ
وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن
يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ١٨﴾ ١٨٩

١٩- ﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ
يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾ ١٩٣

٢٠- ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠﴾ ١٩٤

٢١- ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١﴾ ١٩٤

٢٢- ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾
.... ١٩٤

٢٣- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ
يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾
.... ١٩٥

٢٤- ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾ ١٩٦

٢٥- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ
سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾
.... ١٩٧

٢٦- ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ
لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦﴾ ٢٠٠

٢٧- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ
عَمِيقٖ ٢٧﴾ ٢٠٣

٢٨- ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم
مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾
.... ٢٠٥

٢٩- ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾
.... ٢٠٨

٣٠- ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ
ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ
ٱلزُّورِ ٣٠﴾ ٢٠٩

٣١- ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ
أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾﴾ ٢١٣

٣٢- ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ ٢١٤

٣٣- ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ ٢١٦

٣٤- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ
فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ ٢١٧

٣٥- ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي
ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ٢٢٢

٣٦- ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا
وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ
تَشۡكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ٢٢٤

٣٧- ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ
لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ٢٢٥

٣٨- ﴿*إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾
.... ٢٢٨

٣٩- ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ ٢٣١

٤٠- ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ
ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ
ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ ٢٣٢

٤١- ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ
وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ ٢٣٨
٤٢- ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ٤٢﴾ ٢٤٠
٤٣- ﴿وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ٤٣﴾ ٢٤٠
٤٤- ﴿وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ
نَكِيرِ ٤٤﴾ ٢٤٠
٤٥- ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ
وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ٤٥﴾ ٢٤٢
٤٦- ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ
فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ ٢٤٣
٤٧- ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ
مِّمَّا تَعُدُّونَ ٤٧﴾ ٢٤٧
٤٨- ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ٤٨﴾
.... ٢٤٨
٤٩- ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٤٩﴾ ٢٤٩
٥٠- ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٥٠﴾ ٢٤٩
٥١- ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٥١﴾ ٢٥٠
٥٢- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ
فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾
.... ٢٥٢

٥٣- ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝٥٣﴾ ٢٥٦
٥٤- ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ
قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٤﴾ ٢٥٧
٥٥- ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ
يَوۡمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾ ٢٥٨
٥٦- ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي
جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٥٦﴾ ٢٦٤
٥٧- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٥٧﴾
.... ٢٦٦
٥٨- ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ
وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨﴾ ٢٦٦
٥٩- ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ۝٥٩﴾ ٢٦٧
٦٠- ﴿۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ
ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ۝٦٠﴾ ٢٦٩
٦١- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٦١﴾ ٢٧٣
٦٢- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٦٢﴾ ٢٧٤

٦٣- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣﴾ ٢٧٦

٦٤- ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾ ٢٧٨

٦٥- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥﴾ ٢٧٨

٦٦- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾ ٢٨١

٦٧- ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾ ٢٨٣

٦٨- ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨﴾ ٢٨٦

٦٩- ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾ ٢٨٧

٧٠- ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾ ٢٨٧

٧١- ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ٧١﴾ ٢٨٩

٧٢- ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢﴾ ٢٩٠

٧٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ ٢٩١
٧٤- ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤﴾ ٢٩٣
٧٥- ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾
.... ٢٩٥
٧٦- ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾ ٢٩٧
٧٧- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ٧٧﴾ ٢٩٧
٧٨- ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ ٣٠٣
تضرّعٌ ودعاء ٣٠٩
فهرس: ٣١١

❀ ❀ ❀